محمد مختار

بخية المريد في شراء المواري وتقليم العبيد الأوث عم الإجتماعية للرقيق في مصر

الناشران

خالد مختار محمد مختار

نسعى لتنمية النشر العربي

المدير العام ولائل شاكر أحمر

مستشار البحوث

سامية (الأغبرى الجمهورية اليمنية

سكرتير التحرير

ولائل حسان

المشرف الفنى أحمر عبر (لرهاب



اللهم إنى أسألك فهم النبيين وحفظ الملائكة المقربين اللهم اجعل ألسنتنا عامرة بذكرك وقلوبنا بخشيتك وأسرارنا بطاعتك إنكلما تشاء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل

المستشارون

وائل رجب محمود عبد العزیز عمارة حامد عبد النبي مستشار قانونی حسن سید شقر

مستشار قانونى

تنفيذ وكوبيوتر

سوسن بكرى كريمة مختار مجدي المعداوى محمد عبد الوهاب خالد عبد العزيز أحمد عبد الرحمن

إخراج وتصميم الصفحات : محمد مختار / وائل حسان التجهيزات الطباعية والتنفيذ بدار الشريف للطباعة أحمد عبد الوهاب الشريف وشركاه

sharif mahmoud أهل الفضل

كانت هذه الصفحة هي أكثر الصفحات بين دفتي هذا الكتاب التي سببت معاناة شديدة للمؤلف ؛ فلم يكن المؤلف يعانى فقط في الاختيار بين كثيرين يدين لهم بالفضل ؛ ولكنه أيضا كان يخشى أن يسهو عفواً عن أحدهم ؛ وكان أن وقع في حيرة شديدة وهو يختار صاحب الإهداء ؛ هل يكون هو الحاج توفيق الضبع أحد رموز الحركة الصوفية في مصر؛ ومدرس التربية الدينية بالمدرسة الخديوية الثانوية ؛ والذي تعلمنا على يديه في فصل أولى/ أول متفوقين دروسا لا سبيل إلى تقديرها في تلاوة القرآن الكريم والفقه والسياسة ؛ والذي كنا ننتظر معه مساء الخميس من كل أسبوع لنجتمع في مسجد السيدة زينب بالقاهرة ؛ نجلس ونحن فتيان تكاد تنبت لحانا بين أفاضل من رجالات مصر والحركة الصوفية ونحن نتظاهر بالانغماس في حلقة الذكر قبل أن يغدق علينا شيخنا بالحلوى والفاكهة وننظاهر بالانغماس في حلقة الذكر قبل أن يغدق علينا شيخنا بالحلوى والفاكهة وننظلق بها إلى مقاهي الحي العتيق نلعب الشطرنج حتى الساعات الأولى من صباح يوم الجمعة ؛ والذي أتذكر فرحته بنا ونحن نناقشه بأدب؛ولكن في حماس وقح عندما لمح لبعضنا بأن الوقت قد حان لنعطى العهد لشيخ الطريقة.

أم يكون صاحب الإهداء الأستاذ خليفة حمد خليفة ؛ مدرس اللغة الإنجليزية بالمدرسة الخديوية الثاتوية ؛ النموذج الحقيقي للمعلم الفنان ؛ الذي كان يعقد لتلاميذه حلقات درس إضافية بعد انتهاء اليوم الدراسي نسمع فيها الموسيقى ونقرأ معه كتب وإصدارات آخرها الكتب المقررة ؛ ونجلس معه في نادى المعلمين بالجزيرة بعد انتهاء المرحلة الثانوية ؛ نتحدث في الأدب والموسيقى والحياة ونستمع لنصائحه لنا ونحن نكتب رغبات مكتب التسيق .

أم يكون صاحب الإهداء الأستاذ طلعت إسماعيل ؛ مدير التحرير بصحيفة مصر الفتاه - الإصدار الأول وأصغر مدير تحرير في مصر منذ تأميم الصحف

المصرية ؛ والذي أدين له بما قد أكون المتلكة من مهارات في التحرير أثناء عملي تحت إدارته في صحف مصر الفتاة ؛ وصوت العرب ؛ والذي لم يبخل على بالتعليم والتشجيع على الرغم من الاختلاف الكبير بيننا في التوجه.

أم يكون الإهداء للأستاذة الدكتورة عواطف عبد الرحمن ؛ الغنية عن التعريف وأستاذة الأجيال التي تخرجت من أقسام الصحافة بجامعات مصر والعالم العربي ؛ والتي علمتنا طوال سنوات مرحلتي البكالوريوس والدراسات العليا كيف نفكر ؛ ونبحث ؛ ونصل إلى نتائج ؛ وكيف نناقش هذه النتائج وندافع عنها. أم يكون الإهداء للصديقين عبد النعيم حسين وحازم محمد سالم الذي وجدتهما بجوارى في أوقات عصيبة ؟

أم يكون الإهداء للأصدقاء وجيه ؛ ووائل ؛ ووائل ؛ ووائل ؛ ومحمد ؛ وعبد العزيز ؛ والأسماء مرتبة بدون تفضيل على دورهم في خروج هذا الكتاب للنور؟ أم يكون الإهداء لشقيقي خالد ؟ أم للأحبة ؟

وعندما غلبتني الحيرة استخرت الله وقررت أن يكون الإهداء لأبى وأمي .

المؤلف: محمد مختار

القاهرة في شتاء ٩٦

sharif without

لموضوع الكتاب قصة غريبة مع المؤلف: فالمؤلف يذكر أنه ومنذ أن كان فد في سنوات تكوينه الأولى عندما كان عمره لا يتعدى أربعة عشرة عاماً كان قد اعتاد على التردد مع أقرانه على قاعة الأطفال بدار الكتب القديمة خلف متحف الفن الإسلامي ؛ وكانت القاعة على الرغم من صغرها إلا أنها كانت بالنسبة لنا في هذه المرحلة من العمر عالماً واسعاً وخيالياً ، وعلى أية حال فلم يستغرق الأمر سوى شهور حتى كنا قد قرأنا كل كتب القاعة أكثر من مرة ؛ فقرأنا مغامرات تان تان تان ؛ ووالت ديزني ؛ وجاك بلاك ، ومغامرات بلاد الغال .

وبعد ذلك ذهبنا لقاعة الإطلاع لنستطيع استعارة كتب جديدة ؛ وكان أن وقع تحت يدي وأنا أنتظر نداء موظف الإعارة كتاب أحمد شفيق باشاعن الرق، ولأول مرة أعي وأنا في هذه السن أن الإنسان كان في عصر ما يبيع ويشتري إنسان آخر تماماً كما يفعل مع أي سلعة! وبعد سنوات درسنا كتاب عن الحرية في الإسلام تناول نفس المسألة ؛ ووجدت نفسي أحاضر أقراني ومدرسي أيضاً متذكراً ما كنت قرأته بالصدفة في كتاب أحمد شفيق باشا .

وفي صيف ١٩٩٥ وأثناء عملي الصحفي حصلت على موضوع إخباري نقلاً من مصدر باليونسكو في القاهرة عن عودة صور من علاقات الرق التقليدي في مناطق من العالم بسبب ظروف الفقر أو الحرب، وأورد التقرير تفاصيل مثيرة عن وقائع لحالات استرقاق في دول أعضاء في المنظمة الدولية ، ووجدت نفسي أتذكر كتاب أحمد شفيق باشا من جديد، وعندما بدأت الكتابة في الموضوع كان في ذهني فكرة أساسية لإعادة تناول الموضوع ، فقد حسبت أنه قد آن الأوان للكاتبة عن الحياة الاجتماعية للرقيق ؛ أو عن حياة الرقيق كما عاشوا .

والمؤلف يثبت هنا اعترافاً على نفسه: فبسبب ظروف شخصية خاصة مر بها المؤلف، وأيضاً بسبب الظروف غير المواتية التي مرت بها بلادنا منذ بداية التسعينات وما صاحب هذه الظروف من إعادة نظر في كثير من المفاهيم وجد المؤلف نفسه في حيرة شديدة؛ ولم يعد المؤلف حتى قادراً على الاستمرار في الإعلان عن أراؤه، وكان أن أصبح موقف المؤلف أكثر صعوبة عندما وجد أصدقاء أعزاء من حوله يعلنون أنهم قد أصبحوا "ليبراليون" تعبيراً عن الحالة التي وصل إليها جيلنا أو جيل التسعينات - إذا صح التعبير وهي حالة اللا موقف ويقول المؤلف أنه بعد شهور طويلة من البحث في تفسيرات عديدة للقرآن الكريم وصحيحي الحديث وكتب الأصول وبعد قراءات أخرى في تاريخ الحضارات المختلفة والنظم الاجتماعية لهذه الحضارات للوقوف على طبيعة علقات الاسترقاق في هذه الحضارات، فإن المؤلف يقول باطمئنان انه لم يعد يخجل من الاستمرار في التعبير عن نفسه وفق ماكان يعتقده من قبل، فالمؤلف لا يزال عند رأيه من أن الإسلام هو النور الذي أرسله الله لهذا العالم.

وتبقى كلمة: هي أن المؤلف لا يجد فارقاً كبيراً بين مجتمع كان يقبل بوجود علاقات استرقاق داخله في عصور سابقة ، ومجتمع آخر يسمح بالبغاء وينظمه ويفرض عليه ضرائب كخدمة معترف بها ، أو مجتمع يعمل فيه أفراده مقابل اجر لا يقيم أود الحياة.

إن وضع الجارية لا يختلف كثيراً عن وضع البغي ، كما أن وضع العامل الذي تعطيه جهة عمله أجراً يكفيه فقط لأن يبقى على قيد الحياة ليستأنف عمله في اليوم التالى ليس افضل كثيراً من العبد الذي يكفله سيده لنفس السبب.

إن العالم لم يتحضر بعد !!

المنهج والأدوات

استخدم المؤلف المنهج التاريخي لدراسة التطور الزمني لتاريخ مؤسسة الاسترقاق في مصر الإسلامية في الفترة التي تبدأ بعام ٢٤٢ م وهو تاريخ توقيع عمرو بن العاص لصلح الأسكندرية مع المقوقس كبير القبط بعد أن كان قد دخل إلى مصر في العام السابق على هذا التاريخ بدخول جيش الصحابة إلى الفرما وتنتهى الدراسة بعام ١٩٢٤ م وهو تاريخ إلغاء ما عرف باسم قلم مكافحة الرقيق وهي الإدارة التي أنشأها الإنجليز في مصر لمكافحة النخاسة ؛ ومساعدة الأرقاء على الاندماج في المجتمع كأحرار .

كما استخدم المؤلف المنهج المقارن للمقارنة بين أوضاع الرقيق في مصر في ظل الثقافات المختلفة التي عرفتها مصر ، خلال الحقبة الفرعونية وتحت الاحتلال الروماني ، وفي ظل الدين المسيحي ثم بعد تحول مصر للإسلام بالإضافة إلى المقارنة بين أوضاع الرقيق في ظل الدين الإسلامي وفي ظل حضارات وديانات أخرى بصفة عامة .

وبالإضافة إلى ذلك استخدم المؤلف منهج تحليل المضمون لقراءة المحتوى الظاهر للوثائق التى وظفها المؤلف للحصول على البيانات الأساسية حول طبيعة مؤسسة الرق في فترة الدراسة ، كما استخدم المدخل القانوني لتوصيف علاقات الاسترقاق وبصفة خاصة في ظل قواعد الفقه الإسلامي .

الطبيعة الاجتماعية للرق في مصر



sharif mahmand

الطبيعة الاجتماعية للرق في مصر

لا يمكن تحديد تاريخ بعينه يمكن القول عنده بأن الإنسان قد بدأ فيه إسترقاق إنسان أخر ، ولكن الرق بصفة عامة عرفته كل الحضارات والثقافات والديانات الوضعية والسماوية أيضاً طوال التاريخ وحتى فترة قليلة قريبة مضت (١) .

(١) تم الغاء الرق رسمياً في سان دومنجو (هايتي) سنة ١٧٩٣ ؛ وفي ؛ فبراير سنة ١٧٩٤ أقرت الجمعية الوطنية في فرنسا تحت تأثير الأفكار التقدمية التي صاحبت الثورة الفرنسية مرسوماً بالغاء المرق في المستعمرات الفرنسية ؛ ولكن نابيلون أعاده في سنة ١٨٠٢ في المستعمرات الفرنسية ؛ وفي عام ١٨٠٧ تمنع بريطانيا العظمي والدنمارك السفن التي تحمل علمهما من الإشتراك في نقل الرقيق ، وفي عام ١٨١٥ تعقد الدول الأوربية مؤتمر فبينا وتصدق الدول المشتركة في المؤتمر على قرار بالغاء الرق في دولها ؛ ولكنها تحتفظ بالحق في تحديد مهلة لتطبيق القرار، وفي أعوام ١٨٢٣ و ١٨٢٦ و ١٨٢٩ تعلن شيلي وبوليفيا والمكسميك العاء الرق فيها على الترتيب ؛ وفي عام ١٨٤٣ تعلن السلطات في الهند الغاء السرق وعدم الإعتراف بشر عيته ولكن مع ذلك يظل الرقيق في نفس وضعهم ولا يعتقون ؛ وفي عام ١٨٤٦ تعلن تونس الغاء الرق في البلاد ؛ وفي الفترة من١٨٤٦ البي ١٨٤٨ نلعن جزر فيرجين الدنماركية (سنت كروا، وسنت جان، وسنت توماس، الغاء الرق فيها ؛ وفي عام ١٨٤٧ تعلن النولة العثمانية تجريم تجارة الرقيق وتغلق أسواق النخاسة في القسطنطينية ؛ وفي عام ١٨٥١ تعلن كولومبيا والأكوادور البغاء الرق ؛ وفي أعوام ١٨٥٣ و ١٨٥٤ و ١٨٥٥ تعلن الأرجنتين وفنزويلا وبسيرو الغاء الرق على التوالي ؛ وفي عام ١٨٦٣ تعلن المستعمرات الهولندية في البحر الكاريبي (كور اساو، وبونير، وأروبا، وسابا؛ وسنت أوستاسن؛ والقسم الهولندي من سنت مسارتن وسورينام تحريم تجارة الرقيق ؛ وفي عام ١٨٧٣ تبدأ بورتريكو تطبيق قانون موريت الذي يقضى بعتق الأرقاء ؛ وفي الفترة من ١٨٨٠ - ١٨٨٦ بدأ في كوبا تطبيق نفس القانون لعتق العبيد بالتدريج في أعقاب حرب الإستقلال التي عرفت باسم حرب العشر سنوات في الفترة من ١٨٦٨ - ١٨٧٨ ؛ وفي عام ١٨٨٥ تعقد بريطانيا وفرنسا والنمسا والمانيا وروسيا وأسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا وايطاليا والسويد والدانمرك والولايات المتحدة الأمريكية مؤتمرا في برلين حيث توافق على "المساعدة في الغاء الرق" وإن لم تتخذ إجراءات ضد تجارة الرقيق في افريقيا ؛ وفي عام ١٨٨٨ يبدأ عتق العبيد تدريجياً في البرازيل ؛ وفي عام ١٨٩٦ تعلن سير اليون ومدغشقر البغاء الرق رسميا في البلاد ؛ وفي عام ١٨٨٧ تعلى زنزيبار اجراء مماثل ؛ وفي-

= عام ١٩٠٠ تم الغاء الرق في الأجرزاء التبي تحتلها بريطانيا من نيجريا ؛ وفي إيران سنة ١٩٢٨ وأثيوبيا سنة ١٩٤٢ وفي قطر سنة ١٩٥٢ ؛وفي المملكة العربيـة السعودية سنة ١٩٦٢ وفي موريتانيا سنة ١٩٨١. وقد أصدرت منظمة اليونسكو نشرة خاصة عن الرق في العالم جاء فيها أنه لا تزال هناك ممارسات للرق في مناطق واسعة من العالم بما في ذلك حالات عديدة لبيع وشراء الأطفال والإتاث ؛ وحيث اتضح من المعلومات التي وردت حديثاً لمنظمة العمل الدولية في أعوام ١٩٩٢ و ١٩٩٣ و ١٩٩٤ أن الرق لم يتم القضاء عليه في موريتانيا على الرغم من الغاءه رسمياً هنساك ؛ وحيث توجد في البلاد أشكال عديدة لقنانــة الأرض (عبوديـة الأرض) بالإضافة إلى حالات عديدة لإختطاف الأطفال والإناث وبيعهم بالإضافة إلى استمرار العبيد السابقين في خدمة أسايدهم تحت نفس ظروف علاقات الإسترقاق التقليدية ؛ كذلك لا يزال الرق القليدي موجوداً في مناطق عديدة في القارة الأفريقية بسبب لزدياد الصراعات المسلحة والمحروب الأهلية بالقارة. ؛ كما تنتشر حالات من عبودية الدين في جنوب أسيا وأمريكما اللانتينيمة حيث يعمل هناك أناس تحت ظروف عمل قسرية وغير عائلة لتسديد ديون عليهم أو على نويهم كما ظهرت حالات واسعة من إختطاف الإتاث والأطفال في تايلاند لاستخدامهم في أغراض من قبيل الدعارة أو الخدمة المقترنة بممارسة الجنس بعد أن يتم تدجين هؤلاء وتلقينهم مبادئ الطاعة لماليكيهم المزعومين باستخدام الضرب الشديد أو الحرمان من الطعام لفترات طويلة ؛ و يمثل هو لاء السلعة الرنيسية التي يتم تقديمها للسائحين الأجانب القادمين لهذا البلد ضمن ما يطلق عليه سياحة الجنس أو حتى تصديرهم كسلع إلى دول أخرى . كما ظهرت دلائل على عودة أنماط الرق التقليدي في مناطق واسعة بنشاد عندما اقدمت القبائل المتصارعة على السلطة في البلاد على بيع الاسرى من الأطفال والنساءوحتى الذكور اليافعين من الطرف الآخر أثناء نــزاع هـذه القبائل على السلطة في البلاد، كما دأبت السلطات الصينية على الإعلان عن تتفيذ أحكام بالإعدام في أشخاص تصفهم بأنهم مجرمون مدانون بالإتجار في الرقيق في القرى الصينيـة الفقيرة. و شهدت استوكهولم ببلجيكا في شهر سبتمبر عام ١٩٩٦ قمة على مستوى رفيع اشتركت فيها ١٢٦ دولة من بينها دول أرسلت وفوداً برناسة وزراء الخارجية بها لوضع حد لما وصفه البيان الختامي المقمة بالإنتشار الكبير التجارة الجنس التي يتم استخدام الأطفال من الجنسين كسلع رئيسية فيها ؛ وقد أعلن البيان الخنامي للمؤتمر أن الإزدياد الكبير في هذه التجارة غير المشروعة والتي تقوم على تنظيمها شبكات منظمة من المافيا تعمل من خلال دول متعددة تقوم بإغواء الأطفال أو حتى خطفهم وتنظيم نقلهم المي بلدان بعيدة عن بلدانهم الأصلية وتقديمهم كسلع لممارسة الجنس يعد شكل معاصر من أشكال الرق. والرق بصفة عامة هو علاقة يكون فيها شخص ما مملوك بقوة القانون لشخص آخر؛ وكان يتم تدعيم سلطة السيد المالك على رقيقه استمرار ليس فقط بقهرهم جسدياً وتوقيع عقوبات بدنية عليهم تشمل حتى حق السيد في إعدام رقيقه في بعض الحضارات؛ بل كان يوجد أيضا وسائل رمزية أخرى لتكريس خضوع هؤلاء لأسيادهم والحفاظ باستمرار على شعور الأرقاء نحو ماليكيهم وغيرهم من الأحرار بالدونية والاستلاب مثل تغير أسماء الأرقاء عند انتقالهم من حوزة سيد لأخر ؛ وأحياناً من فترة أخرى لدى نفس السيد لإذلالهم وحرمانهم من شخصيتهم وسحق هذه الشخصية؛ أو حتى اختيار أسماء دامغة تدل باستمرار على وضعهم في المجتمع وتعطي معاني مختلفة تشير إلى الدور المتوقع منهم كوسيلة للخدمة أو المتعة أو الاثنين معانى مختلفة إلى الممارسة الأخرى الشائعة في جميع أو المتعة أو الاثنين معانى أب الإضافة إلى الممارسة الأخرى الشائعة في جميع أعمارهم.

وحيث لم يكن الضرب بالسياط على سبيل المثال مجرد وسيلة لعقاب الرقيق على أخطاء أرتكبها أو تقصيره في خدمة مالكيه بقدر ما كان أداة للسيطرة عليهم والتأثير في نفوسهم وتذكيرهم دائماً بوضعهم الاجتماعي بوصفهم أناس لا كرامة لهم ؛ بالإضافة إلى أن الضرب بالسياط كان يتم استخدامه في الغالب على إعتبار أنه الحافز الوحيد المناسب للحصول من الأرقاء على المزيد من الجهد سواء من رقيق الخدمات المنزلية أو من الرقيق القائم بأعمال أخرى .

كما كانت هناك وسائل مختلفة لتدعيم سلطة السادة على رقيقهم بواسطة عدد كبير من القواعد الإجتماعية والتي اشتركت في وضعها الأعراف السائدة في هذه المجتمعات والمؤسسات الدينية بها وحتى الرقيق أنفسهم ؛ فهؤلاء لم يكونوا يظهرون المزيد من الخضوع مقابل المزيد من القهر فقط ؛ بـل كانوا هم أنفسهم أيضاً يظهرون إحتقاراً شديداً فيما بينهم لهذا الصنف من الرقيق الذي يصبح لسبب أو لآخر بدون سيد.

وعند البحث في نشأة مؤسسة الرق عبر العصور لا يمكن أن نتجاهل دراسة نشأة الأفكار العنصرية بين المجتمعات البشرية المختلفة ؛ ليس فقط للإرتباط الظاهر بين فكرتي العنصرية والإسترقاق ولكن أيضا لأن أي حديث عن خصائص الرق وعلاقات الإسترقاق في مصر والشرق سيقودنا إلى الحديث عن خصائص نفس الظاهرة في الغرب وفي ظل الحضارات الغربية المختلفة .

كان هناك جدل يدور باستمرار بين علماء الأنثربولوجيا حول ما إذا كانت العنصرية قديمة العهد أم أنها تطورت مع تطور المجتمعات البشرية ؛ أحد علماء الأنثربولوجيا هو كلود ليفي شتراوس C. Levi - Strauss يقول بأن العنصرية قديمة وإنه حتى الشعوب البدائية كانت تتصور أنها وحدها الكائنات الإنسانينة الوحيدة في العالم ؛ وأن كثيراً من القبائل البدائية كانت تسمى نفسها " البشر " أو "الآدميين" وتستخدم مفردات أخرى للإشارة إلى الأجانب تعني في تقافة هذه القبائل "القرود الدنيا" أو "البيض الحقراء" أو "الأشباح" وحتى "الأشرار" بل أن البدائيين تصوروا أن كل الأجانب مختلفون عنهم إلى درجة تجعلهم غير آدميين(۱).

ويضيف شتراوس أنه لم يحدث أن تصورت قبيلة بدائية أوعشيرة واحدة أن كل أهل الدنيا ينتسبون إلى الآباء أنفسهم أو الآله نفسه ؛ وأن الأديان التي نادت بالأخوة الشاملة بين البشر لم تظهر إلا في الألفي سنة الأخيرة ؛ وحيث طورت المسيحية والفلسفة الرواقية التي ظهرت في روما بتاثير من الأغريق ؛ والبوذية الشرقية مفهوم الإساتية " في وقت واحد تقريباً ؛ بينما لم تكن الأديان السابقة على ذلك تفكر إلا في قبيلتها أو عشيرتها هي فقط بما فيها

⁽۱) كافين رالسي: الغرب والعالم، القسم الثاني - ترجمة عبد الوهباب المسيري وهدى عبد السميع. عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٦.

الديانة اليهودية (١) .

وفي مقابل ذلك يقدم عالم آخر من علماء الأنثربولوجيا وهو ميشيل ليريس Michel Leiris وجهة نظر مغايرة عندما يقول: أن التحيزات العنصرية هي أمور حديثة العهد؛ وأنه على الرغم من ان معظم الدراسات التي تم إجرائها على المجتمعات البشرية قد كشفت عن وجود إعتزاز بالجماعة؛ إلا أن ذلك لم يمنع هذه الجماعات من الدخول في تحالفات مؤقتة مع غيرها من الجماعات ولا عن تزويد نفسها بالنساء منهم(٢).

وهو يدلل على وجهة نظر بقوله: إنه على الرغم من أن اليونانيين القدماء أطلقوا على جيرانهم اسم "البرابرة" إلا أنهم كانوا يقصدون بذلك أن هؤلاء غير متحضرين أو متقفين ؛ ولم يعنوا قط أنهم ليسوا بشر ؛ وأنه على الرغم من أن اليونانيين كانوا يزدرون الإجانب، إلا أنهم كانوا يزدرون كل الأجانب بالتساوي وبصرف النظر عن الجنس . وأن ذلك لم يمنع الجنود اليونانيون عندما فتحوا فارس والهند تحت إمرة الأسكندر الأكبر من أن يتزوج أكثر من عشرة آلاف منهم من نساء هنديات وفارسيات وأن الأسكندر نفسه قد تزوج فارسيتين ؛ ولم تظهر لديهم مخاوف من أن نسلهم من هؤلاء النسوة يمكن أن يكون أقل إنسانية أو أنه سيفسد الجنس أو الدم اليوناني(٣)

وعلى الرغم من أن شتراوس قد أصاب عندما أشار إلى أن شعوب العصر الحجري القديم والحديث لم تكن تؤمن بفكرة وحدة الجنس البشري ؛وأن الناس في معظم الجماعات الإنسانية ظلت على الدوام ترتاب في الغرباء لا سيما حينما تكون ملامح هؤلاء الغرباء مختلفة عن ملامحهم ؛ إلا أن خجة ليرس من جهة

⁽¹⁾ Michel Leiris "Roce and Culture" in UNESCO, Race and science (New Yourk: Columbian University Press, 1951.

⁽٢) كافين رالى: الغرب والعالم؛ مرجع سابق.

أخرى تبدو مقنعة في كثير من جوانبها.؛ فالعنصرية التي صاحبت نمو مؤسسة الرق في الخمسمائة عام الأخيرة تجعل من السهولة بمكان على الباحث أن يربط بين تقدم الجماعات البشرية و إزدهار الأفكار العنصرية .

إن إزدهار هذه الأفكار ارتبطت أكثر بصعود الحضارات الغربية ؛ فعندما استرق المصريون القدماء أو الصينيون في الشرق أبناء الأجناس الأخرى منذ ألاف السنين فإنهم لم يجعلوا من الرق العنصري أسلوباً للحياة كما حدث بعد ذلك بالاف السنين في الأمريكتين على يد الأوربيين المسيحيين البيض(۱) بل نجد أن كتاب الموتى وهو مصدر أساسي من مصادر العقيدة الدينية لمدى المصريين القدماء يحتوى على نصوص تشير إلى أن الميت عند حسابه أمام محكمة الآلهة فإن الآلهة تسأله عن أشياء عديدة من بينها إذا كان قد سبب ألماً لرقيقه (٢).

فعلاقات الإسترقاق في المجتمعات القديمة في الحضارات الشرقية لم تكن مرتبطة بممارسات عنصرية إلا في حالات نادرة؛ فقد كانت أرستقراطية التوتسى على سبيل المثال والتي كانت تمثل حوالي ١٥٪ فقط من السكان في مملكتي رواندا وبوروندي بوسط أفريقيا كانت تحكم الأغلبية من الهوتو والتوا ؛ وارتبط ذلك بممارسات عنصرية ، كما حكمت عائلات من أصول عربية قبائل الهوسا في نيجريا من أصحاب اللون الداكن وظهرت لدى هؤلاء الحكام ممارسات عنصرية تربط بين لون البشرة الفاتح والسيادة الطبيعية والسياسية (٣) ولكن هذه الممارسات لم تمثل مبادئ عامة لدى المسلمين أو الأفارقة فعلاقات الإسترقاق داخل مؤسسة الرق في أفريقيا لم تكن مرتبطة أبداً بأفكار أو ممارسات عنصرية؛ بل أن أقسى أشكال الرق التي ظهرت في تاريخ مؤسسة الرق

⁽١) كافين رالمي: الغرب والعالم مرجع سابق.

⁽٢) د. عبد السلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره، مرجع سابق.

⁽٣) كافين رالي: الغرب والمعالم -؛ مرجع سابق .

في العالم القديم كانت في حضارات غربية بالأساس سواء كان ذلك لدى اليونان أوالرومان ؛ فبينما كان الأفارقة والمسلمون يستخدمون أرقائهم بصفة أساسية في أعمال الخدمات المنزلية أو الأعمال المرتبطة بتوفير الرفاهية أو المتعة ؛ كان الرومان واليونانيون يستخدمون عبيدهم من جميع الأجناس في الأعمال الشاقة جداً سواء في الزراعة أو شق الطرق؛ أو حتى للترفيه بدفعهم إلى التقاتل أو منزالة الوحوش الضارية حتى الموت(١).

إن الأوربيين كانوا هم الذين قاموا بنقل كتل هائلة من أبناء الشعوب الأخرى الذين وقعوا في أسر استرقاق الأوربيين لهم بقوة السلاح وفرضوا على هؤلاء العمل قسراً في مزراعهم ومناجمهم بدون أي مقابل سوى ما يكفي من الطعام ليبقى هؤلاء على قيد الحياة ليستمروا في العمل ؛ و هؤلاء وحتى بعد أن أصبحوا مسيحيين هم الذين قاموا بنقل جماعات سكانية بأسرها إلى عالم آخر وحطموا العائلات داخل هذه الجماعات ومحوا شخصياتهم وتراثهم وعاملوهم معاملة الحيوانات ، وهم الذين طوروا مجموعات مفصلة من التبريرات النظرية لممارستهم العنصرية ضد الشعوب الأخرى ؛ ولم تعرف أى حضارة سابقة هذا العدد الكبير والمؤثر من الشعراء والفلاسفة والدبلوماسيين والمفكرين المؤمنين بأفكار عنصرية كالتي أفرزتها حضارات الأوربيين المسيحيين البيض منذ أن ابتليت شعوب الأرض الأخرى بصعود هؤلاء وتفوقهم السياسي والعسكري .

فقد كانت العنصرية الغربية فريدة في مداها وشمولها ؛ فجميع المستوطنات الإستعمارية في العالم الجديد لم تزدهر على يد الأوربيين البيض إلا بعد أن قام

⁽١) كافين رالي: الغرب والعالم ؛ مرجع سابق .

هؤلاء بإبادة السكان الأصلبين سواء كانوا من الهنبود في أمريكا الشمالية أو السكان الأصلبين في القارة الإسترالية ؛ وأيضاً لم ينجح هؤلاء الأوربيين في بناء حضاراتهم الجديدة هناك إلا بعد أن وضعوا قواعد صارمة لنظام من العمل العبودي صهر في أتونه أعداد هائلة من الافارقة السود الذين أصبحوا لسوء حظهم رقيقاً للأوربيين البيض المسيحيين .

صحيح أن بعض المجتمعات القديمة أقامت في مراحل معينة مؤسسات عنصرية أفرزت علاقات استرقاق تقوم على أفكار عنصرية ؛ لكن هذه الحالات كانت نادرة ؛ ولم تتحول حالة واحدة منها أبدأ لأن تصبح الإطار النظري لشعب ما أو ثقافة ما ؛ أما العنصرية في الحضارة الغربية المسيحية الحديثة (يعد حوالي ١٥٠٠) فقد أصبحت اسلوباً للحياة لدى السكان الأوربيين في أوربا نفسها ثم في الأرض التي فتحوها بعد ذلك(١)

والسؤال الذي يجب طرحه الآن. هو: لماذا سمحت الحضارة الأوربية الحديثة دون سائر الحضارات والمجتمعات الأخرى في تاريخ البشرية بأن تجتاح الأفكار العنصرية سائر مؤسساتها الإجتماعية والسياسية وأيضا الثقافية على هذا النحو؟! إن جزءا من الجواب يكمن في الرق ؛ وخاصة ذلك النوع العنصري من المرق الذي طورته الحضارة الأوربية بعد اتصالها بأفريقيا وإكتشافها للأمريكتين؛ فقد بنت إنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال والهولنديون (وليست هذه إلا أبرز الحالات فقط) مجتمعات عبودية من الصفر في العالم الجديد؛ وعلى خلاف ما فعل المرومان الوثنيون في العصور القديمة؛ فإن الأوربيين المسيحيين في العصر الحديث قاموا ببناء هذه المجتمعات مستخدمين جنساً واحداً مميزاً من العبيد الأقارقة السود.

⁽١) كافين راثي: الغرب والعالم ، مرجع سابق .

لقد استطاع الأوربيون الحاق الهزيمة بالأفارقة واسترقاقهم بسبب تفوقهم البحري والعسكري ؛ ولكن من الخطأ أن نقول أن الأوربيين ببساطة قد سبقوا الأفارقة السود، وكأنه كان من الممكن أن يفعل الأفريقيون الشئ نفسه للأوربيين اذا اتيحت لهم الفرصة ؛ إذ لا توجد أية مؤشرات قوية في الثقافة الأفريقية تدل على أن الأفارقة كانوا سير غبون في استرقاق الأوربيين؛ فالثقافات الأفريقية بصفة عامة كانت أقل انشغالاً بالسلطة والإنتاجية من الثقافة الأوربية؛ كما أن إحتمال أن ينظر الأفريقيون إلى الأوربيين على أنهم دون البشر أو مجرد موضوعات ينظر الأفريقيون إلى الأوربيين على أنهم دون البشر أو مجرد موضوعات للإستغلال كان ضعيفاً(١).

لقد بلغت العنصرية الأوربية المسيحية أبعاداً مذهلة في ظل الرق ؛ غير أن جذور هذه الثقافة ترجع إلى ماقبل اصطياد أول عبد أفريقي .

الأبيض والأسود في الثقافة الأوربية المسيمية :

قبل أن يقوم الأوربيون بتنظيم حملاتهم العسكرية لإصطياد الأفارقة من قارتهم السوداء وشحنهم عبر المحيط إلى قارتهم الأوربية البيضاء أو إلى الأرض الجديدة في أمريكا الشمالية كانوا قد طوروا بالفعل تقافة مسيحية تحتوى على رموز لا يمكن تجاهل دلالتها حول مسألة اللون الأبيض واللون الأسود.

كانت الخطيئة في الثقافة الأوربية المسيحية مرتبطة بشكل أو بآخر باللون الأسود ؛ فكان يتم التعبير عن الفضيلة والطهارة والتوبة من خلال البياض أو النور المشرق ؛ فالملائكة والقديسيين تحيط بهم دائماً هالات بيضاء ؛ فحتى رسول الله عيسى عليه السلام والذي ينتمي بالأساس إلى الشرق قد تحول في المخيلة الأوربية إلى اللون الأبيض تدريجياً ؛ إلى أن ظهر في لوحات عصر النهضة في أوربا وهو يصطبغ بالبياض وله عيون ملونة زرقاء وشعر أشقر .

⁽١) كافين رالى : المغرب والعالم - مرجع سابق .

الإله حوريس يحيط به أشخاص ذو الوان مختلفة ؛ فيظهر في الصورة مصري من الشمال أسمر البشرة ومصري من الجنوب ذو بشرة سوداء وشخص ذو ملامح أسيوية ولون بشرة صفراء و آخر أبيض اللون ذو ملامح أوربية ؛ وعلى ملامح أسيوية ولون بشرة صفراء و آخر أبيض اللون ذو ملامح أوربية ؛ وعلى الرغم من أن ميزان القوى في مصر ظل لفترات ينتقل بين الشمال والجنوب إلا أن مصر ظلت طوال التاريخ المصري القديم تعيش في توافق من الناحية المنصرية ؛ فلم يطور المصريين أبداً أى ممارسات عنصرية تجاه أعراق أخرى بل أن الحضارة المصرية ذاتها لم ظلت باستمرار حضارة متنوعة الأعراق؛ وفى مكان آخر من الشرق نجد الفيلسوف الصيني كونفوشيس ينادي بأفكار تقول بأن طبيعة الناس واحدة وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠ قبل الميلاد .

وحتى بالنسبة للمعاني الكامنة في مفردات اللغة فإن كلمة 'أسود' كانت تعبر باستمرار في اللغات الأوربية عن خبرات سلبية ؛ فقاموس أكسفورد للغة الإنجليزية اورد المعاني التالية تحت كلمة أسود: "ملطخ للغاية بالقذارة ، ملوث ، قدر ... أهدافه سوداء أومميتة أو شريرة، ينتمى للموت وينطوي عليه ، مميت ، مهلك ، مسبب للكوارث ، والنحس ... فاسد فاسق أثيم، مرعب، شرى يدل على الخزي والإستهجان والجرم ".

وكان من المتوقع أن ينتج عن كل هذه الدلالات السلبية للون الأسود في الثقافة والضمير الأوربي ان تظهر مبررات واقعية للطابع الوحشى وغير الإنساني الذي اتسمت به علاقات الإسترقاق داخل مؤسسة الرق في الغرب؛ فقد اتسمت علاقات الرق دائما في هذه المجتمعات باصطباغها بالأفكار العنصرية ؛ فلم يكن من المتوقع أبدا أن ينجو احد من العبيد الأفارقة السود من المصير الذي ألوا إليه بعد إصطيادهم ونقلهم عبر المحيط ليسترقهم السيد الأوربي ؛ بينما كان من الطبيعي في ظل الحضارات الشرقية أن ينضم الرقيق إلى مجتمع الأحرار في أى وقت إذا أعتقه سيده أو استطاع أن يفتدى نفسه .

إن هذا المبدأ لم يكن مقبولاً أبداً في ظل الحضارة الغربية ؛ فقي نهاية القرن الثامن عشر يصدر التشريعات في كارولينا الجنوبية تحت قانون ثانون ١٧٤٠ الذي كان نصه كالتالى: "جميع الزنوج أو الخلاسيون أو المهجنون أو الذين سيوجودون في الإقليم وكل نسلهم وذريتهم المولودون منهم والذيب سيولدون ، هم بموجب هذا القاتون من العبيد وسكونون كذلك في المستقبل وسيظلون إلى الأبد من الآن فصاعداً عبيداً بشكل كامل(١).

وكمثال آخر على عدم تقبل المجتمع الغربي لفكرة أن يسترد الأفريقي الأسود الذي فرض عليه سيده الأوربي المزعوم الإسترقاق كانت القوانين في ولاية فرجينيا تلزم العبد المعتق أن يغادر الولاية بصفة نهائية في خلل عام من تاريخ حصوله على حريته ؛ وإلا يتم بيعه مرة أخرى ويتم مصادرة ثمنه لصالح الصندوق الأدبى في المدينة !

كما كان شائعاً في الولايات الأمريكية قبل الاتحاد أن تعتبر المحاكم أن أى شخص أسود هو عبد إلى أن يثبت أنه قد حصل على حريته؛ كما كان ينظر إلى تحرير الرقيق في المستعمرات البريطانية بقلق ؛ وكانت السلطات فى هذه المستعمرات تفرض رسوم باهظة يسددها الملاك الذين يرغبون في عتق رقيقهم بما يفوق قيمة هذا الرقيق .

إن إحدى التبريرات التي تحاول تفسير وحشية الرق في الغرب عنه في الحضارات الشرقية تقول بأن مؤسسة الرق في الشرق قد اكتسبت عبر تاريخها الطويل خبرة فيما يتعلق بمعاملة الأرقاء ؛ بالاضافة الى التأثيرات الفكرية للأديان السماوية التي كان الشرق مهدها ؛ وكذلك العديد من الفلسفات الوضعية ذات الصبغة الإنسانية .

⁽١) كافين رالى : الغرب والعالم – مرجع سابق .

كل ذلك قد مكن مؤسسة الرق في الحضارات الشرقية من أن تطور لنفسها مجموعة من الأليات والإجراءات التي عملت باستمرار على تخفيف حدة الجوانب السلبية للرق ؛ وحيث ظهرت باستمرارفي الشرق قائمة من الإلتزامات على المالك نحو رقيقه ؛ مع الأخذ في الإعتبار أن هذه القائمة كانت تطول أو تقصر تبعاً لطبيعة كل حضارة من هذه الحضارات .

فالمسيحيون والمسلمون الأثرياء في الشرق كانوا يعاملون عبيدهم في الغالب كأعضاء في الأسرة يمكن الإعتماد عليهم ؛ فعلاقات الإسترقاق داخل مؤسسة الرق في الشرق لم تعرف خط لوني واضح يفصل بين الرقيق والأحرار؛ فكان الأغنياء في الشرق مسلمون ونصارى يملكون الرقيق الأبيض أو الأسمر أو الأسود تبعاً للظروف ؛ وكان الرق في الشرق نظاماً قوامه الاعتماد على الاثرياء والأقوياء أكثر منه نظاماً للملكية.

وفي نفس الوقت فإن الرق التقليدي في إنجلترا على سبيل المثال كان قد اختفى تقريباً منذ عام ١٥٠٠م؛ وتحولت العلاقات الإقطاعية التقليدية من قنانة الأرض إلى نظام جديد كان قوامه فلاحون يتميزون بقدر كبير من الإستقال عن السيد الإقطاعي؛ ولذلك فإن الإنجليز وكذلك الهولنديين والدينماركيين عندما بدأوا في إصطياد الأفارقة واسترقاقهم بعد عام ١٥٠٠م بعد أن شعروا بأن تفوقهم العسكري يتيح لهم ذلك وأيضا لحاجاتهم إلى أيدى عاملة رخيصة التكلفة أو حتى مجانية فإنهم قد بدأوا بناء مؤسسة الرق عندهم من الصفر تقريبا؛ بالإضافة إلى العبيد الذين تم إصطيادهم كانوا بالأساس أفارقة ومن أصحاب البشرة السوداء وهو اللون الذي ارتبط عادة الدوام في مخيلة الأوربيين المسيحيين بالشر والاثم

لذلك فإن ملاك الرقيق الجدد لم يجدوا أنفسهم مضطرين إلى الإلتزام بأى قائمة من الإلتزامات نحو عبيدهم أو أن يشعروا نحوهم حتى بأى النزام أدبي ، بالإضافة إلى ظهور تبرير كنسى جديد يحاول إراحة الضمير المسيحي الأوربي

بشأن الحملات الوحشية لإصطباد الأفارقة ونقلهم قسرا عبر المحيط ليتحولوا إلى وقود جديد لمؤسسة الرق الغربية ؛ بأن هذه الحملات كانت توفر في النهاية فرصة طيبة لهؤلاء السود لإنقاذ أرواحهم من الجحيم بعد أن يتم تعميدهم وإدخالهم إلى المسيحية بدلا من الديانات الوثنية التي كانوا يتبعونها في بلاهم(١) وبصفة عامة فإن الأوربيين لم يتعاملوا مع عبيدهم السود بوصفهم جزء من عائلاتهم الممتدة كما كان الحال في الشرق ؛ بل أنهم نظروا إليهم دائماً على أنهم وسيلة لتحقيق الربح وتعظيمه .

وكان أن وضع الأوربيون البيض قوانينهم الخاصة للعبودية ؛ والتي ارتبطت بخطط المستوطنيين الأوربيين في الأراضي الجديدة لإنشاء إقتصاد رأسمالي دينامي تكون فيه مؤسسة الرق أحد آليات توليد الأرباح ؛ وحيث كانت الفكرة الأساسية هو أنه طالما ظل في الإمكان جلب أفارقة جدد إلى الأرض الجديدة وفرض الإسترقاق عليهم فلا مانع من استخدام كل الوسائل المتاحة لاستخراج أكبر قدر من الجهد من العبيد السود العاملين في المزارع ؛ وطالما أن تكلفة جلب

⁽۱) حدث كثيرا أن تم إصطياد أفارقة يدينون بالإسلام من مناطق قريبة من سواحل غانا ؛ وتورد كتابات عديدة شهادات عن أن المسلمين من الأفارقة الذين تم إصطبادهم ونقلهم قسراً إلى الأراضي الجديدة في القارة الأمريكية استمروا لفترة طويلة يحاولون ممارسة شعائر هم الدينية سراً دون علم مسترقيهم كي لا يتعرضوا للعقاب. كما وردت شهادات عن تمرد قام به هؤلاء المسلمون في مزارع القصيب في البرازيل بعد أن حاول أسيادهم إرغامهم قسراً على التحول إلى المسيحية . وظلت السلطات في البلاد لفترة طويلة بعد إخماد هذا التمرد تبحث عن عبد كان يأمهم في الصلاة اسمه أحمد لإتهامه بقيادة التمرد وتحريض العبيد الأخرين على الإنضمام اليه . لمزيد من التفاصيل انظر جيمس ميللون : أيام الضرب بالسياط - باريس ١٩٩١ - نصوص مترجمة بواسطة مركز مطبوعات هيئة اليونسكو - القاهرة ١٩٩٤.

عبد أسود جديد ستكون أقل من تكلفة توفير ظروف عمل إنسانية للعبد الموجود بالفعل للإبقاء على حياته ؛ فلم يكن هناك معنى لدفع المزيد من التكاليف(۱) .إن عنصرية الأوربيين كانت وثيقة الصلة بسمات مؤسسة الرق لدى هؤلاء ؛ كما أن الخبرات المرتبطة باللونين الأبيض والأسود في مخيلة الأوربي وكذلك أفكار الكنيسة البروتستانتية حول الجنس والخطينة؛ هذه الأفكار شجعت على تطوير علاقات وحشية داخل مؤسسة الرق في الغرب والتي اتسمت دائماً بأنها قامت على أساس حاجز لوني وطبيعة عنصرية وحشية لم يسبق لها مثيل.

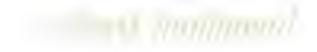


(۱) أورد سجل المصروفات غير العادية لحساب تجارة الرقيق لملك فرنسا في جزيرة مدغشقر ٢١ سبتمبر سنة ١٧٦٧م التكاليف النالية للحصول على رقيق أفريقي ؛ فقد كانت تكلفة شراء امرأة أفريقية يبتراوح عمرها بين ١٦ و ١٧ عام؛ بنائق قتال وبندقية صيد واحدة من النوع المستخدم الإصطياد العبيد و٣ زجاجات براندي! وكانت تكلفة شراء عبد اخر يتراوح عمره بين ١٨ - ٢٠ عام ٥ بنائق قتال و ٥٠ رطلاً من البارود و ١٠ زجاجات براندي ويورد المؤلف كنموذج لطبيعة نظرة السيد الأوربي إلى رقيقه كأداة لتوليد الأرباح هذا الإعلان الذي ظهر في ٤ من أكتوبر سنة ١٧٧٥ في صحيفة الإعلانات المنوعة الايل ديفرانس من الممتلكات الفرنسية فقد جاء الإعلان كالتالي: شخص يسافر إلى فرنسا، يعرض البيع قطعا من الأثاث والأواني الفضية وأدوات منزلية، وإمرأة زنجية ما المجشية (من مدغشقر) عمرها ٥٠ سنة، خياطة، تغسل وتكوى الأسرة من ثلاثة أطفال، منهم بنتان، إحداهما عمره ١١ سنة والثانية ٧ سنوات، وصبي عمره ٩ شهور . وهناك أيضاً شاب أسود من موزمبيق، فرنسي الطباع، وخادم مطيع ثم رجل أسود قوى الجسم من الأصل نفسه، قادر على تزويد منزل بالماء، وخشب الوقود، وطباخ شاب من البنغال، حسن المظهر، والسلوك، وعاقل، يقدم الطلب لمكتب الصحف .

المصدر: مجلة رسالة اليونسكو - الطبعة العربية - أكتوبر ١٩٩٤.

أوضاع الرقيق في مصر في ظل الدين الإسلامي





أوضاع الرقيق في معر في ظل الدين الإسلامي

بقدوم جيش الصحابة بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر وفتحهم للبلاد نشأ واقع جديد تمثل في أن مصر انتقلت بهذا الفتح من كونها أحد المستعمرات التابعة للإمبر اطورية الرومانية لتصبح واحدة من أمصار أخرى شكلت في السنوات القليلة التالية دولة الخلافة الإسلامية ؛ والتي فرضت نفسها على العالم القديم كواحدة من الكتل السياسية الرئيسية في ذلك العالم وأقواها على الإطلاق .

وكان أن نتج عن هذا الواقع الجديد أوضاع سياسية وأيضا أوضاع اجتماعية جديدة أثرت على أوضاع وحياة الطبقات الاجتماعية الموجودة في المجتمع المصري في هذا العصر ؛ ومن ضمن هذه الطبقات التي كانت تحيا داخل المجتمع المصري وتأثرت بالأوضاع الجديدة بطبيعة الحال الرقيق الذي كان يعيش في مصر ؛ سواء كان هذا الرقيق مجلوباً إلى البلاد أو تم توليده في مصر من نسل ذلك، الرقيق .

فقبل الفتح الإسلامي كان الرقيق فسى مصر يعيش فسى مجتمع يدين بالمسيحية بالأساس ؛ بالإضافة إلى تأثيرات تقافية لا سبيل لتفاديها من التراث الروماني الذي يمثل المكون الأساسي لحضارة العنصر المحتل والمسيطر على البلاد ؛ وأيضا التراث المصري الفرعوني القديم الذي يشكل الإطار العام للشخصية المصرية ذات الجذور الثقافية الفرعونية ؛ وهو الإطار الذي تدل كل الشواهد على أن الاستعمار الروماني لم يستطع تحطيمه على الأقل حتى تلك الفترة .

وفي مصر القديمة أرتكز النظام الاقتصادي للبلاد في عصر الدولتين الوسطى والحديثة على النظام العبودي ؛ فقد كانت هذه الفترة من التاريخ المصرى القديم فترة حروب و غزوات ؛ يخرج الطرف المنتصر منها دائما بأعداد من الأسرى الذين يسقطون تلقائيا وبمجرد إنتهاء المعارك في الرق ؛ وحيث يوزع هؤلاء

كغنائم على جنود الجانب المنتصر ؛ والذين كان في استطاعتهم بعد ذلك أن يحتفظوا بهم كأرقاء أو أن يبيعوهم بدورهم في أسواق النخاسة.

وكان رمسيس الثانى من الملـــوك المصريين الفاتحين الذين أعتادوا توزيع أسارى الحروب التى يدخلونها كغنائم على الأبطال من جنوده ؛ وتروى لنا مصادر التاريخ المصرى القديم قصة الجندى لموس الذى حصـل على تسعة عشر رأس من الرقيق بين ذكور وإناث مكافأة له على شجاعته في الحرب(١).

وتبقى واحة الفيوم فى مصر لتشهد على الدور الذى لعبه الرقيق فى تسيير إقتصاد مصــر الفرعونية ؛ فقد كانت الواحة عبارة عن منخفض جغرافى تحت سطح البحر تغمره ميـاه الفيضان باستمرار ؛ وكان أن تم إستخدام كتل ضخمة من الرقيق لتجفيف هذا المنخفض ؛ وبناء سد كبير على مدخل الواحة لحجز مياه الفيضان وتنظيم تدفق مياه نهر النيل وتخزينها لاعادة استخدامها فيما بعد.

وبصفة عامة فإن وضع الرقيق في مصر الفرعونية كان أفضل من وضعه في ظل ثقافيات أخرى ؛ فقد جاء في كتاب الموتى الذي كان يمثل أحد المصادر الرئيسية للعقيدة الدينية عند قدماء المصربين أن رحمة الله تسع العبيد وأنه لا ينبغي أن تساء معاملة الرقيق ؛ كما كانت الشرائع السائدة في مصر القديمة تحمى العبد من الإعتداء والأذى ؛ حتى أنه في بعض الحالات كان من يقتل به .

كما قررت هذه الشرائع أن الميت عند محاسبته أمام محكمة أوزوريس يشهد على فسه بأنه لم يسع في ضرر عبده (٢).

وفى ظل التواجد الرومانى فى مصر كان من الطبيعى أن تكون للقوانين الرومانية وأيضاع المبادئ العقلية للرومان وتقافتهم تأثيرها على أوضاع الرقيق

⁽١) د . على عبد الواحد؛ د.حسن شحاتة : قصة الملكية - مرجع سابق .

⁽٢)د. عبد السلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره - مرجع سابق.

فى مصر ؛ وأن تضع السلطات الرومانية لهـــؤلاء منظومة كبيرة من القوانين والقواعد والأعراف ؛ وأيضا أساليب العقاب والمكافأة التى تحكم سلوك الرقيق وحياتهم اليومية ؛ وكانت لهذه القواعد والأسس أهمية خاصة فى ظل صعود الرومان فى العالم القديم ؛ وما صاحب ذلك الصعود من إزدهار كبير طال أسواق النخاسة وتجارة الرقيق فى عصر سيادتهم على العالم والنمو غير المسبوق فى حجم مؤسسه الرق فى هذه الفترة .

و كانت الإنتصارات التى حققتها جيوش أباطرة الرومان سببا فى خلق معين لا ينضب من الأسرى ؛ الذين شكلوا رافداً متجدداً لمؤسسة المرق ؛ ففى روما وحدها كان يعيش ٢٨١ ألف حر مقابل أكثر من ٤ ملايين من الرقيبق(١) بالاضافة الى أن الرومان كانوا يعتبرون أن شعوب الامم المقهورة لهم والتى سقطت تحت حكمهم هى بالفعل رقيق للرومان ؛ وبصفة عامة كان للسيد الحر الروماني على رقيق سلطة مطلقة تتيح له حتى حق إعدام رقيقه فى بعض الحالات وكانت تسلية الرومان المفضلة هى أن يشاهدوا الأرقاء وهم يتقاتلون حتى الموت أو وهم ينازلون الوحوش الضارية ؛ كما أسرف السادة الرومان كثيرا فى قتل رقيقهم عقاباً لهم على أخطاء قد لا تستحق القتل ، وكانت لهذه الممارسات بالاضافة الى تأثر بعض الأباطرة الرومان بأفكار الرواقيين(٢)

⁽۱) د.عبد السلام الترمانيني : الرق ماضيه وحاضره - مرجع سابق.

⁽٢) يطنق اسم الرواقيون على أتباع مدرسة فلسفية تأثرت بأفكار المدرسة الكلبية ؛ وهي مدرسة فلسفية يونانية اتخنت موقفا معارض المدرسة أفلاطون وأرسطو فيما يتعلق بالرق ؛ فقد قررت المدرسة الأفلاطونية أن البشر صنفين أساسيين ؛ يونانيون عاقلون ؛ وبرابرة متوحشون فكل من هو ليس يونانيا وجب استرقاقه من قبل اليونان ؛ وكانت هذه الفكرة حول تعريف الرقيق أحد الأفكار الرئيسية التسى بنى عليها أفلاطون عليها أسس جمهوريته الخيالية ؛ وتجدر لأشارة هنا الى أن أفلاطون نفسه كان قد سقط في الرق عندما غادر أثينا بعد مسوت سقراط .

أثرها في أن تصدر قوانين تحرم قتل الرقيق بدون محاكمة ؛ وتبيح للرقيق أن يلجأ الى القاضى إذا تعرض لتعسف واضح من سيده.

وجاءت المدرسة الكلبية ؛ وهو الاسم المشتق من الكلمة اليونانية المدرسة أى كلب ؛ في إشارة الى أن أتباع هذه المدرسة من الكلبيين يقومون بحراسة الفضيلة ؛ لتعارض أفكار أفلاطون فيما يتعلــــــق بمسألة الرق والحرية ونادت بالمساواة بين البشر ؛ وهي الأفكار التي تأثرت بها فيما بعد مدرسة أخـــرى عرفت بالرواقية وأطلق تلاميذ هذه المدرسة على أنفسهم اسم الرواقيين لاتهم بنوا في أثينا أروقة يجتمعون فيها للتعلم .

وما حدث بعد ذلك هو أنه عندما غزا الرومان أثينا في القرن الثاني قبل الميلاد ؛ وتحولت اليونان الي ولاية تابعة للإمبر اطورية الرومانية ؛ فإن الأسرى اليونانيين أنفسهم تم بيعهم كرقيق في أسواق النخاسة في روما ؛ وقد تمكن هؤلاء الرقيق بفضل قدراتهم العقيلة الفائقة بالنسبة لسادتهم الرومان أن يؤثروا في مالكيهم الجدد ؛ حتى أن الشبان الرومان كانوا يجتمعون فللمقات الطرقات حول العبد اليوناني ليتعلموا منه مبادئ الفلسفة اليونانية ؛ ومن هنا بدأ تأثير المعدرسة الرواقية على الحياة العقلية في روما:

وعندما جاءت المسيحية دعا السيد المسيح عليه السلام الى المساواة بين الناس وكلابان أن اصطدمت الدعوة الجديدة بالأباطرة الرومان الوثنيين ؛ وبدأ المؤمنون بالدين الجديد يتعرضون التعذيب والقتل ؛ ومن هنا بدأت تظهر داخل الدعوة الجديدة أفكار تتحدث عن أن الجسد قد خلق لتحمل العذاب والهوان في الأرض ؛ وإنه ينبغي على المسيحي المؤمن أن يتحمل ما يلقى من عذاب وأن يتسامح مسع جلاديه ويصفح عنهم ؛ وكانت هذه هي الفكرة الأساسية التي بنت عليها المسيحية بعد ذلك نظرتها الى مؤسسة السرق وعلاقات الاسترقاق داخل هذه المؤسسة.

فقد دعا القديس بطرس في رسالته إلى أهل أفيست العبيد لأن يطيعوا سادتهم بخوف ورعدة ؛ وأن يخلصوا في خدمة القساة منهم بإعتبار أنهم بذلك يخض عون للسلاطين الفائقة التي هي من ترتيب الله(۱) وعلى ذلك أعتبرت المسيحية أن الرق ضروريا ؛ وأنه من تقدير الله ؛ وأنه لا يصح أن يحل أحد ما قدره الرب .

ويقول القديس بولس في رسالته لأهل روما: "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ؛ لأنه ليس سلطان إلا من الله ؛ والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ؛ والمقاومون سيدانون " ؛ ويقول مخاطباً الأرقاء: " أيها العبيد أطيعوا سادتكم بخوف ورعدة " (٢). وينصح القديس ايزيدوروس العبيد بأن لا يطمعوا في التحرر من المرق ولمو أراد أسيادهم ؛ لأنه وهو رقيق يحاسب يوم القيامة حسابا يسيرا بعد أن يكون قد خدم مولاه الذي في الأرض (٢)

وقد حاول القديس أو غسطين ومن بعده القديس توما الأكوينى أن يوفقا بين المسيحية والافلاطونية فيما يتعلق بمسألة الرق ؛ فقالا بأن الله قد خص بعض الناس بالرق ليكونوا محكومين ؛ وخص آخرين بالحرية ليكونوا حاكمين ؛ وقد خص الله الأرقاء بالوظائف الحقيرة في المجتمع وعوضهم عن إحتقار الناس لهم بثواب الأخرة(٤).

وقد ظلت هذه الافكار الأساسية تحكم نظرة المسيحية للرق حتى القرن السنادس الميلادى عندما أعلن البابا جريجوار الكبير أن المسيح إنما جاء ليحرر المسيحيين ويعيد إليهم حريتهم ؛ وأنه جدير بأتباع الكنيسة أن يتأسوا

⁽١) د. عبد السلام الترمانيني : الرق حاضره وماضيه – مرجع سابق.

⁽٢) الاتجيل : رسالة بولس إلى أهل رومية ١:١٣ -٢.

⁽٣) نقلا عن : د. عبد السلام القرمانيني - الرق ماضيه وحاضره ؛ مرجع سابق.

⁽٤) نفس المرجع.

بالمسيح وأن يعتقوا رقيقهم ؛ ولكنها أشترطت أن يكون الرقيق المعتوق مسيحياً أو متنصرا ؛ وكان ملوك أسبانيا النصرانية بعد سقوط الأندلس لا يعتقون أحدا من أسرى المسلمين إلا إذا تنصر .

على الرغم من هذه الأفكار فإن الكنيسة نفسها إستمرت في إمتلاك أعداد هائلة مسن الرقيق ؛ وكان هؤلاء بالدرجة الأولى من الأسرى المسلمين.أوأبنائهم الذين تم بيعهم في أنحاء أوروبا بعد سقوط دولة المسلمين في الأندلس، وكان البابا جريجور ا نفسه يمتلك المئات من رؤوس الرقيق الذين يعملون لحسابه الخاص في الضياع الباباوية ؛ كما كان الآلاف من أسرى الصقالبة والمسلمين يتم توزيعهم على الأديرة كرقيق مملوك للكنيسة ؛ حتى أن ويستمارك في قصة الحضارة يقول أن ثروة الكنيسة في أوروبا من رؤوس الرقيق كانت من الضخامة بحيث لا يمكن تقديرها بمال ؛ ولذلك فإن المجمع الكنسي المنعقد في طليطلة concil de Tolede على بفرض عقوبة كنسية على كل أسقف يعتق عبداً مملوكاً للكنيسة ؛ كما تفرض على الأسقف الذي يقوم بذلك أن يقدم للكنيسة عبدين بدلا من العبد المعتوق(١).

وفي القرن السابع عشر قضت الكنيسة بأن أولاد القسس من نقض عفتهم يصبحون رقيقاً في الكنيسة التيّ يتولى أباؤهم رعايتها ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد أتخذت المسيحية من المرق موقفا أكثر تطبورا من الشريعة اليهودية التي قررت أن الرقيق صنفين لا ثالث لهما : الرقيق اليهودي ؛ وهسذا الرقيق يعتق بعد ست سنوات من خدمة مالكه أو في سنة اليوبيل ؛ و هسى السنة الخمسون بعد سبع سنوات سبتية ؛ والسنة السبتية هي السنة التي تلي كل ست سنوات . وحددت الشريعة اليهودية معاملة الرقيق اليهودي بمعاملة الخادم ؛ وقررت أنه يصبح حرا بصفة تلقائيسة اذا عاقبه مالكه بعقاب عنيف أدى الى فقده لاحدي

⁽١) د.عبد السلام الترمانيني : الرق ماضيه وحاضر ٥- مرجع سابق.

عينيه أو سقوط أسنانه ؛ كما أوجبت الشريعة اليهودية على السيد اليهودى أن يزود عبده اليهودى بشئ من مال عندما يحين موعد عتقه(١).

ولم تغفل الشريع اليهودية إحتمال أن يفضل الرقيق اليهودي أن يستمر في وضعية الرقيق ؛ وقررت بأن هذا الرقيق يظل رقيقاً مدى الحياة ؛ وعلى سيده أن يثقب أذنيه ويستعبده طوال حياته ؛ وبالنسبة للصنف الثاني من الرقيق وهو الرقيق غير اليهودي ؛ فإن الشريعة اليهودية نصت على أن هذا الصنف من الرقيق الأجنبي يبقى رقيقا طوال حياته ولا يعتق أبدا ؛ ثم جاء التلمود وهو أحسد المصادر الرئيسية للديانة اليهودية لينص بصراحة على أن عتق الرقيق غير اليهودي هسو خرق للتوراة(٢) وعلى ذلك فيحرم على اليهودي أن عتس على اليهودي أن عتس قرقيقه من غير اليهود .

وعندما جاء الاسلام إلى مصر مع جيوش الصحابة الفاتحين كانت الديانات والثقافات السابقة عليه قد أسست مجموعة أفكار حول وضعية الرقيق كانت في الشيان السابقة عليه قد أسست مجموعة أفكار حول وضعية ؛ على الرغم من طغيان المحتنال الروماني وهو الطغيان الذي إنعكس بالتالي على وضعية الأرقاء في البلاد؛ فأي مصير يمكن أن ينتظر عبداً لسيد هو في نهاية المطاف فرد من شعب مستعبد لمحتل لم يكن يكتفي فقط بإغتصاب الحقوق الأساسية لأهل الأقليم الذي يحتله ؛ بل أيضا يتعامل مع السكان الاصليبان للأقليم الذي يستعمره على أنهم رقيق له بحكم الهيمنة العسكرية ؛ بالاضافة الى ما كان يعتقده عن التفوق العقلي لجنس الرومان على سائر البشر .

وكان الإسلام في مهده بالجزيرة العربية قد قدم للبشرية ما يتيح للباحث المحايد أن يقـــول وباطمئنان كامل أنها خطوات لا يمكن أبداً المزايدة عليها أو

⁽١) احمد شفيق باشا: الرق في الاسلام ؛ القاهرة ١٨٩٦م .

⁽٢) نفس المرجع ،

حتى مقارنتها بمواقف عقائد وضعية أو سماوية أخرى حول مسألة الرق ومؤسسة الإسترقاق ؛ فالاسلام لم يكتفي فقط بالدعوه الى حسن المعاملة للرقيق أو التلطف بهم بل إنه عالج مسألة الرق من كل جوانبها المحتملة ؛ بداية من إعادة تعريف الانسان الرقيق ؛ ووضع الإطار ؛ الاساسى لحياة هذا الأنسان وسط مجتمع يدين بالاسلام ، بالاضافة الى أنه لم يكتفى فقط برسم طرق تحرير الرقيق بل أنه قد وضع أيضا من الآليات ما يكفى لاستيعاب هذا الرقيق في مجتمع الاحرار الجديد بعد تحريره ؛ وبدون أن يثير ذلك أي قدر من الحساسيات لا يمكن التغلب عليه . ويمكن يمكن القول أنه منذ اللحظة الأولى لدخول الصحابة الفاتحين الى مصر وإستقرار النظام الجديد في البلاد ؛ بدأ هذا النظام في التعامل مع مؤسسة الرق الموجودة في البلاد ؛ ومنذ عهد الامان المذي اعطاه عمرو بن العاص لاهل مصر ؛ وأمنهم فيه على انفسهم ؛ وملتهم ؛ واموالهم وكنائسهم ؛على ان يعطى أهل مصر الجزية اذا زاد نهرهم عن خمسين ألف ألمف وفي نهاية عهد الأمان يتعامل عمرو بن العاص مع مسألة النوبة المجاورة لمصر بأن يفرض عليهم تأدية الجزية برؤوس رقيق وخيل بدلا من النقود ؛ كما يبرم عبد الله بن أبي سرح عهدا مستقلا لعظيم النوبة واهل مملكته على ان يؤدوا للمسلمين في كل سنة تلثمائة وستون رأسا من اوسط رقيق بلادهم ليس فيهم شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم ؛ وان يدفعوا ذلك إلى والى أسوان ؛ ومع استقرار دعاة الدين الجديد في البلاد ؛ استقرت معهم مبادئ قانونية مستمده من مبادئ الشريعة الاسلامية ؛ وقواعد الفقه الاسلامي لتحكم العلاقه بين السيد ورقيقه ؛ الذين أصبح لهم الأول حقوق يعتد بها عند مالكيهم.

وقد قدم الفقه الاسلامى وللمرة الأولى في تاريسخ مؤسسة الرق قواعد فقهية تصل الى درجة الحلال والحرام بقوة العقيدة الدينية ؛ تنظم ليسس فقط استمتاع السيد المالك بأمته الجارية المشتراة من أسواق النخاسة بالمال أو التى تم سبيها في ساحات القتال؛ ولكن هذا الدين وضع أيضا قواعد تنظم حتى

التعامل اليومي بين الرقيق الذكر وسيدته التي تمكلك رقبته كإنسان فهذا الرقيق لم يعد هذه الآداه الحية أو الدابة التي لا يأبه لها مالكها بل هو إنسان له مشاعر وأيضا غرائز ' فجاءت قواعد الفقه الإسلامي وأعلنت إحترامها لهذه الغرائز ووضعت حدود واضحة لما يسمح له للعبد الذكر أن يراه من عررة مولاته وحدود أيضا لمولاته الحرة لما يسمح لها هي الأخرى بأن تظهره من عورة لرقيقها الذي تمتلك رقبته بقوة القانون والعرف الإجتماعي السائد؛ قواعد تختلف بطبيعة الأمور عن المتعارف عليها بين الأحرار وهي قواعد تختلف أيضا فيما بينها من مدرسة فقهية لأخرى ؛ وبصفة عامة لم تصبح الجارية مجرد جسد بينها من مدرسة فقهية لأخرى ؛ وبصفة عامة لم تصبح الجارية مجرد جسد للإستمتاع ولم يصبح العبد مجرد قطعة حية من الملكية .

ومنذ البداية نجد أن الإسلام أعاد تعريف الإنسان الرقيق من جديد: فالرقيق هو " المملوك لغيره أو لبيت المال ملكاً كاملاً أو منقوصاً ؛ يرجع في الأصل إلى حرب شرعية بين المسلمين أو غير المسلمين(١).

وسمى العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويخضعون له ؛ ومنه رقة القلب والقين العبد ؛ والقينة العبدة ؛ ولكع العبد ؛ ولكاع الأمة ؛ و لفلان مدين ومدينة أي عبد وأمة ؛ والغرة بضم الغين وتشديد الراء العبد والأمة ؛ وهى فتاى وفتاتي أي عبدي وجاريتي ؛ والغلام كذلك ؛ والوليد العبد والوليدة الجارية ؛ والرقبة المملوك ذكر كان أم أنثى ؛ والمولى يطلق على السيد وعلى العبد ؛ وتقول استرقه ؛ وأرقه ؛ وقد رق ؛ وضرب عليه الرق ؛ والعبد المعتق ؛ والمعتق العبد بعضه ؛ يسعى فيما رق منه ؛ وهو وهي وهم وهن رقيق ؛ وهم أرقاء ؛ وهو مرقوق ومرقة ؛ ونقول عبد مرقوق ومرق ؛ وهي رقيق ؛ وهي رقيق ؛ وهي وهم ومرقة ومرقة ؛ ونقول عبد

⁽١) مصطفى الجداوي: الرق في التاريخ والإسلام - مؤسسة بورسعيد ؛ القاهرة ١٩٦٧.

وعبيد وأعبد وعباد وعبدان ؛ وعبد أي أظهر العبودية ؛ وعبده تعبيداً ؛ واستعبده استعباداً ؛ واعتبده اعتباداً ؛ وأعبده في عباداً ؛وتعبده تعبداً(١).

وجاء في القرآن الكريم رقبة ؛ ورقاب ؛ ومملوك ؛ وإماء ؛ وعباد وفتى وفتيان ؛ وفتيات ؛ كما وردت في أقوال النبي (ص) ألفاظ: رق ؛ رقيق ؛ وعبد ومملوك ؛ وغلام ؛ وأسير ؛ وأسرى ؛ وأمة ؛ وجارية ؛ ووليدة .

وجاء في المغنى لابن قدامة: "عن أبي سعيد الأعسم قال قضى رسول الله (ص) في العبد وسيده قضيتين؛ قضى أن العبد إذا خرج من دار الحرب قبل سيده أنه حر؛ فإن خرج سيده بعده لم يرده عليه؛ وقضى أن السيد إذا خرج قبل العبد ثم خرج العبد رد العبد على سيده "؛ وهي الحالات التي عرفت في كتب الفقه الإسلامي باستصحاب الرقيق القانوني .

ومن المصادر الأخرى التي تعترف بها الشريعة الإسلامية للإستحواذ على الرقيق بجانب الحرب الشرعية بين المسلمين والكفار 'شراء الرقيق القانوني من الكفار سواء كان هذا الرقيق مسلماً أو كافراً ؛ فقد اشترى سيدنا أبو بكر الصديق سيدنا بلال بعد اسلامه من أمية بن خلف الجمحي الكافر ثم أعتقه؛ كما أقر الإسلام تناسل الرقيق كمصدر من مصادر الحصول على الرقيق ؛ فقد كانت القاعدة العامة في كل الشرائع والحضارات السابقة هي أن الولد يتبع أمه في الرق والحرية ؛ ففي كل الشرائع والحضارات الأخرى قبل الإسلام وبعده كان ولد الأمة سواء كان زوجها حراً أم عبداً فهو رقيق؛ ومن هنا بدأت الشريعة الإسلامية في تضييق مصادر الرق ؛ حيث وضعت الشريعة الإسلامية إستثناءات ينجو من خلالها ولد الأمة من الإسترقاق؛ وهذه الحالات هي :

⁽١) مختار الصحاح.

- (أ) ولد المغرور: وهو المخدوع الذي تزوج الأمة على أنها حرة ؛ سواء خدعته هي أو خدعه من زوحه بها ؛ وحيث يصبح ولد المغرور من هذه الأمة حراً تبعاً لأبيه.
- (ب) ولد الأمة من سيدها: والذي يولد حراً! وتنتقل أمه معه إلى وضع قانوني جديد هو وضع أم الولد؛ و تصبح حرة بمجرد موت سيدها؛ و لا يحل له ، بعد أن تدخل جاريته التي وطئها وحملت منه في هذه الفئة الجديدة؛ أن يتصرف فيها في حياته بالبيع أو الهبة أو أن يورثها؛ أو أن يتعامل عليها أي تعامل مالي آخر يمكن أن يخرج بها من وضعها القانوني الجديد؛ أو أن يحرمها من حقوقها الجديدة كأم ولد؛ " أخبرنا مالك، أخبرنا نافع، عن ابن عمر قال: قال عمر: أيما وليدة ولدت من سيدها؛ فإنه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها؛ وهو يستمتع منها؛ فإذا مات فهي حرة ؛ قال محمد: وبهذا نأخذ وهو قول أبي حنيفة والعامة من فقهاءنا"(١) وروى مثل ذلك عن عثمان؛ وهو قول أكثر التابعين وجمهور فقهاء الأمصار.

وما اغتمده الجمهور في هذا الباب ؛ ما روى عن النبي (عن) أنه قال في مارية سريقة لما ولدت إبر اهيم : " أعتقها ولدها " ومن ذلك ؛ حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي (عر) أنه قال : " أبيما إمرأة ولدت من سبدها فإنسا مرقة إذا مات " ، واتفق العلماء على أن الأمة تصبح أم ولد إذا ملكها سيدها قبل حملها منه ؛ وقال الإمام مالك : لا تكون أم ولد إذا حملت من سيدها قبل أن يمتلكها ؛ وقال الإمام أبو حنيفة : إنها تكون أم ولد في جميع الأحوال ؛ وأما ما تصبح به الأمة أم ولد ؛ فهو كل ما يسقط منها على سبيل الولادة ؛ ولو كان جنيناً ميناً أو حتى ما يتحقق منه أنه مضغة أو علقة ؛ وقال مالك : إن أم الولد في حياة مين ها ليس له عليها إجارة ؛ ولا يحق له إغتلالها ؛ وعلة مالك في ذلك أنه لم

⁽١) موطأ الإمام مالك - المجلس الأعلى للشنون الإسلامية - القاهرة ١٩٨٧.

يعد لسيدها عليها ملك الرقبة بالبيع أو الهبة ؛ ولذلك فلا يجوز له إغتلال كسبها واتفق العلماء على أنه يظل لسيد أم الولد على أمته حق وطئها بملك اليمين إذا استمرت في ملكه ولم يعتقها(١).

ومن المسائل التي حرصت عليها قواعد الفقه الإسلامي على معالجتها بصورة واضحة هي مسألة المكاتبة .

قال الروياني: إن المكاتبة إسلامية ولم تكن تعرف في الجاهلية بوقال ابن التين :إن المكاتبة كان متعارف عليها قبل الإسلام ثم أقرها النبي (ص)(٢) وأول من كوتب من الرجال في الإسلام سيدنا سلمان الفارسي؛ وفي رواية ابن التين :إن أول من كوتب من الرجال في الإسلام هو أبو المؤمل ، وأول من كوتب من الرجال في الإسلام هو أبو المؤمل ، وأول من كوتب من النساء في الإسلام بريرة .

والمكاتبة هي العقد الذي يتعاهد من خلاله الرقيق مع سيده على أن يحصل الرقيق على حريته مقابل مبلغ من المال أو أعمال بعينها يؤديها خلال فترة زمنية يتفق عليها؛ فالكتابة هي أن يشترى العبد ماله ونفسه من سيده بماله يكتسبه (٣) وقد نظر علماء الأصول إلى مسألة المكاتبة على وجهين كلاهما يصب في النهاية في مصلحة الرقيق ؛ فعلماء الأمصار قالوا إن مكاتبة السيد مع رقيقه هو أمر منسدوب، أما أهل الظاهر فقالوا إن مكاتبة السيد مع واحتجوا منسدوب، أما أهل الظاهر فقالوا إنها أمان واحتجوا بقوله تعالى: "والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم بقوله تعالى: "والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيم فيمراً، وأتوهم من مال الله الذي آتاكم"(؛) .

وجاء عن موسى ابن أنس أن سيرين وكان من سبي عين التمر سأل أنساً وكان سيده المكاتبة فأبى، فانطلق إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

⁽١) لإمام أبي الوليد عمر القرطبي: - بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مرجع سابق.

⁽٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري - المجلد الخامس الريان للتراث.

⁽٣) الإمام القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهر ١٩٨٢.

⁽٤) النور أية ٣٣.

وكان قد ولمى أمر المسلمين ، فقال: كاتبه، فأبى، فضربه عمر بالدرة وهـ و يتلو: "فكاتبوهم إن علمتم فيهم خبراً "(١)

وبالنسبة للرقيق الذي يصلح للمكاتبة وهو نفسه الرقيق الذي ستندب مكاتبته في قول أو حتى ستكون مكاتبته واجبة في قول أهل الظاهر فاإن أبـو حنيفـة قـد أجاز حتى مكاتبة العبد المراهق بينما قصر الإمام الشافعي المكاتبة على الرقيق البالغ دون غيره ، ونقل عن الإمام مالك انه اخذ بالرأبين (٢) واتفق العلماء على أن من شرط الرقيق المكاتب أن يكون قوياً على السعى وإكتساب الرزق واختلفوا في معنى الخير الذي اشترطته الآية: "إن علمتم فيمم خيراً" قال الشافعي : الإكتساب والأمانة ، وقال بعضهم المال والأمانية ، وقال آخرون الصلاح والدين ؛ وأنكر بعض العلماء أن يكاتب من لا حرفة لـ مخافة السؤال وأجاز بعضهم ذلك لحديث بريرة ؛ "قال الليث: حدثني يونس عن ابن شهاب قال عروة : قالت عائشة رضى الله عنها: "إن بريرة دخلت تستعين في كتابتها وعليها خمس أو اقى نجمت عليها في خمس سنين فقالت لها عائشة أر أيت إن عددت لهم عدة واحد أيبعيك أهلك فاعتقك فيكون والأؤك لى ؟ فذهبت بريرة إلى أهلها فعرضت ذلك عليهم، فقالوا: لا إلا أن يكون لنا الولاء قالت عائشة: فدخلت على رسول الله (ص) فذكرت له ذلك ؛ فقال لها رسول الله (ص): "اشتربها فأعتقبهما فإنها الولاء لمن أعتل "، ثم قام رسول الله (ص) فقال: "ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فمو باطل، شرط الله أحق وأوثق"(٣)

وفي رواية أخرى ، عن ابن عمر حدثنا قتيبة ، حدثنا الليث عن ابن شهاب عن عروة ، عن النبي (عر) أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن بريرة جاءت

⁽١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري في شرح صحيح البخاري - مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع .

⁽٣) القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد- مرجع سابق.

تستعنيها في كتابتها، ولم تكن قضيت من كتابتها شيئاً ... إلى أخر الحديث(١) وهو الحديث نفسه الذي استدل بعض علماء الأصول على جواز بيع المكاتب بموافقته . وقد كره الإمام مالك أن تكاتب الأمة التي لا صنعة لها مخافة أن تقع في الزنى، وأجاز مكاتبة المدبرة وكل من بقى فيه رق إلا أم الولد، إذ ليس لسيدها عنده أن يستخدمها(٢) .

ولما كان من الجائز أن يشترك أكثر من سيد في ملكية رقيق واحد؛ فإن قواعد الفقه الإسلامي لم تهمل هذا الجانب فيما يتعلق بالتوصيف الشرعي للحالات التي يسعى فيها الرقيق المملوك لأكثر من سيد إلى مكاتب ماليكيه أو أحدهم قال مالك : بعدم جواز أن يكاتب الرجل رقيقه دون إذن شريكه فيه ، وقال ابن أبي ليلى وأحمد : بأن الرجل إذا كاتب رقيقه فإن المكاتبة لا تصح دون أن تشمل نصيبه ونصيب شريكه معه ، وقال أبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه بجواز ان يكاتب الرجل رقيقه على نصيبه بإذن شريكه وبعدم جواز ذلك بدون إذن شريكه وللإمام الشافعي قول آخر مثل قول الإمام مالك (٣)

وأما متى يخرج الرقيق المكاتب عن الرق فقد اتفق العلماء أنه يخرج من الرق إذا أدى جميع المكاتبة . واختلفوا فيما إذا أدى جزء من عقد المكاتبة وعجز عن اداءالجزء الآخر ؛ قال الجمهور: هو عبد ما بقى من كتابت شئ ، واستندوا في ذلك إلى ما أخرجه أبو داوود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي (ص) انه قال : "أيما عبد كاتب على مائه أوقية فأداها إلا عشو أواق فمو عبد، وأيما عبد كاتب على مائة دينار فأداها لم إلا عشرة فمو عبد، وأيما عبد كاتب على مائة دينار فأداها لم إلا عشرة فمو عبد، وأيما عبد كاتب على مائة دينار فأداها أم إلا عشرة فمو عبد، وأيما عبد كاتب على مائة دينار فأداها أم إلا عشرة فمو عبد، وأيما عبد كاتب على مائة دينار فأداها أم إلا عشرة فمو عبد، وأيما عبد كاتب على كرم الله وجهه أنه قال : " إذا أدى الشطر

⁽١) القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد- مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع ،

⁽٣) نفس المرجع ،

⁽٤) نفس المرجع ،

فهو غريم" وعن ابن مسعود أنه قال: " لو كاتبه على مائتين وقيمته مائة وأدى المائة عتق " وعن عطاء أنه قال: " هو حر إذا أدى ثلاثة أرباع كتابته "(١).

كما حددت الشريعة الإسلامية و قواعد الفقه الإسلامي الحالات التي يعجز فيها الرقيق المكاتب عن تأدية ما تعاهد عليه ما مع سيده وحددت كيفية تعجيز الرقيق ومن له الحق في هذا التعجيز؛ فاتفق العلماء على أنه يتم تعجيز الرقيق إذا عجز عن تأدية كل ما كاتب عليه.

واختلف العلماء هل للعبد أن يعجز نفسه بدون سبب لذلك ومع قدرته على سداد ما كاتب عليه ؛ المشهور من مذهب الإمام الشافعي أن للعبد ذلك؛ وفي قبول آخر عنه أن عقد المكاتبة يكون لازما في حق العبد ولا يجوز له تعجيز نفسه مع العلم بقدرته على السداد(٢) ، وقال الإمام مالك وأبو حنيفة أن المكاتبة عقد لازم في حق الطرفين؛ أي بين الرقيق وسيده ؛ فإذا أراد الرقيق أن يعجز نفسه وأبي السيد ذلك فليس للرقيق التعجيز إن علم أن له مال أو كانت له قدرة على الكسب والسداد ؛ وأما إذا أراد السيد التعجيز وأبي ذلك الرقيق فإن السيد لا يعجز رقيقه إلا بحكم حاكم وأن يثبت السيد للحاكم أن الرقيق لا مال له ولن يستطيع أداء ما كاتب عليه في موعده .

وأما في حالة أن يتفق السيد ورقيقه على التعجيز فقد قال الجمهور بأن الأمر يكون على وجهين ؛ الموجه الأول أن يكون قد دخل في عقد المكاتبة ولد الرقيق؛ وهنا لا يجوز التعجيز والوجه الثاني أن يكون عقد المكاتبة يتضمن ولد للرقيق وفي هذه الحالة فإن أبو حنيفة قال أيضاً بعدم جواز التعجيز إذا كان

⁽١) القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد- مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع .

للرقيق مال أو قدرة على السداد . وقال باقي علماء الأصول بجواز التعجيز إذااتفقت رغبة الرقيق وسيده على ذلك والمغلب عليه هو السيد(١).

وأما إذا مات الرقيق المكاتب قبل أن يؤدي ما كاتب عليه فعند الإمام مالك فإنه يموت وهو مكاتب وأن حكم أولاده كحكم أبيهم ؛ فإن ترك مالاً أدوا عنه وعتقوا بعتق أبيهم ؛ وإن كان لهم قدرة على السعي والسداد قاموا بالسعي في سداد ما كاتب عليه أبوهم وعتقوا بعتقه إذا أدوا وبقوا في الرق إذا عجزوا عن السداد ، وذهب أبو حنيفة إلى أنه يموت حراً وتنسحب حريته إلى أولاده من بعده وحجة الإمام أبو حنيفة في ذلك أن العتق قد وقع بموت الرقيق لأنه لم يعجز عن الأداء مع ما اشتهر عن الحنيفية بتغليب حق الرقيق على حق السيد ، وعند الإمام الشافعي أن المكاتب إذا مات قبل أن يؤدي ما كاتب عليه فإنه يموت عبداً لأنه لا وسط بين الرق والحرية وأن حريته لم تجب لأنه لم يؤدي ما كاتب عليه (٢)

كما عالجت قواعد الفقه الإسلامي الحالات التي يتوفى فيها العبد المكاتب ويكون قد تسرى بأمة بعد أن كاتب سيده وأنجبت له الأمة فأصبحت في ذلك في حكم أم الولد ؛ وكان أطفالها صغار لا يقدرون على السعي في سداد ما كاتب عليه أبوهم ؛ وأرادت أم الولد أن تسعى على سداد ما بقي من دين المكاتب الذي تسراها وأنجبت منه وأصبح في مقام سيدها لكي تحصل على حريتها وحرية أبنائها منه ؛ قال الإمام مالك أن حرمة عقد المكاتبة تنسحب عليها وعلى بينها من الرقيق المكاتب الذي وطنها ومات قبل أن يفي بما عليه في عقد المكاتبة والشترط لذلك بأن تكون أم الولد الذي تسراها المرقيق المكاتب قادرة على السعي في السداد ؛ وإما إذا عجزت عن ذلك فإنها تباع ويؤدي من عنها باقي ما كاتب عليه الرقيق المتوفى ويعتق بذلك صغاره ؛ وهو نفس الرأي عند أبي حنيفة

⁽١) القرطبي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مرجع سابق .

⁽٢) نفس المرجع .

والشافعي ؛ وعند أبي يوسف ومحمد أنه لا يجوز بيع أم الولد للرقيق المكاتب الذي توفى قبل أن يدفع ما كاتب عليه بأي مال(١)

كما حددت الشريعة الإسلامية حقوق ترتب للرقيق الذي يدخل مع سيده في المكاتبة ؛ منها أن إياحة السفر له بدون إذن سيده ؛ قال بذلك جمهور من العلماء منهم الامام ابو حنيفة والشافعي ؛ وكان علتهم في ذلك أن إياحة السفر للعبد بدون إذن سيده سيكون من أسباب تقوية الرقيق على الكسب للسعي في أداء ما كاتب عليه سيده ؛ وقال الامام مالك بضرورة أن يأذن له سيده ؛ وقال آخرون أن مرجع ذلك إلى عقد المكاتبة بين الرقيق المكاتب وسيده ؛ وقال الإمام أحمد والثوري أن الأصل أن يسافر الرقيق المكاتب بدون إذن سيده إلا أن ينص السيد صراحة على غير ذلك في عقد المكاتبة بينه وبين رقيقه المكاتب(٢).

وقال الجمهور ان الرقيق المكاتب لا يباع ؛ إلا بشرط ان يبقى على كتابته عند مشتريه ؛ وحجة الجمهور في ذلك أن بيع المكاتب بدون أن يتبع ذلك استمر ار عقد مكاتبة لدى سيده الجديد هو نقض للعهود الذي أمر الله بالوفاء بها واختلفوا في بيع عقد المكاتبة نفسه ؛ فقال الإمام الشافعي وأبو حنيفة بعدم جواز ذلك لأنها من باب الغرر ؛ وأجازها الإمام مالك وقال إنها باب بيع الدين(٣).

كما عالجت الشريعة الإسلامية وضع قانوني وإجتماعي آخر للرقيق هو وضع الرقيق المدبر ؛ والتدبير هو أن يقول السيد لرقيقه أنت حر عن دبر منى أن الرقيق يصير حرا بعد وفاة سيده ؛ وفريق من العلماء بين التدبير على هذا النحو والوصية التي يوصي فيها السيد بعتق رقيق له بعد موته ؛ وفريق آخر قال أن التدبير لازم ؛ بينما الوصية غير لازمة ؛ وقد يفسدها موت السيد وهو مدين

⁽١) الشيخ الحافظ أبو الوليد القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع .

⁽٣) القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مرجع سابق.

أو خروج قيمة العبد عن تلث التركة ؛ كما أن للسيد أن يرجع في وصيته بينما لا يجوز له أن يرجع في تدبير رقيقه(١) .

قال الإمام مالك أن السيد إذا قال لرقيقه أنت حر بعد موتي فالظاهر أنها وصية ؛ إذ اشترط الإمام مالك في التدبير أن يكون يقول السيد لرقيقه بلفظ ظاهر: "أنت حرعن دبر منى " ؛ أو "أنت مدبر" ؛ وقال أبو حنيفة ؛ وكان قد اشتهر من مذهبه أن يغلب مصلحة الرقيق في العقود ؛ أن الظاهر من قول السيد الرقيقه : "أنت حر بعد موتى "أن هذا القول من التدبير وليس له أن يرجع فيه وبنفس القول قال الشافعي ؛ ولفظ السيد لرقيقه: "أنت حر بعد موتى " هو عندهم من كنايات التدبير (٢).

وأما الرقيق الذي يجوز تدبيره فهو الرقيق كامل العبودية وليس له على سيده عتق ؛ فلا يجوز تدبير أم الولد ؛ أو الرقيق المكاتب إلا أن يعجز ؛ وأجازوا أن يدبر أحد الشركاء في ملكية رقيق واحد الرقيق في نصيبه ؛ وللرقيق بعد ذلك أن يسعى لاقتداء نفسه فيما يخص باقي الشركاء(٣)

وأيضاً عالجت الشريعة الاسلامية وضع الرقيق الخالص لسيد واحد ويقوم السيد بتدبير جزء من رقيقه ؛ فقد رأى جمهور الفقهاء أن من دبر جزءاً من رقيق مملوك له بالكامل فإنه يقضي عليه بتدبير الكل ؛ ويصير الرقيق حراً بكامله بعد موت سيده(٤) .

⁽١) القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع ،

⁽٣) نفس المرجع .

⁽٤) نفس المرجع .

وأما السيد الذي يحق له أن يدبر رقيقه ؛ اتفق الجمهور على أن من شروطه أن يكون السيد طنحيح الملكية ؛ غير محجوز عليه ؛ وأن لا يكون الدين قد أحاط بماله(١) .

وذهب الجمهور إلى أن المدبر يخرج من أصل تركة سيده بعد موته ؛ ولا يكون مرتبطاً بنسبة الثلث من التركة المخصصة للوصية ؛ وبذلك قال أيضاً أهل الظاهر ؛ وردوا في رأيهم على من قال أن المدبر يخرج من ثلث رأس مال المتوفي بالقياس على حدود الوصية ؛ واحتجاجاً بما روى عن النبي (عر) أنه قال "المدبو من النالث " بأن هذا الأثر ضعيف عند أهل الحديث ؛ لأن روايته جاءت عن على ابن طيبان بن نافع ؛ عن عبدالله بن عمر ؛ وعلى ابن طيبان متروك الحديث (٢)

وقال مالك وأبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة بعدم جواز أن يبيع السيد رقيقه المدبر ؛ وقال الشافعي وأحمد وأهل الظاهر وأبوثور : لمه أن يرجع في تدبيره فيبيعه ؛ وقال الأوزاعي لا يباع إلا لسيد يريد عقه (٣) .

وقاسوا التدبير على المكاتبة أو العتق إلى أجل واحتجوا في عدم جواز بيع المدبر بالآية: " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " ؛ وقال الشافعي وأحمد أن للسيد الرقيق أن يرجع في تدبير رقيقه ؛ فيحق له بذلك أن يبيعه ؛ قياساً على جواز الرجوع في الوصية(٤) .

⁽١) القرطبى: بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع .

⁽٣) نفس المرجع .

⁽٤) نفس المرجع .

وقال الجمهور أن ولد الأمة بعد تدبيرها يعتقون بعتقها؛ ويرقون برقها واستند مالك في ذلك إلى أن كل أمرأة فولدها تبع لها إن كانت حرة فحر ؛ وإن كانت مكاتبة فمكاتب ؛ وإن كانت مدبرة فمدبر ؛ وإن كانت معتقة إلى أجل فمعتق إلى أجل ؛ وإن كانت رقيقة فرقيق ؛ وكذلك أم الولد تكون منزلة ولدها من غير سيدها بمنزلتها(١) .

قواعد التسري بالإماء*

في إطار الحرص الواضح الذي ابتدته الشريعة الإسلامية لمسألة حفظ الإنساب؛ وتهذيب الغرائز؛ فقد حرصت الشريعة الإسلامية على وضع قواعد واضحة لتنظيم التسري بالإماء؛ إفتراش الجوارى؛ وبما يتضمنه ذلك من إعتراف بأنه وحتى بالنسبة للرقيق؛ فإن هناك ما يمكن تسميته بما عرف في كتب الأصول بالأحوال الشخصية للرقيق؛ وبما جعل مسألة التسري بالإماء في ظل القواعد الشرعية والأعراف التي تحكم المجتمع الإسلامي تختلف كثيراً عن مثيلاتها في المجتمعات الأخرى.

⁽١) القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد - مرجع سابق.

^{*} السرية هى الجاربة التي بوأها سيدها بيتاً منسوباً إلى السر ؛ وهو الإخفاء ؛ لأن الإنسان كثيراً ما يسرها ويسترها عن حرته ؛ وقال الأخفش هي مشتقة من السرور لأنه يسر بها ؛ يقال تسرر جارية وتسرى – مختار الصحاح ؛ مادة سرر.

فقد كان من طبائع الأمور في ظل الأعراف الإجتماعية التي سادت في كل الثقافات السابقة على الدين الإسلامي والحضارات التي تلته أيضاً في الظهور؛ أن للسيد الذي يسترق أنثى وتصبح جارية مملوكة له ؛ سواء نشأت علاقة الاسترقاق هنا عن طريق الشراء ؛ أو السبي ؛ أو بأي طريقة أخرى فإن لهذا السيد حقاً طبيعياً في أن يتخذ من جاريته جسداً للاستمتاع ؛ وذلك كما تقضى طبيعة أي علاقة متوقعة بين زجل وأنثى خاضعة له بملك اليمين .

وبصفة عامة فبالنسبة لقواعد تسري السادة بإمائهن ؛ فإن الملاحظة الأولى أن هذه القواعد كانت مشابهة في كثير من أوجهها لقواعد نكاح الحرائر ؛ حتى أنه وبعد إلغاء الرق في مصر ؛ فإن المحاكم الشرعية في البلاد كانت تطبق النصوص الشرعية المتعلقة بالزواج والطلاق عند نظر قضية تتعلق بالعلاقة بين أمة سابقة وسيدها ؛ ولا يمكن بحال التعاضي عن ملاحظة أن النص القرآئي الذي جاء فيه ذكر قواعد نكاح الحرائر ؛ هو نفسه الذي ورد فيه ذكر إباحة وطئ الإماء ؛ يقول اللة تعالى في كتابه العزيز:

"حرمت عليكم أمماتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمماتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأممات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بمن فإن لم تكونوا دخلتم بمن فلا جنام عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختيين إلا ما قد سلف ؛ إن الله كان غفوراً رحيماً (٣٣) والمحسنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ؛ كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محسنين غير مسافحين ؛ فما استمتعم به منمن فأتوهن أجورهن فريضة ؛ ولا جنام عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ؛ إن الله كان

علينماً حكيماً (٢٤) "(١) ويقول تعالى: "والذين هم الفروجهم حافظون (٥) الاعلى أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٦) "(٢)

وضعت هذه الآيات الأساس النظري الذي ستقوم عليه فيما بعد القواعد التمي تنظم الاستمتاع بالإماء وافتراشهن ؛ وهي القواعد التي ستتضبح تفاصيلها أكثر من خلال نصوص الأحاديث النبوية الشريفة وقواعد الفقه الإسلامي؛ والفكرة الأساسية هِنا والتي انطلقت منها الشريعة الإسلامية لإبائدة وطئ السيد لجاريته هي أن للسيد أن يطأ جاريته بدون أن يعقد عليها عقد النكاح ؛ لأن عقد ملك الرقبة الذي له عليها ؛ وهو عقد قائم بالفعل ؛ يبيح للسيد المنفعة بجاريته وإياحة البضع منها ؛ وهو بذلك أقوى من عقد النكاح ؛ فلا يجوز جمع عقد أقوى مع عقد أضعف ؛ وعلى ذلك فللسيد أن يطأ إمائه دون عقد(٣) كما كمانت إباحـة التسـري بالإماء مطلقة بدون تقييد فيما يتعلق بالعدد لاعتبارات عملية في المقام الأول ؛ فلم يرد نص في مصادر الدين الإسلامي ؛ أو أي شريعة سماوية أو وضعية أخرى نص يضع حداً أقصى لعدد الجواري الذي بوسع السيد الحر أن يشتريهن وبالتالي فلن يكون هناك معنى لأن يكون من حق السيد الحر شراء أي عدد من الإماء مع تقييد التسري بهن في حدود عدد بعينه؛ مع الأخذ في الاعتبار أنه في ظل القواعد التي وضعتها الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بوطئ الإماع ؛ فإن تسرى السيد جاريته قد يكون منفذا لها الى العتق.

وعندما بدأت الشريعة الإسلامية في وضع القواعد المنظمة للتسري بالإماء بدأت ببحث أوضاع ثلاث أصناف أولية من الجواري ؛ هن على وجه الإجمال الجواري المسلمات ؛ والجواري الكتابيات ؛ والجواري الكافرات غير الكتابيات.

⁽١) القران الكريم : سورة النساء الايات ٣٣ و ٣٤.

⁽۲) القرآن الكريم : سورة المؤمنون الايات ٥ و ٦ .

⁽٣) المغنى لابن قدامه.

فبالنسبة لتسري السيد بجاريته المسلمة ؛ فقد اتفق علماء الأصول على أن للسيد المسلم أن يستمتع بجاريته المسلمة طالما لم يكن هناك مانع من صلة رحم وكذلك اتفق الجمهور على عدم جواز وطئ الجارية الكافرة غير الكتابية وكانت حجة جمهور العلماء في ذلك أن إياحة إفتراش ملك اليمين في قوله تعالى " إلا على أزواجكم أو ما طكت أبهائكم" تم نسخه بقوله تعالى " ولا تفكموا المشركات عتو بيؤمن " ؛ ولم يخرج عن ذلك سوى طاوس الذي احتج بعموم الآية(۱)

أما بالنسبة للجارية الكتابية ؛ فقد إتفق سائر العلماء على جواز إفتراشها قياسياً على جواز نكاح الحرة الكتابية؛وإن لم يخرج من هذا الاجماع سوى الحسن بن على .

ومع الأخذ في الاعتبار المبادئ الأساسية السابقة؛ فإن قواعد الفقة الاسلامي والتي جاعب أيضاً بعد ذلك لتعالج مسألة إستمتاع السيد بجاريته ؛ جاعت كلها بصفة عامة لتقنين هذا الحق ؛ وتقييده في أحوال كثيرة؛ وهذه هي المرة الأولى في تاريخ مؤسسة الرق في كل الحضارات والثقافات التي عرفت علاقات إسترقاق وقبلت بوجودهذه العلاقات؛ التي تظهر فيها قواعد قانونية ترقى إلى مرتبة الحلال والحرام تقيد حق السيد في الاستمتاع بجاريته ؛ فلايجوز للموقف عليه أن يطأ الأمة الموقوفة ؛ وذلك لأن هذه الجارية إذا حملت من سيدها فإنها ستدخل في فئة أخرى جديدة هي فئة أم الولد؛ وهي بذلك ستصبح حرة هي وولدها من سيدها تلقائياً بمجرد موت سيدها ؛ ولن يحق له بمجرد وضعها لمولودها

⁽١)الأمام القرطبي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، مرجع سابق .

حتى ولونزل سقطاً ميتاً؛ أن يتعامل عليها مالياً بالبيع أوالشراء أوالهبة؛أو الرهن؛أوحتى الوقف أو أى تصرف آخر يؤثر على وضعها الجديد ؛ ولنفس السبب لايجوز للسيد أن يطأ جاريته المرهونة(١) .

كما منعت قواعد الفقه الاسلامى السيد من أن بطأ جاريته التى بعضها و كامت تكون الجارية مملوكة لاكثر من سيد؛ وقام أحد هؤلاء بعتق نصيبه فيها؛ أو قامت هى بإفتداء نفسها فى نصيب هذا السيد؛ وكذالك فليس للسيد أن يطأ جاريته المكاتبة ؛ لأن هذه الجارية تكون بمثابة الخارجة عن ملكه بمجرد إتفاقهما على عقد المكاتبة ؛ ويصبح ما تكسبه من مال منذ ذلك الحين خالصاً لها لتودى منه فدية نفسها (٢) .

واختلف العلماء في جواز وطئ السيد لأمته المكاتبة فحرم ذلك جمهور من الفقهاء؛ وإستندوا في ذلك إلى أن وطئ الأمة المكاتبة تقع الفرقه فيه الى أجل آت وهو الأجل المتفق عليه في عقد المكاتبة بين الأمة وسيدها؛ فانسحب عليه بذلك حكم النكاح إلى أجل ؛ وأجاز الأمام أحمد وداود وسعيد بن السيب وطئ السيد لأمتة المكاتبة بشرط أن ينص السيد على ذلك في عقد المكاتبة بينه وبين أمته وأستندوا في ذلك على مشابهة الأمة المكاتبة بالأمة المدبرة ؛ واتفق العلماء على جواز أن يطأ السيد أمتة المكاتبة إذا عجزت عن الوفاء بفداء نفسها؛ وأقرت بذلك أو عجزها الحاكم (٢) .

⁽١) المغنى لابن قدامة ؛ ج ٦ مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع.

⁽٣) الامام القرطبي :بداية المجتهد ونهاية المقنصد ؛ مرجع سابق .

وحتى بالنسبة للأمة المدبرة؛ فعلى الرغم من أن جمهور العلماء قد أجازوا وطئها إلا أن ابن شهاب منع ذلك ؛ وكراهه الأوزاعي ؛ وكان قياسهما على أن حال وطئ الأمة المدبرة هوبمثابة المنكوحة إلى أجل وهو زواج المتعة(١) .

كما عالجت الشريعة الاسلامية ؛ وقواعد الفقه الأسلامي حالة أخرى واردة فيما يتعلق بوطئ الإماء وهي حالة الحر الذي يتزوج من جارية ثم يطلقها طلقاً بائناً ؛ فهل إذا اشترى هذا الحر الذي تزوج أمة ؛ ثم طلقها طلاقاً بائناً ، زوجته السابقة من سيدها سيحل لها وطئها بملك اليمين بعد أن حرم عليه نكاحها بزواج شرعي إلا بعد أن تتزوج غيره ؟

أجمع جمهور العلماء على أن هذا الحرحتى إذا أشترى زوجته السابقة واصبحت جارية مملوكة ؛ له فلا يحل له وطئها بملك اليمين حتى تنكح زوجاً غيره حراً كان أم رقيقاً ؛ " أخبرنا مالك أخبرنا الزهوى عن ابن عبد الرحمن عن زيد بن ثابت أنه سئل عن رجل كانت تحته وليدة (٢) فأبت طلاقها ثم اشترها أيحل له أن يمسها فقال لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره قال محمد وبهذا نأخذ هو قول أبى حنيفة والعامة من فقهائنا "(٣) .

والى جانب القواعد الشرعية السابقة التى وضعت قيوداً على تسرى السادة بإمائهن لأسباب شرعية تتعلق بالوضع القانوني للرقيق الإناث ؛ من حيث ظهور إحتمالات جديدة يمكن أن تؤثر على الصفة القانونية عليهن من حيث الرق أو الحرية ؛ فإن قواعد الفقه الاسلامي قيدت أيضاً تسرى السادة بإمائهن وإفتر اشهم لهن لأسباب أخرى يظهر منها حرص الشريعة الاسلامية ليس فقط على حماية أواصر الرحم بين الرقيق وبعضه ؛ والحفاظ عليها ؛ وكذلك حفظ الانساب في

⁽١) موطأ الأمام مالك، مرجع سابق .

⁽٢) الوليدة : الجارية المملوكة

⁽٣) موطأ الأمام مالك مرجع سابق

المجتمع الاسلامي ؛ بل يظهر أيضاً تقدير الشريعة الاسلامية لهؤلاء الرقيق كبشر لهم مشاعر لا يجوز إمتهنها وشخصية إنسانية ؛ وإن كانت فاقدة للاهلية القانونية إلا أنه لايجوز سحقها أو إستلابها ؛ ومن ذلك أن الشريعة الاسلامية حرمت وبصورة حاسمة أن يطأ الرجل الجارية وأبنتها ؛ أو المرأة وأختها بملك اليمين " أخبرنا مالك ، حدثنا الزهرى ، عن عبيد الله بن عتبه بن أبيه ؛ أن عمر سئل عن المرأة وابنتها مما ملكت اليمين ، أتوطأ احداهما بعد الاخرى ؟ قال : لا أحب أن أجيزهما جميعاً ونهاه "(۱)

وجاء أيضاً في الموطأ: " أخبرنا مالك ؛ أخبرنا الزهرى ؛ عن قبيصة ؛ أن رجلاً سأل عثمان عن الأختين من ملك اليمين ؟ فلقى رجلاً من أصحاب رسول الله (عر) ، فسأله عن ذلك فقال : لو كان لى من الأمر شئ ؛ ثم أتيت بأحد فعل ذلك لجعلته نكالاً ؛ قال ابن شهاب : أراه علياً ؛ وقد نقل عن عمر أنه وهب ابنه جارية وقال له: لاتمسها فإنى قد كشفتها ؛ وكذلك قال الزبير بتحريم وطأ الامة وابنتها بملك اليمين كما حرمت الشريعة الاسلامية لنفس الاسباب أن يطأ الرجل الجارية وعمتها أو الجارية و خالتها بملك اليمين ؛ وكذلك أن يطأ الرجل الجارية وفي بطنها جنين لغيره ؛ وهو أحد الأسباب التي كان يحرص من أجلها المحتسبون في أسواق النخاسة في مصر على التأكد من حبل الجارية المعروضة للبيع أو عدم حبلها وإثبات ذلك قبل أن تدخل الجارية للبيع في السوق(٢) ؛أخبرنا مالك عدم حبلها وإثبات ذلك قبل أن تدخل الجارية للبيع في السوق(٢) ؛أخبرنا مالك عدم حبلها وإثبات ذلك قبل أن تدخل الأعرج ؛ عن أبي هريرة أن رسول الله(عر) قال : لايجمع الرجل بين المرأة وعمتها ؛ ولا بين المرآة وخالتها ؛ قال محمد : قال : لايجمع الرجل بين المرأة وعمتها ؛ ولا بين المرآة وخالتها ؛ قال محمد :

⁽١) موطأ الامام مالك باب الرجل يحمع بين المرأة وانتبها والمرأة وأختها في مللك اليمين

⁽٢) ابن بطلان:رسالة جامعة فيفنون نافعة عمرجع سابق.

⁽٣) موطأ الامام مالك : باب الرجل يجمع بين المرأة وخالتها؛ والمرأة وعمتها في ملك البمين.

الفقه الاسلامى فيما يتعلق بتحريم وطئ الاماء بسبب أواصر القربى طبقت على الأماء نفس القواعد التى تسرى على نكاح الحرائر من المسلمات و ساوت تماماً بين الاماء والحرائر فيما يتعلق بإباحة الوطئ أو تحريمه بسبب أواصر القربى حفاظاً على هذه الروابط وحرصاً على عدم إضطراب الأنساب.

كما لم تغفل الشريعة الاسلامية إحتمال أن يشترى الرجل جارية متزوجة الهلاك يجوز يكون بيع الجارية أو إهدائها من سيدها لسيد آخر بمثابة طلاق لها ؟ وهل يجوز للسيد الجديد أن يطأ جاريته المتزوجة التى اشتراها ويكون شرائه لها بمثابة فسخ عقد نكاحها من زوجها ؟ جاء في موطأ الامام مالك فيما يخص هذه المسألة أخبرنا مالك ؛ أخبرنا الزهرى ؛ عن أبى سلمة بن عبد الرحمن اأن عبد الرحمن بن عوف اشترى من عاصم بن عدى جارية ؛ فوجدها ذات زوج؛ فردها .

قال محمد: وبهذا نأخذ ، لايكون بيعها طلاقها(۱) ؛ وجاء في الموطأ أيضاً: أخبرنا مالك ؛ أخبرنا ابن شهاب أن عبد الله بن عامر أهدى لعثمان بن عفان جارية من البصرة لها زوج ؛ فقال عثمان لن أقربها حتى يفارقها زوجها فأرضى ابن عامر زوجها وفارقها(۲) .

وعلى هذا فقد حرمت الشريعة الاسلامية على السيد أن يطأجاريت التى ملك رقبته ابالشراء؛ أو حاز هابالهبة أو الهدية طالماكانت متزوجة؛ ولم يفارقهاز وجها "أخبرنامالك؛ أجبرنانافع ؛ عن ابن عمر: أن عبداً لبعض تقيف جاء إلى عمربن الخطاب؛ فقال: إن سيدى أنكحنى جاريته فلانة؛ وكان عمريعرف الجارية؛ ثم هويطؤها؛ فارسل عمر إلى الرجل، فقال: مافعلت بجاريتك فلانة؟ قال: لا هى عندى قال عمر: هل تطؤها؟ فأشار إليه بعض من كان عندعمر؛ فقال: لا

⁽١) موطأ الامام مالك : باب الرجل يشترى الجارية ولها زوج؛ أو تهدى إليه .

 ⁽۲) الامام القرطبي ببداية المجتهد ؛ ونهاية المقتصد ؛ مرجع سابق .

فقال عمر: أماو الله لو اعترفت لجعلتك نكالاً. (١) وبذلك يكون الاسلام قد سجل موقفاً غير مسبوق في كل الشرائع السابقة عليه ؛ سو اعكانت الشرائع الوضعية أم السماوية فيمايتعلق؛ بإحترام الحياة العائلية للرقيق .

وإلى جانب ذلك فقد عالج القرآن الكريم أمراً كان شائعاً عند العرب في الجاهلية؛ وأيضا بعد البعثة فيما يتعلق ببغاء الجوارى ؛ فقد كان شائعاً أن يشترى الرجل الجوارى ويدفعهم إلى ممارسة البغاء ليستحوذعلى أجرهن من الزنا ؛أو بضرب عليهن ضريبة ؛ بالاضافة الى إستفادته من نسل الجارية من اسواء بإسترقاق هذا النسل ؛أو بإفتدائه إذا اعترف به أبوه الذي واقع الجارية قال تعالى "وليستعفف الذين لا يجدون نكاماً متى يغنيهم الله من فضله؛ والذيــن يتبعون الكتاب مها ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم ذيراً وءاتوهم من مال الله الذي ءاتاكم؛ ولاتكرهوا فتباتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا :ومن يكرهمن فإن الله من بعد إكراهمن عُفور وهبيم "(٢) .نزلت هذه الآية في جارية لعبد الله بن أبي بن سلول؛ فقد كان له إماء وكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن ورغبة في أو لادهن ؛ قال الحافظ البزار في مسنده:" كانت جارية لعبد الله بن أبي سلول يقال لها · معاذة · يكرهها على الزنا؛ فلما جاء الاسلام نزلت: (ولاتكوهوا فتيانكم على البغاء) ؛ الآية قال الأعمش : نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها مسيكة ؛ كان يكرهها على الفجور ؛ وكانت لابأس بها فتأبى ؛ فأنزل الله هذه الآية.

وروى النسائى من جابر نحوه ؛ وعن الزهرى أن رجلاً من أسري قريش يوم بدر وكان عند عبد الله بن أبى أسيراً ؛ وكانت لعبد الله بن أبى جارية يقال

⁽١) الامام القرطبي ببداية المجتهد ؛ ونهاية المقتصد ؛ مرجع سابق .

⁽٢) القرآن الكريم (سورة النور أية ٣٣)

لها · معاذة · وكان القرشي الأسير يريدها على نفسها ؛ وكانت مسلمة وكانت متنع لاسلامها ؛ وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده ؛ فقال تبارك وتعالى : "ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تمصناً " وقال السعدى أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي بن سلول ؛ رأس المنافقين ؛ وكان له جارية تدعى " معاذة " وكان إذا نزل به ضيف أرسلها اليه ليواقعها إرادة الشواب منه والكرامة ؛ فأقبلت الجارية إلى سيدنا أبى بكر رضى الله عنه فشكت إليه ذلك فذكر أبو بكر للنبي (ص) ذلك فأمره بقبضها ؛ فصاح عبد الله من يعذرنا من محمد يغلبنا على ؛ مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا ؛ وقوله تعالى : (ومن يكرهمن فإن الله من بعد إكراهمن غفور رهيم) .. الآية ؛ قال ابن العباس فإن فعلتم فإن الله لهن غفوررحيم وإثمهن على من أكراههن ؛ وقال أبو عبيد عن الحسن في هذه الآية أنه قال: لهن والله لهن ؛ وفي الحديث المرفوع عن رسول الله (ص) أنه قال: "رفع عن أهتى الغطأ والنسيان وما إستكرهوا عليه "(١)٠

كما عالجت الاحكام المتواترة في تراث الدولة الاسلامية التي نشأت في الجزيرة العربية بعد رحيل النبي (عر) الحالات التي يمكن أن يجحد فيها السادة أبناءهم من جواريهم بعد إفتراشهم لهن ؛ وما يترتب على ذلك من ضياع نسل هؤلاء الجواري وسقوطهم في الرق ؛ وأيضاً ضياع فرصة أمهاتهم في أن يصبحن أمهات أولاد ؛ فلايجوز بيعهن أو التصرف عليهن بالهبة أوالتواريث أو أي تصرف مالي آخر يؤثر على وضعهن الجديد ؛ والذي يصبحن تبعاً له حرائر بعد موت ماليكيهم ؛ فقد حدث أن اشتكت إماء للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أن أسيادهن حجدوا أبنائهم منهن بعد أن وطئوهن بدعوى العزل

⁽١) الامام أبو الفدا اسماعيل بن كثير . تفسير ابن كثير . المجلد الثاني تفسير سورة النور

فكان أن ألحق المخليفة عمر بن الخطاب بكل سيد من ملك هؤلاء الجوارى أولادهن طالما لم يثبت على الجارية أنها زنت ؛ أخبرنا مالك ؛ أخبرنا ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن عبدالله بن عمر ؛ أن عمر بن الخطاب قال : " ما بال رجال يعزلون عن ولائدهم ؛ لا تأتيني وليدة فيعترف سيدها أنه ألم بها إلا الحقت به ولدها؛ فاعزلوا بعد أو أتركوا " ؛ وقال محمد إنما صنع هذا عمر على التهديد للناس أن يضيعوا ولائدهم وهم يطئونهن(۱) ؛ وجاء في ذلك أيضاً أخبرنا مالك ؛ حدثنا نافع عن صفية بنت أبي الوليد قالت : قال عمر بن الخطاب " ما بال رجال يطئون ولائدهم ؛ ثم يدعونهن فيخرجن ؛ والله لا تأتيني وليدة فيعترف سيدها أنه قد وطئها إلا الحقت به ولدها ؛ فأرسلوهن بعد أو أمسكوهن "(٢)

زوام الرقيق

قال تعالى: "وانكموا الايامي منكم والعالمين من عبادكم إماتكم؛ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسمٌ عليم "(٣)

وضعت هذه الآية للمسلمين الأساس الشرعى الذى ستبنى عليه فيما بعد القواعد والأعراف المتعلقة بزواج الرقيق في المجتمع الاسلامي؛ فمن الناحية الشرعية أجازات الآية زواج الرقيق من الرقيق ؛ وأيضاً من الاحرار؛ بعد أن كانت هذه المسألة في حضارات وديانات سابقة لا تتعدى قبول أن يعيش الذكور والإثاث من الرقيق فقط في علاقة رفقة بهدف أن يتناسل هؤلاء الرقيق ؛ ويمد

⁽١) موظأ الامام مالك ، باب العزل

⁽٢) نفس المرجع ،

⁽٣) القرأن الكريم سورة النور . أية ٣٢ .

مالكيه بنسل جديد من الرقيق يضاف إلى ثروتهم(١) وحيث إتفق جمهور العلماء على أنه يجوز للعبد أن ينكح الأمة ؛ وللحرة أيضاً أن تنكح العبد إذا رضيت بذلك هي وأولياؤها ؛ وبدون أن يؤدى ذلك إلى التقليل من شأن هذه الحرة داخل المجتمع الاسلامي ؛ و يكون نسلها من الأحرار تبعاً لأمهم ؛ وكانت القاعدة الشرعية المتبعة في تحديد حالة الرق أو الحرية بإستمرار أن الولد يتبع أمه في رقها أو حريتها.

وبالنسبة لنكاح الحر من الأمة كان الجمهور من العلماء يميل بإستمرار إلى عدم قبول زواج الحر من أمة إلا في حالة الضرورة الشديدة ؛ لأن زواج الحر من أمة سيؤدى بالتبعية إلى وقوع الولد في الرق تبعاً للقاعدة السابقة ؛ فلم يكن من المرغوب إذن اللجوء إلى مثل هذا الزواج خوفاً على الولد من أن يقع في الرق ؛ وهو ما يعني أيضاً رغبة فقهاء المسلمين في تضيق روافد الرق داخل المجتمع الاسلامي ؛ وكانت هذه الضرورة ؛ كما حددها الجمهور؛ تظهر في حالتين هما : عدم قدرة الحر على الزواج من حرة ؛ أو خوفه تحت ظروف بعينها من الوقوع في الفتنة ؛ وفي مقابل هذا كان للاسلام موقف آخر يحث فيه السادة على عتق إمائهم ثم الزواج بهن ؛ على الرغم من جواز وطئهن بملك اليمين بدون اللجوء إلى عقهم ثم عقد الزواج عليهن ؛ حدثنا إسحاق بين إبراهيم عن محمد بن فضيل ؛ عن مطرف عن الشعبي ؛ عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه ؛ قال رسول الله (عر): "من كانت له جارية فعلهما ؛ فأحسن رضي الله عنه ؛ قال رسول الله (عر): "من كانت له جارية فعلهما ؛ فأحسن الهما عما المتقعا وتزوجها كان له أجران "(٢)) .

وقد أباحت الشريعة الاسلامية للسيد أن يزوج أمته لمن يشاء بدون إذنها وبغير إشتراط موافقتها ؛ لأن السيد بحكم إمتلاك رقبة أمته يملك منفعتها ؛ ولأن

⁽۱) د. عبد السلام النرماتيني الرق ماضيه وحاضره . مرجع سابق .

⁽٢) الامام الحافظ أبو الوليد بن رشد القرطبي بداية المجتهد ونهاية المقتصد . مرجع سابق .

زواج الامة سيسقط عنه نفقتها ويكسبه مهرها ؛ ويصبح ولدها من زوجها وقيقاً له (١) وقيدت الشريعة الاسلامية حق السيد في تزويج الأمة المرهونة والأمة التي بعضها حرحيث قررت أحكام الفقه الاسلامي أن السيد لايملك تزويج أمته المرهونة إلا برضاء الراهن؛ وكذلك لا يملك إجبار الامة التي بعضها حرعلي االزواج لأن رقبتها ليست خالصة له (٢) ؛ كما لا يملك السيد في كل الحالات إجبار أمته على الزواج بعيب يؤثر في حقوق الجارية في الاستمتاع ؛ وعلى ذلك فإن الامة تملك فسخ عقد نكاحها بالجب والعنة بدون إذن سيدها ؛ ولها أن تلجأ في ذلك للحاكم (٣) .

وقد نظمت الشريعة الاسلامية وقواعد الفقه الاسلامي حق الامة في طلب التزويج من سيدها ؛ حيث يُجبر السيد على إجابة طلب أمته بتزويجها إن كان لايطؤها لعيب فيه ؛ أو لحرمتها عليه كما في الحالات التي سبق ذكرها ؛ وإن الهند عن إجابة طلب أمته إلى التزويج يجبره الامام على ذلك ؛ لأن حاجة الامة إلى النكاح واجبة علي سيدها كحاجتها إلى الطعام والملبس ؛ ولأتها برقها له صارت كفيلته التي يجب عليه أن يعفها عن الفسق أو الزنا(؛) .

كما حرصت قواعد الفقه الاسلامي على أن تعالج حالات خاصة أخرى كان من المحتمل أن تظهر بسبب أى تغيير قد يطرأ على الوضع القانوني للرقيق وهو ما يشير أيضاً إلى المرونة الكبيرة التي اتسم بها المجتمع الاسلامي فيما

⁽١) الامام الحافظ أبو الوليد بن رشد القرطبي بداية المجتهد ونهاية المقتصد . مرجع سابق .

⁽٢) نفس المرجع ،

⁽٣) المغنى لأبن قدامة ج٦.

⁽٤) الامام الحافظ أبو الوليد بن رشد القرطبي بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، مرجع سابق .

يتعلق بمسألة الرق والحرية ؛ والذي كان يعتبر أن الرق حالة عارضة من الممكن أن تزول عن صاحبها بدون حاجة إلى الدخول في إجراءات معقدة ؛ ومن ذلك حالة الأمة التي يزوجها سيدها بعبد ؛ ثم تصبح الامة حرة لسبب أو لأخر ؛ كأن يعتقها سيدها ؛ أو تكاتبه وتفتدي نفسها منه ؛ قال الامام أبو حنيفة والجمهور من العلماء : أن الامة المتزوجة من عبد إذا عتقت فلها الخيار في أن تفسخ نكاحها من زوجها الرقيق إدا لم يكن قد مسها ؛ وإن كان زوجها الرقيق قد وطئها فلا خيار لها ؛ أخبرنا مالك أخبرنا ابن شهاب عن عروة بن الزبير أن زبراء مو لاة عدى بن كعب أخبرته : أنها كانت تحت عبد ؛ وكانت أمة فأعتقت فأرسلت إليها حفصة ؛ وقالت : إني مخبرتك خبراً وماأحب أن تصنعي شيئاً إن أمرك بيدك مالم يمسك ؛ فإذا مسك فليس لك من أمرك شئ قالت : ففارقته (۱)

وبالنسبة لزواج الرقيق من الذكور؛ فقد اتفق الامام مالك وأبو حنيفة على أن لليسد إجبار عبده على الزواج لأنه يملك رقبته؛ وقال الامام الشافعى فى أحد قوليه أنه ليس للسيد إجبار عبده على الزواج طالما كان العبد راشد وعاقل؛ وهو قول ابن قدامة الذى استند إلى أن الأمر بالإنكاح فى قوله تعالى: "وانكموا الابهامي منكم والعالميين من عبادكم" يختص بطلب الرقيق من سيده أن يزوجه؛ ويتضمن رأى ابن قدامة هنا: أن الآية السابقة تفيد إجبار السيد على تزويج رقيقه إذا طلب منه ذلك؛ ونكنها لاتفيد إجبار العبد على النكاح؛ وإن قال بأن العبد لايملك أن يتزوج من بلد أخرى غبر التى يقيم بها سيده؛ لما قد يسببه ذلك من نقصان فى منفعة رقيقه منه.

وقد استبعدت الشريعة الاسلامية تماماً أن تكون هناك علاقة بين الرقيق الذكر وسيدته ؛ كالعلاقة بين الإماء ومالكيهم ؛ فقد جاءت امرأة الى عمر بن الخطاب

⁽١) موطأ الامام مالك باب الامة تكون تحت عبد فتعتق ؛ مرجع سابق .

وقد وطئها عبدها ؛ وقالت إنها تسرت بعبدها ؛ كما يتسرى السادة من الرجال بالاماء ؛ وأنها فهمت آية إياحة نكاح ملك اليمين على هذا النحو؛ فأمر عمر ببيع العبد وتغريبه خارج المدينة بعد أن عزر المرأة (١) ؛ كما أن الخليفة عمر بن الخطاب جاءته امرأة وقد تزوجت عبدها ؛ فهم أن يرجمها ؛ وقال لها لايحل الكوفرق بينهما ؛ وأخرج العبد من المدينة ؛ وكذلك قال الجمهور بأن الحرة إذا اشترت زوجها العبد أو ملكته بهبة أو بإرث ؛ ينفسخ العقد وكذلك إذا زوج السيد ابنته لعبد له ؛ ثم مات السيد فإن العقد ينفسخ ؛ لأن البنت تكون قد ملكت جزء من رقبة زوجها ؛ وإختلفوا فيما إذا زوج السيد ابنته من مكاتبه ؛ ثم مات السيد ورثته ابنته أو ورثت جزء فيه ؛ قال الامام مالك والشافعي : ينفسخ العقد السيد ورثته ابنته أو ورثت جزء فيه ؛ قال الامام مالك والشافعي : ينفسخ العقد كزنها ملكت جزءاً منه ؛ وملك يمين المرأة محرم عليها باجماع ؛ وقال الامام أبو حنيفة ؛ وقد إشتهر عن مذهبه بصفة عامة تغليب جانب الرقيق : يصح النكاح رقبة زوجها المكاتب وليست

وبالنسبة لتعدد الزوجات للعبد: فإن عمر وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعطاء والحسن والشعبى وقتادة والثورى والشافعي والإمام أحمد، قالوا بأن العبد لايجمع إلا إثنتين؛ ونصفوا مايجوز للعبد نكاحه قياسا على تنصيف الحدود المقامة عليه في السكر والزنا.

وقال القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وطاوس ومجاهد والزهرى وربيعة والإمام مالك وأبو ثور وداود ، أن للعبد نكاح أربع نساء لعموم قوله تعالى في

⁽١) الجامع لاحكام الله تفسير القرطبي - ج٥ ؛ تفسير سورة النور

⁽٢) موطأ الإمام مالك ؛ باب النكاح ؛ مرجع سابق .

سورة النساء: قانكموا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع " ويميل ابن قدامة الى الرأى الأول لأنه إجماع الصحابة مع عدم وجود مخالف لهم (١).

وأوجبت الشريعة الإسلامية مهر ونفقة زوجة العبد سواء كانت حرة أم رقيقة على سيد زوجها مادام زوجها خالصا في رقه لسيده أو مدبر؛ وإذا كان زوجها معتق البعض فإن مهر ونفقة الزوجة واجبة على زوجها بقدر حريته وعلى سيد زوجها بقدر رق زوجها له .

وأما فى حالة العبد المكاتب فإن مهر ونفقة زوجتة واجبة بتمامها عليه لأن منذ أن صار مكاتباً أصبح أهلا للكسب والتملك حتى يحين عققه بالأداء أو تعجيزه(٢)، وأما فى حالة كون الزوجة أمة وكانت تحت عبد أو حر فإن نفقتها على زوجها تكون مشروطة بأن تتبوء مع زوجها بيتا واحدا ؛ فإذا كانت الأمة محبوسة فى خدمة مو لاها لحقه فى خدمتها له ؛ فإن نفقتها تكون على سيدها .

كما حسمت الشريعة الأسلامية مسألة تحديد صاحب الحق في تطليق العبد من زوجته ؛ حيث قالت بأن الطلاق بصفة عامة يكون بيد الزوج ؛ سواء كان حراً أم عبداً ؛ روى ابن ماجة في سننه عن ابن عباس قال : أتى النبي(عر) رجل فقال يارسول الله سيدى زوجني أمة وهو يريد أن يفرق بيني وبينها ؛ قال: فصعد النبي(عر) المنبر فقال : "باأبهاالناس مابال أحدكم بروج عبده أمته ثم بربد أن بغرق بينهما ؟! إنهاالطلاق لمن أخذ بالساق "(٣) .

⁽١) المغنى لإبن قدامة : ج ٩ مرجع سابق .

⁽٢) نفس المرجع .

⁽٣) ابن القيم نزاد المعاد؛ ج٤.

وبهذا فإن العبد يستبد بطالق زوجته أو بإمساكها والايحل المسيد أن يفرق بينهما حتى وإن كان السيد يملك رقبة العبد وزوجته ؛ كما يحرم على السيد أن يطأ جاريته بمجرد أن تصبح زوجة لغيره حتى ولو كان زوجها هو الآخرعبداً له أخبرنا مالك ، أخبرنا نافع ، عن بن عمر أن عبداً لبعض تقيف جاء الى عمر بن الخطاب فقال : إن سيدى أنكحنى جاريته فلانة ؛ وكان عمر يعرف الجارية ثم هو يطؤها ؛ فأرسل عمر الى الرجل فقال عمر له : ما فعلت بجاريتك فلانة ؟ قال هي عندى ؛ قال هل تطؤها ؟ فأشار اليه بعض من كان عندعمرفقال : الا فقال عمر : أما والله لو إعترفت لجعلتك نكالا ؛ قال محمد : وبهذا نأخذ ؛ الينبغي إذا زوج الرجل جاريته عبده أن يطأها ، الأن الطلاق والفرقة بيد العبد إذا زوجه مولاه وليس لمولاه أن يفرق بينهما بعد أن زوجهما حتى ولو كان يملك رقبة الزوجين (۱) .

وصار الجمهور الى قياس طلاق العبد والأمة على حدودهما ؛ وعلى ذلك فإن كان الزوج عبداً فإن طلاقه البائن هي طلقته الثانية سواء كانت الزوجة حرة أو أمة ؛ وبهذا قال الإمام مالك والإمام الشافعي ؛ ومن الصحابة والتابعين سيدنا عثمان وبن عباس وعمر وإسحاق وسعيد بن المسيب ، جاء في موطأ الإمام مالك :" أخبرنا مالك ؛ حدثنا الزهري عن سعيد بن المسيب ؛ أن نفيعا مكاتب أبي سلمة كانت تحتة امرأة حرة فطلقها إثنتين فاستفتى عثمان بن عفان فقال : حرمت عليك ؛ وأخبرنا مالك ؛حدثناأبو الزناد عن سليمان بن يسار : أن نفيعاً فقال عبداً لأم سلمة أومكاتباً لها ؛ وكانت تحته امرأة حرة فطلقها تطليقتين فأمره أزواج النبي (م) أن يأتي عثمان فيسأله عن ذلك ؛ فلقيه عند الدرج وهو أخذ بيد زيد بن ثابت فسأله فابتدراه جميعاً فقالا :حرمت عليك .. حرمت عليك .

⁽١) موطأ الإمام مالك : باب طلاق المحرة تحت العبد ،

وقال أخرون إن الإعتبار في عدد الطلاقات بالنساء سواء كان المروج حرا أم عبدا ؛ فإذا كانت الزوجة حرة فطلاقها البائن هي الطلقة الثالثة ؛ وإن كانت أمة فطلاقها البائن هي طلقتها الثانية ؛ وممن قال بهذا من الصحابة والتابعين سيدنا على وابن مسعود والحسن وابن سيرين وعكرمة وعبيدة والزهري والحكم والثوري والإمام أبو حنيفة(١) .

وأما أهل الظاهر فلما كان الأصل عندهم أن حكم العبد في التكاليف حكم الحر الا ماأخرجه الدليل ؛ والدليل عندهم نص أو ظاهر من كتاب أو سنة ؛ ولم يكن هناك دليل ظاهر صحيح بهذا المعنى ؛ فقد وجب عندهم أن يبقى العبد على أصله ويكون بذلك طلاقه البائن هي طلقته الثالثة ؛ وبذلك يكون قياس الطلاق على مسألة تنصيف الحدود عندهم غير سديد (٢)

وبالنسبة لعدة الأمة من زوجها: فيرى داود وابن سيرين أن عدة الأمة التى تحيض كعدة الحرة لعموم قوله تعالى" والمطلقات بيتربين بأنفسين ثلاثة قروء" وقال بن قدامة والجمهور أن عدة الأمة قراءان .

وفى حالة الأمة التى لاتحيض فقال عطاء والزهرى وإسحاق والشافعى فى رواية والإمام أحمد فى رواية أنها شهران وذلك لقول عمر: "عدة أم الولد حيضتان ولو لم تحض كان عدتها شهرين "، ويرى على وابن عمر وابن المسيب وسالم والشعبى والثورى وأصحاب الرأى والشافعى فى رواية ثانية والإمام أحمد فى رواية ثانية أنها شهر ونصف لأن عدة الأمة نصف عدة الحرة ؛ وعدة الحرة ثلاثة أشهر ؛ فنصفها شهر ونصف .

ويرى الحسن ومجاهد وعمر بن عبد العزيز ويحى الأنصارى وربيعة ومالك والشافعي في رواية ثالثة أنها ثلاثة أشهر لعموم قوله

⁽١) موطأ الإمام مالك : باب طلاق الحرة تحت العبد .

⁽٢) ابن كثير: مختصرا بن كثير ؛ المجلد الثاني؛ تفسير سورة النور ، مرجع سابق .

قال تعالى : "والائى يَئَسْنَ مِن الْمحيض مِن نسائكم إن ارتبت م فعدتهن ثلاثة أشمر والائى لم يحضن "(١).

وأما الأمة المتوفى عنها زوجها فقد قال ابن سيرين إن عدتها كعدة الحرة وأخذ بظاهر النص وعمومه ؛ وقال ابن قدامة إن الصحابه اتفقوا على أن عدة الأمة المطلقة هي النصف من عدة الحرة ؛ وكذلك عدة الوفاة .

وفى حالة أم الولد إذا مات سيدها: فإن عثمان و ابن عمر والحسن والشعبى والقاسم ابن محمد وأبو قدادة ومكحول ومالك والشافعي وأبو عبيد وأبوثور والمشهور عن الإمام أحمد ان عدة أم الولد حيضتان ؛ ويرى سعيد بن المسيب وأبو عياض وابن سيرين وسعيد بن جبير ومجاهد بن عمرو؛ وعمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبد الملك والأوزاعي وإسحاق وأحمد في رواية أخرى أنها عتد عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا وذلك لما روى عن عمرو بن العاص أنه قال : "لاتفسدوا علينا سنة نبينا ؛ عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر ".

وقال عطاء وطاوس وقتادة وأحمد في رواية ثالثة أنها تعتد شهرين وخمسة أيام لأنها عند موت سيدها لم تزل أمة ؛ وجاء عن سيدنا على وابن مسعود وعطاء والثوري وأصحاب الرأى أن عدتها ثلاث حيض لأنها حرة تستبرأ فكان إستبراؤها بثلاث حيض كالحرة المطلقة (٢)

ونفس القواعد والأحكام الفقهية السابقة تسرى بالنسبة لإستبراء الأمة بما يعنى التأكد من خلو الرحم من الحمل طالما كانت الأمة في ملك سيدها أو الأمة الزوجة .. وبالنسبة للمسبية أو الأمة التي تنتقل من مالك الى مالك أخر بالبيع أو الهبة

⁽¹⁾ قرأن كريم: سورة الطلاق الأية ؟

⁽٢) المغنى ج٧ . مرجع سابق .

او اى تصرف مالى اخر؛ وكذلك الامة التى تعتق فقد روى عن النبى (عر) أنه قال فى سبايا وطيس أنه لاتوطأ حامل حتى تضع حملها وغير ذات حمل حتى تحيض حيضة ؛ كما أورد البخارى عن ابن عمر أنه" إذا وهبت الوليدة التى توطأ أو بيعت أو عتقت فلتستبرأ بحيضة ؛ ولا تستبرأ العذراء" (١) فإن كانت الأمة آيسة أو لاتحيض ؛ فالشهر يقوم مقام الحيضة فى رواية عن الإمام أحمد وفى قول للشافعى لأن العادة الغالبة هى أن المرأة تحيض فى كل شهر حيضة ؛ وفى رواية أخرى مشهورة عن أحمد وهو قول ثان للشافعى أنها تستبرأ بثلاثة أشهر (٢)

⁽١) المغنى ج٧ ، مرجع سابق .

⁽٢) نفس المرجع.

عورة الرقيق

قال تعالى : وقبل للمؤمنات بيغضض من أبصارهن وبيحفظ فروجهن ولايبدين زينتهن إلاماظهر منها ؛ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلالبعولتهن أو أباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخواتهن أو نسائهن أو بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيهانهن أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن و توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تغلمون " (النور أية ٣٣)

نظمت هذه الأية بصفة عامة مايتعلق بعورة النساء مع الرجال الأجانب عنهن وجاء في الجامع لاحكام الله للقرطبي أن عورة المرأة المسلمة حتى مع المرأة المشركة تماما كعورتها مع الرجال (١)

روى عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى أبى عبيدة الجراح: "أمابعد، فإنه بلغني أن نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء اهل الشرك، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله و اليوم الأخر أن ينظر إلى عورتها إلا اهل ملتها."

وقال مجاهد في قوله تعالى: "أو نسائمن "قال: نساؤهن من المسمات وروى عن ابن عباس "أو نسائهن " هن المسلمات ، وعن مكحول وعبادة : أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المرأة المسلمة ، وقوله تعالى "أو ماملكت أبهانهن "قال بن جرير يعنى من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها ، وإليه ذهب سعيد بن المسيب وقال الأكثرون بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجل والنساء .. وأستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أنس أن النبي(ص) أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها

⁽١) الجامع لاحكام الله تفسير القرطبي. تفسير سورة النور.

قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به راسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي (ص) ما تلقى قال: "إنه ليس عليك بأس إنها هو أبوكوغلاهك"(١)

وجاء فى القرطبي أن عورة العبد مع سيدته ما بين السرة والركبة (٢) وأن عورة الأمة مع غير مالكيها بالمثل ترغيباً لهم فى شرائها و استولادها فيكون ذلك سبيلا لها لأن تدخل فى فئة أم الولد وتعتق بعد موت سيدها (٣) .

و بهذا تكون الشريعة الإسلامية على ما أشتهرت به من اهتمامها بحفظ العورات وتقبيد الاختلاط بين الرجال و النساء ضمن حدود المحارم؛ قد تعاملت مع مسألة عورة الرقيق مع مالكيه وعورة السادة مع رقيقهم ؛ و كذلك عورة الإماء مع غير ماليكيهم؛ بقدر من المرونة يسمح للسادة أن ينتفعوا برقيقهم برفع الحرج عن ساداتهم في الظهور أمام رقيقهم ؛ وبصفة خاصة فيما يتعلق بعورة السيدة الحرة مع عبدها في حالة رقيق الخدمات المنزلية أو رقيق محارمها من الذكور ممن يسعون في خدمتها ؛ وكذلك تعاملت بنفس القدر من المرونة مع الأمة التي لا تملك لنفسها من الملبس إلا بقدر ما يهبها مالكيها؛ وبما يتيح للأمة أن تكون مرغوبة للشراء وهو الأمر الذي قد يتيح لها فرصة للخروج من الرق .

⁽١) الامام الحافظ ابو الفداء اسماعيل بن كثير انفسير ابن كثير . مرجع سابق.

⁽٢) الجامع لاحكام الله تفسير القرطبي: مرجع سابق.

⁽٣) الامام الحافظ ابو الوليد القرطبي : بداية المجتهد و نهاية المقتصد . مرجع سابق.

قواعد عتق الرقيق

كانت الشريعة الإسلامية ؛ الى جانب ميلها الى تضيق العديد من مداخل الرق من أكثر الشرائع التى اهتمت اهتماماً واضحاً بمسألة تحرير الرقيق وعتقة ؛ فاهتم علماء المسلمين بهذه المسألة ؛ وأفردوا لها أبواب كاملة في إجتهاداتهم ؛ نظراً لإرتباط مسألة عتق الرقيق بواجبات ومسائل شرعية أخرى ؛ مثل التكفير عن الحنث في اليمين ؛ أو القتل الخطأ ؛ أو حتى للتقرب الى الله بصالح الأعمال وأعتبرت مصادر الدين الإسلامي الأساسية أن عتى الرقيق من أفضل الأعمال التي يتقرب بها المسلم إلى ربه .

جاء فى صحيح البخارى "حدثتا أحمد بن يونس ؛ حدثتا عاصم بن عمر قال : حدثتى واقد بن محمد قال : حدثتى سعيب بن المسيب بن مرجانة صاحب على بن الحسين قال : قال لى أبو هريرة رضى الله عنه ؛ قال النبى (ص) : "أبها رجل أعتق امرءاً مسلماً إستنقذ الله بكل عضو منه عضوا من النار ؛ قال سعيد بن مرجانة : فانطلقت به الى على بن الحسين ؛ فعمد على بن الحسين رضى الله عنهما الى عبد اعطاه له عبد الله بن جعفر بعشرة ألاف درهم أو ألف دينار؛ فأعتقه "(١)

كما قررت السنة المطهرة أن عتى الرقيق أمراً مندوباً في مناسبات بعينها ؛ مثل الكسوف أو الآيات أو عند الوفاة ؛ بنية التقرب الى الله تعالى وإسترحامه ؛ حدثنا موسى بم مسعود ؛ حدثنا زائدة بن قدامة ؛ عن هشام بن عروة ؛ عن فاطمة بنت المنذر ؛ عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت : " أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالعتاقة في كسوف الشمس ". (٢)

⁽١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى : باب في العتق وفضله.

⁽٢) موطأ الإمام مالك باب العتق .

وجاء فى موطأ الإمام مالك أيضا: أخبرنا مالك ؛ أخبرنا يحيى بن سعيد قال: توفى عبد الرحمن بن أبى بكر فى نوم نامه ؛ فأعتقت عائشة عنه رقاباً كثيرة ؛ قال محمد ؛ وبهذا نأخذ ؛ لابأس أن يعتق عن الميت ؛ فإن كان أوصى بذلك كان الولاء له .

ويصفة عامة لم يتبت عن النبى (ص) أنه أسترق حراً قط ؛ فقد حدث أن أصحاب النبى (ص) ممن صاحبوه في غزوة بنى المصطلق سبوا النساء والأطفال واسترقوهم ؛ فلم ينههم النبى (ص) بصريح العبارة ؛ ولكنه عمل عملاً كان من شأنه أن حمل الصحابة رضوان الله عليهم على فك رقاب أسراهم ؛ فقد روت الصحاح أن رسول الله (ص) لما إنصرف من غزوة بنى المصطلق ؛ كانت معهم جويرة بنت الحارث ؛ التي كانت ضمن الأسرى ؛ فدفعها النبي (ص) الى رجل من الأنصار تكون في ضيافته لما لأبوها من فضل بين قبائل العرب ؛ فأقبل أبوها يريد فدائها ؛ ولكن النبي (ص) بعد أن أسلمت هي وأبيها خطبها لنفسه من الحارث ؛ فقال الناس في المدينة أصهار رسول الله (ص) ؛ فأرسلوا ما بأيديهم من الأسرى ؛ وأعتقوا من وقع منهم في الرق ؛ فبلغوا مائة رقبة من بيت الحارث وبني المصطلق.

كما قرر علماء الأصول بأولوية الحرية ؛ حتى على الإسلام ؛ فإذا إبتاع أحد المسلمين في دار الإسلام عبداً ؛ ثم ظهر أهل لهذا العبد ؛ وعلم الإمام أن العبد وقع في الرق عن طريق البغى أو الإحتيال ؛ فإن الإمام يرد العبد الى أهله حتى وإن كان أهله من دار كفر ؛ ولو علم الإمام أن العبد إذا رجع الى أهله سيعود كافراً ؛ وإذا استمر في حوزة سيده المسلم سيظل مسلماً (١).

⁽١)حسن السخى : الإسلام والرق ؛ رؤية إسلامية معاصرة ؛ دار الكنوز ؛ القليوبية ١٩٩٤ .

"حدثنا عبد الله بن موسى عن هشام بن عروة عن أبى مروان عن أبى ذر رضى الله عنه قال: "أبيمان أى الأعمال أفضل ؟ قال: "إبيمان بالله وجماد في سبيله"؛ قلت: فأى الرقاب أفضل ؟ قال: "أعلاها ثمنا وأنفسما عند أهلما "؛ قلت: فإن لم أفعل ؟ قال: "تعبين ضائعاً أوتصنع لأخرق " قال: فإن لم أفعل ؟ قال: "تدع الناس من الشر فإنما صدقة تصدق بما على نفسك"؛ وأحتج مالك بهذا الحديث بأن عتق الرقبة الكافرة أفضل إذا كانت أغلى ثمناً من الرقبة المسلمة.

وفيما يتعلق بتفضيل الرقاب المعتوقة فإن إرتكاب الكبائر لم تكن سبباً فى حرمان الرقيق من فرصة أن يصبحوا أحراراً ؛ جاء فى موطأ الإمام مالك:
" أخبرنا مالك ؛ حدثنا مالك ؛ أن عبد الله بن عمر أعتق ولدا زنا وأمه ؛ قال محمد : لاباس بذلك و هو حسن جميل".(١)

كما عالجت الشريعة الإسلامية مسألة أن يكون الرقيق مملوكا نشركاء فيقوم أحد هؤلاء بعتق نصيبه في عبده ؛ فقد قررت قواعد الفقه الإسلامي في هذا الصدد أن العبد المعتوق بعضه يصيرفي النهاية الى الحرية جميع الحالات.

فقد أوجب الجمهور على شريك المعتق أن يعتق نصيبه فى العبد المعتوق أو أن يقوم العبد عليه ؛ ويسعى العبد فى إفتداء نفسه منه ؛ قال بذلك الإمام أبى حنيفة وصاحبيه أبو يوسف ومحمد ؛ استندوا فى ذلك ومن يقول بقولهم بالحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبى (ص): "من أعتق شقطاً له فى عبد فخلاصه فى ماله ؛ إن كان له مال ؛ فإن لم يكن له مال استسعى العبد غير مشقوقا عليه "(٢) .

⁽١) موطا لإمام مالك باب العتق مرجع سابق.

⁽٢) الإمام القرطبي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ؛ كتاب العتق،

وقال علماء الكوفه في ذلك ال الكرية كلى السيد المعتق نصيبه في العبد الإمام مالك وأصحابه أن من معنى الحديث أنه يلزم السيد المعتق نصيبه في العبد أن يقوم عليه باقى ثمنه للضرر الذي أدخله على شريكه (١) ؛ وبنفس المبدأ صار على السيد الذي يملك رقيقا ملكية تامة ويعتق بعض من رقبة هذا الرقيق أن يتم عتقة ؛ قال بذلك جمهور العلماء ؛ وأستندوا في ذلك الى مارواه النسائي وأبو داود عن أبي المليح عن أبيه " أن رجلا من هزيل أعتق شقصاً له من مملوك .. فتمم النبي (ص) عتقه وقال : "لبس لله شربك". (٢)

ولما كان قد أصبح جائزا في المجتمع الإسلامي أن يحصل الرقبق على حريته من سيدة سواء بالعتق أو الفداء ؛ ويصبح هذا الرقيق السابق نفسه بعد عنقه مالكا لرقيق أخر يشتريهم بماله أو يحصل عليهم بهبه أو غيرها ؛ فقد عالجت الشريعة الإسلامية أمرا كان محتملا أن يحدث فيما يتعلق بهذه الحالات وهي أن يملك شخص ما ذوى رحمه ؛ كأن يكون رقيقا معتوقا ثم يشترى أبيه وأمه أو أخوته أو غيرهم ؛ فجمهور العلماء إلا داود وأصحابه قالوا بوجوب عتق ذوى القربى ؛ قال مالك : يعتق على الرجل ثلثة ؛ أحدهم أصوله وهم الأباء والأجداد والأمهات وأباؤهم وأمهاتهم ؛ وبالجملة كل من كان له على الإنسان ولادة ؛ والثَّاني : فروعه وهم الأبناء والبنات وولدهم ماسفلوا ؛ سواء في ذلك ولد البنيين وولد البنيات ؛ وبالجملة كمل من لملرجل عليه ولادة بغير توسط أو بتوسط ، ذكر أم أنتى ؛ والثالث الفروع المشاركة له في أصله القريب ؛ وهم الأخوة ؛ وسواء كانوا لأب وأم أو لأب فقط أو لأم فقط ؛ ولم يوجب الإمام الشافعي عتق بني الأخوة ؛ وأما أبو حنيفة وهو صاحب مذهب أهل السنة الذي أشتهر عنه تغليبه لمصلحة الرقيق فيما يتعلق بخيارات العتق والحرية فقد أوجب

⁽١) الإمام القرطبي: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ؛ كتاب العتق.

⁽٢) نفس المرجع،

عتق حتى كل ذى رحم محرم بالنسب كالعم والخال والخالة وبنات الأخ ومن أشبههم ممن هو من الإنسان ذوى محرم ؛ وأستند الإمام أبو حنيفة وأصحابه فى ذلك على مارواه قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى (عر) قال : "من ملكذا رحم فعو حر "(١)

وعالجت الشريعة الإسلامية الحالات التي يعتق فيها السيد رقيقاً له في مرضه الذي يسبق الموت أو أن يوصى بعتق رقيق له بعد موته وليس لمه مال غيرهم قال الإمام مالك والشافعي وأصحابهما والإمام أحمد: إذا أعتق في مرضه ولامال له سواهم قسموا ثلاثة أجزاء وعتق منهم جزء بالقرعة بعد موته ؛ وخالف أشعب وأصبغ الإمام مالك في العتق المبتل بالمرض؛ فقالا إنما القرعة في الوصية فقط أما حكم العتق في المرض الذي يسبق الموت فهو كحكم المدبر "

وأخذوا فى هذه الحالة بما قررة الإمام مالك فى حالة أن يدبر السيد رقيقة ثم يموت ولامال له غيرهم ؛ فقرر الإمام مالك أن يعتق من كل رأس رقيق ثلثة حتى تعم الحرية جميع الرقيق المدبر فيسعون فى عتق باقى أنصبة الورثة ؛ ومثل هذا القول قاله الإمام أبو حنيفة .(٢)

وقد حرصت قواعد الفقه الإسلامي فيما يتعلق بالعتق على تحديد الألفاظ التي يؤدى تلفظ السيد بها الى تحرير رقبته وكان المبدأ الأساسي الذي يحكم هذه المسألة هو ماروى عن النبي صلى الله عليه وسلم عن النهي عن الهزل في مسائل النكاح والطلاق والعتق ؛ و تشددت أحكام الفقه فيما يتعلق بالفاظ العتق حتى أنها أوجبت عتق الرقيق حتى إذا تلفظ سيده بما يكن عن عتقه الرقيقه ؛ كأن يقول السيد لرقيقه " لاسبيل لى عليك " أو " لا ملك لى عليك " ؛ بل أن الإمام

⁽١) الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي بداية المجتهد ونهاية المقتصد مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع.

ابوحنيفة قال : بأن السيد إذا قال لعبده "يابنى" أو لأمته "يا بنتى " ، أو قال "ياأبى" أو" يا أمى " فإن الرقيق يعتق على السيد بمجرد تلفظه بهذا القول .

كما عالجت الشريعة الإسلامية الحالات التي تعتق فيها الأمة الحامل ؛ فاتفق الجمهور على أن وليد الأمة يولد حرا مادام لم يستثنه السيد ؛ وحتى فى حالة إستثناء السيد لوليدها من لفظ العتق فقد قال الإمام مالك بعدم جواز هذا الإستثناء ؛ كما شبه علماء الأصول المسلمين حجية ألفاظ العتق بحجية ألفاظ الطلاق غير أن ألفاظ العتق لا رجعة فيها ؛ وأتفقوا أن للحاكم إذا أنكر السيد تلفظه بالعتق أن يختبر السيد بالشهود وباليمين وأن يعتق عليه رقيقه إذا ثبت تلفظه بألفاظ العتق أن يختبر السيد بالشهود وباليمين وأن يعتق عليه رقيقه إذا ثبت تلفظه بألفاظ العتق أن يختبر السيد بالشهود وباليمين وأن يعتق عليه رقيقه إذا ثبت تلفظه بألفاظ العتق أن يختبر السيد بالشهود وباليمين وأن يعتق عليه رقيقه إذا ثبت تلفظه بألفاظ العتق أن يختبر السيد بالشهود وباليمين وأن يعتق عليه رقيقه إذا ثبت تلفظه بألفاظ العتق أن يختبر السيد بالشهود وباليمين وأن يعتق عليه رقيقه إذا ثبت تلفظه بألفاظ العتق (۱) .

وكما عالجت الشريعة الإسلامية مسائل النكاح والعتق للرقيق ؛ لم تغفل أموراً أخرى مرتبطة بالحياة اليوميية لهؤلاء مثل مسائل العبادات ؛ وأيضاً ما يرتبط بالحدود والعقوبات التي قد يتعرض لها الرقيق إذا إرتكب ما يوجب إقامة الحد عليه أو القصاص منه ؛ وكانت الشريعة الإسلامية في هاتين المسألتين على وجه الخصوص حريصة على أن تراعى الوضع الخاص للرقيق بإعتباره فاقد للأهلية ولايملك من أمر نفسه بقدر ما يملك سيده عليه من حقوق تصل إلى درجة إستغراق الرقيق نفسه في ملك يمين سيده ؛ وكذلك راعت الشريعة الإسلامية إعتبار أن الرقيق في نهاية الأمر هو مال مملوك لسيده حيث راعت في هذه المسألة ألا تؤدى العقوبات التي يمكن أن تنزل بالرقيق إلى إتلاف نفس الرقيق المنالة ألا تؤدى العقوبات التي يمكن أن إتلاف مال السيد ، وهو ما يعنى إدخال الضرر على هذه الحالة سيؤدى إلى أن إتلاف مال السيد ، وهو ما يعنى إدخال الضرر على مالك الرقيق او بمعنى أخر عقاب السيد على ذنيب قد لايكون مسئو لا عنه .

⁽١) الإمام القرطبي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ؛ كتاب العتق.

وبصفة عامة فإن الشريعة الإسلامية إستبعدت تماماً فكرة أن تفرض نفس الفروض الدينية التي يقوم بها الحر على الرقيق ؛ وأيضاً أن تكون عقوبة الرقيق على ذنب ما هي نفس عقوبة الحر على إرتكاب نفس الذنب .

فبالنسبة للعبادات: راعت الشريعة الإسلامية أن أم الرقيق لايكون خالصاً لنفسه ؛ وعلى ذلك فقد أسقطت عن الرقيق طالما ظل رقيقا العبادات التى تستغرق منه وقت يطول ؛ لأنه عملياً لن يستطيع أدائها ولأن أدائها سيضر بمصلحة سيده ومن ذلك المحج وإن صح منه إذا أتاحت له الظروف تأديته كأن يكون بصحبة سيده أو حتى أن يسمح له سيده بذلك(۱) .

وكذلك اسقطت الشريعة الإسلامية عن الرقيق فرض الزكاة لأنه هو نفسه مال مملوك لسيده ؛ وحتى فى حالة العبد المكاتب فإن الزكاة لا تجب عليه على الرغم من أنه يصير أهلا للتملك بمجرد مكاتبته لسيده لمشابهة وضعه بوضع الذى عليه دين طالما لم يؤدى كتابته(٢).

وفيما يتعلق بجرائم الزنا وشرب الخمر فإن الشريعة الإسلامية قد نصفت حدودهما على الرقيق ؛ فقد روى أبو هريرة عن النبى (عر) سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن فقال : "إن زنت فإجلدوها ؛ ثم إن زنت فإجلدوها .. ثم بيعوها ولو بضفير "(٣) . وبالنسبة للذكور من الرقيق فقد قال فقهاء الأمصار أن حد العبد نصف حد الحر قياسا على الأمة ؛ وكذلك حد القذف وشرب الخمر . جاء في موطأ الإمام مالك : أخبرنا مالك ، حدثنا يحيى بن سعيد ، أن سليمان بن يسار ، أخبره عن عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة المخزومي قال : أمرنى

⁽١) الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي بداية المجتهد ونهاية المقتصد.مرجع سابق

⁽٢) نفس المرجع .

⁽٣) نفس المرجع .

عمر بن الخطاب في فتية من قريش ؛ فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة خمسين خمسين في الزنا ؛ قال محمد : وبهذا نأخذ بجلد المملوك في حد الزنا ، نصف حد الحر ، خمسين جلدة ؛ وكذلك القذف وشرب الخمر السكر ؛ وهو قول أبي حنيفة والمعامة من فقهائنا(۱) ؛ وأخبرنا مالك ،أخبرنا أبو الزناد ، عن عمر بن عبد العزيز : أنه جلد عبداً في فرية ثمانين جلدة ، قال أبو الزناد : فسألت عبد الله بن عامر بن ربيعة فقال : أدركت عثمان بن عفان والخلفاء ، فما رأيت أحد منهم ضرب عبداً في فرية أكثر من أربعين .

قال محمد: وبهذا نأخذه لا يضرب العبد في الفرية إلا أربعين جلدة نصف حد الحر ؛ وهو قول أبى حنيفة والباقي من فقهائنا(٢) وأما في حالة السرقة فإن الجمهور قرروا أن حد السرقة على العبد من غير مال سيده يقام بدون فرق بينه وبين الحر لأن حد القطع لايمكن تتصيفه ؛ إلا أن الإمام الشافعي وشريح وقتادة فرقوا بين الحر والعبد فيما تثبت به السرقة على العبد بما يوجب القطع ؛ حيث رفض هؤلاء إقرار العبد على نفسه وإتفقوا على وجوب أن تشهد بها شاهدين عدلين ؛ أما بالنسبة لسرقة العبد من مال سيده فقد قرر الإمام مالك وأبو حنيفة وعلماء الأمصار أن سرقة العبد من مال سيده لاتوجب القطع؛ جاء في موطأ الإمام مالك : حدثنا الزهري ، عن السائب بن يزيد أن عبد الله بن عمرو الجعفري ، جاء إلى عمر بن الخطاب بعبد له ، فقال : إقطع يد هذا فإنه سرق الجعفري ، جاء إلى عمر بن الخطاب بعبد له ، فقال : إقطع يد هذا فإنه سرق فقال : وما سرق ؟ ، قال : مر أة لإمر أتي ثمنها ستون در هما ، قال عمر : أرسله ليس عليه قطع ، خادمكم سرق متاعكم ؛ قال محمد : وبهذا نأخذ أيما رجل له

⁽١) موطأ الإمام مالك تباب حد المماليك في الزنا والسكر . مرجع سابق

⁽٢) نض المرجع،

عد. سرق من ذى رحم محرم منه أو مولاه أو من إمرأة مولاه أو من زوج مولاته فلا تطع عليه فيما سرق(١) .

وكما وضعت الشريعة الإسلامية قواعد فقهية هي بمثابة مواد قانونية فيما يتعلق بأوضاع الرقيق ني ظل المجتمع الإسلامي ، فإن الشريعة الإسلامية لم تغفل ايضا الجانب الأدبى فيما بتعلق بمعاملة الرقيق ؛ حيث تواترت في مصادر الشريعة الإسلامية نصوص عديدة تحض على حسن معاملة الرقيق؛ بل أن أئمة المسلمين فيما قدموه من إجتهادات وإيداعات للفقه الإسلامي نجدهم يفردون في كتابهم أبوابا وفصولاً تأخذ عناوين من قبيل "باب كراهية التطاول على الرقيق" وباب "كراهية قوله عبدى أو أمتى"؛ وهكذا .

جاء فی صحیح البخاری تحت باب أحذ عنوان "باب کراهیة التطاول علی الرقیق" ؛ حدثنا محمد حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر بن منبه أنه سمع أبا هریرة رضی الله عنه یحدث عن النبی (ص) أنه قال: "البقل أحدكم أطعم ربك، وضی ربك. ولبقل سبدی، موادی، والبقل أحدكم عبدی، أمتی، ولبقل فتای وفتاتی وغلامی "(۲)

حدثنا آدم ابن آیاس ؛ حدثنا شعبة ؛ حدثنا واصل الأحدب ، قال : سمعت المعرور بن سوید قال : رأیت أبا ذر الغفاری رضی الله عنه وعلیه حلة وعلی غلامه حلة ، فسألناه عن ذلك فقال : إنی ساببت رجلا فشكانی إلی النبی (عر) فقال لی النبی (عر) :"أعیرته بأمه"ثم قال" إن إخوانکم خولکم جعلهم الله تحت أبدیکم ، فمن کان أخوه تعت بده فلیظعمه مما یأکل و لیلبسه مما بلبس ، ولا تكلفوهم ما بغلبهم ، فإن كلفتوهم ما بغلبهم فأعینوهم ".(۳)

⁽١) موطا الإمام مالك : باب العبد يسرق من مولاه . مرجع سابق.

⁽٢) ابر حجر العسقلاني : فتح الباري في شرح صحيح البخاري .

⁽٣) نفس المرجع ،

كما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه فى مرض الموت كان يوصى بالضعيفين ، المرأة والمملوك ؛ وكذلك لم تغفل الشريعة الإسلامية أن تورد من النصوص ما من شأنه أن يرفع من معنويات هذا الصنف من الناس ؛ الذى قضت عليهم أقدار هم وبغى المجتمعات التى عاشوا فيها أو بعبارة أدق بغى الثقافات التى عاشوا في غلها والتى كانت ؛ وحتى وقت قريب جداً وفى الوقت الحالى أيضاً فى عاشوا فى ظلها والتى كانت ؛ وحتى وقت قريب جداً وفى الوقت الحالى أيضاً فى بعض المناطق المتطرفة أو البدائية من العالم ؛ تتيح للإنسان أن يسترق إنسان أخر ويتعامل عليه بالبيع والشراء تماماً كالدواب أو كأى سلعة أخرى .

جاء في صحيح البخارى: "حدثنى عبد الله بن مسلمة عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله (ص) قال: "العبد إذا نصم سبده وأحسن عباحة ربه كان له أجره مرتبين": قال ابن عبد البر: معنى الحديث عندى أن العبد لما إجتمع عليه أمران واجبان؛ طاعة ربه في العبادات وطاعة سيده في المعروف فقام بهما جميعاً كان له ضعف أجر الحر المطبع لطاعته لأنه قد ساواه في طاعة الله وفضل عليه في طاعة من أمره الله بطاعته والذي يظهر أن مزيد الفضل للعبد الموصوف بالصفة لما يدخل عليه من مشقة الرق(١)

البولاء

فى إطار معالجة الشريعة الأسلامية لمسألة الرق اومع الأخذ فى الأعتبار أنه فى ظل الحضارة الاسلامية أصبح من المقبول إجتماعياً أن ينال الرقيق حريته ويدخل إلى مجتمع الأحرار بدون أن يسبب ذلك مشاكل إجتماعية ذات أهمية؛ فإن الاسلام حرص على أن يحظى الرقيق المعتق بمن يسانده فى هذا المجتمع الجديد الذى انضم اليه وأصبح واحد من أفراده الذلك شرع الأسلام ما أصبح يعرف فى كتب الأصول بالولاء .

⁽۱) الإمام حافظ ابن حجر العسقلاني .. فتح الباري بشرح صحيح البخاري باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده . مرجع سابق .

والولاء هي علاقة شرعية تنشا بين الرقيق ومن اعتقه وتقوم مقام علاقة النسب تماماً في بعض الظروف؛ جاء عن النبي (ص) أنه قال : "الولاء لمعة كلحمة النسب النبي (على) أنه قال : "الولاء لمعة بين الرقيق المعتق ومعتقه ؛ من ذلك أن من أعتق عبداً عن نفسه فإن ولاء العبد يكون لسيده الذي اعتقه ؛ فيرثه السيد إذا لم يكن للعبد وارث ؛ كما تبقى علاقة الولاء بعد ذلك مستمرة بين أسرة العبد المعتق وأسرة السيد الذي اعتقه ؛ حتى أن قواعد الفقه الاسلامي في سعيها لحث السيد ثم أسرته من بعده للحفاظ على علاقة الولاء بين السيد ورقيقه الذي اعتقه ؛ و بين أسرة هذا الرقيق وأسرة السيد حتى بعد وفاة المؤتين قد رتبت للسيد وأسرته ؛ وهم الطرف الأقوى الذي تسعى الشريعة الاسلامية لحثه على الاتيان بفعل العتق ؛ حقوقاً في تركة الرقيق المعتق إذا لم يظهر له ورثه يحيطون بتركته .

ومن أشهر قضايا الولاء التى ظهرت فى تاريخ مصر هى القضية رقم ١٢٠ لسنة ١٩٢٨ ؛ التى نظرتها محكمة مصر الإبتدائية الشرعية ؛ وهى القضية التى عرفت باسم قضية الشماشرجى ؛ وكان الطرف الأول فى هذه القضية هو حمزة مصطفى أفندى شمس الدين ؛ ضد الطرف الثانى : حضرة صاحب السمو الأمير محمد عباس باشا حليم ؛ وموضوع القضية هو : أنه بعد أن توفى المدعو حسين بك حلمى الشماشرجى ولم يترك ورثة يحيطون بماله تنازع على تركته ابن خالته مصطفى أفندى شمس الدين و سمو الأمير محمد عباس باشا حليم ؛ وأخويه الأمير اير اهيم ؛ والأمير محمد على حليم ؛ حيث أدعى الأمراء انهم أولى بتركة المتوفى حسين بك الشماشرجى ؛ لأن المتوفى هو ابن المرحوم إير اهيم بك بن المرحوم حسين بك الشماشرجى ؛ وأن حسين بك الشماشرجى الجد هذه المرة هو معتوق محمد على باشا الكبير ؛ وأن ابنه ابر اهيم بك ؛ والد المتوفى صاحب

⁽١) الامام القرطبي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ؛ مرجع سابق .

التركه المتنازع عنها هو ابن حسين بك معلوق محمد على . الله عنها هم ماهتاب هانم ؛ وهي بدور ها جارية اشتراها حسين بك بعد عنقه ؛ واعتقها ثم تزوجها .

وقد استند أمراء العائلة المالكة على هذه الوقائع ليطالبوا بأحقيتهم فى تركة المتوفى بالولاء الشرعى ؛ وفى المقابل استند دفاع حمزه مصطفى أفندى ضد أمراء العائلة المالكة بسقوط علاقات الولاء بعد إلغاء الرق فى مصر ؛ وهو ما أخذت به المحكمة وأصدرت حكمها ضد أمراء الأسرة الحاكمة فى ذلك الزمان!!





أسواق الرقيق وأسعاره

في مصر الإسلامية



أسواق الرقيق وأسعاره في مصر الإسلامية

كانت مصر الفرعونية أول دولة أقيمت فيها أسواق نخاسة لبيع الأسرى على أنهم رقيق (١) وكانت المصادر الرئيسية للحصول على رقيق جديدلأسواق النخاسة في مصر بجانب تناسل الرقيق الموجود بالفعل داخل البلاد هي أسرى الحروب والرقيق الذي يجلبه التجار النخاسون بالخطف أو الشراء من الخارج.

ومع الإزدهار السياسي والإقتصادي الذي عرفته مصر الأسلامية وبصفة خاصة بعد أن تحولت مصر من مجرد ولاية أو أحد الأمصار التابعة للخلافة العباسية في بغداد إلى قطر محورى يقوم بدور رئيسي في الدفاع عن الدولة العباسية وتدميرها على يد التتار ؛ ثم الإسلامية بعد سقوط بغداد عاصمة الدولة العباسية وتدميرها على يد التتار ؛ ثم نجاح الأيوبيين و المماليك في دحر الصليبين والتتار وإنقاذ الدولة الإسلامية من أقسى محنة تعرضت لها على الإطلاق منذ وفاة النبي (عر) وبعد المشاعر الأليمة التي اجتاحت المسلمين وهم يرون النهاية الدامية لحاضرة الخلافة العباسية على يد التتار الوثنيين ؛ والضغط الحاشد الذي قامت به جيوش العالم المسيحي فيما عرف تاريخياً باسم الحملات الصليبية على ثغور المسلمين ؛ واستيلاءهم على القدس والمسجد الأقصى بما يعنيه كل ذلك من دلالات رمزية ثم وصول هؤلاء الأعداء الجدد الواحد بعد الآخر إلى حدود مصر في قلب العالم الإسلامي.

وقد بدأت مصر منذ هذه الفترة تمارس نفوذاً كبيراً داخل دولة الخلافة وهو النفوذ الذي زاد تأثيره الفكري والديني بعد أن أعاد صلاح الدين الأيوبي مصر إلى المذهب السني وقضائه على مذهب الفاطميين الشيعة في البلاد؛ وبعد أن أصبح " السلطان " همو اللقب الرسمي لحاكم مصر الذي تصك باسمه العملة أصبحت أسواق الشام والحجاز أسواق تابعة لمصر والتي بدأت تتحول إلى

⁽١) د. عبد السلام الترمانيني، الرق ماضيه وحاضره - مرجع سابق.

المركز الرئيسي للتجارة في المنطقة المحيطة بها خاصة طوال الفترة التي سبقت تحول طرق التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية دولة المماليك وحيث كانت النخاسة وتجارة الرقيق من أهم السلع والأنشطة التجارية على الإطلاق طوال هذه الفترة والعقدو طويلة بعد ذلك.

و كانت الأسكندرية والقاهرة وأسيوط في صعيد مصر من الأسواق الرئيسية في العالم العربي للنخاسة وتجارة الرقيق وتجميعه ؛ و كانت ترد إلى الأسكندرية قوافل الرقيق البيض المجلوب من التركمان وحول بحر البطليق والصقالبة ومن بلدان شرق أوربا الأخرى -

و كان التجار النخاسون من اليهود ممن اشتهر عنهم إجادتهم للغات هذه البلدان ؛ إلى جانب خبرتهم بأسواق الشرق ؛ بارعون في خطف الرقيق الإبيض سواء الرقيق الإناث الذي يصلح للمتعة والتسرى؛ أو الرقيق من الذكور الذي الشتهر بشجاعته وبأسه في القتال ؛ وبصفة خاصة الرقيق التركمان والصقالبة؛ والصنف الأخير كان أغلاها ثمناً وكانت سمرقند مركز لتجارة وتجميع هذا النوع من الرقيق الذي كان يجلب من بلاد البلغار من حول نهر الفولجا ؛ وقد شكل هؤلاء لفترات طويلة المصدر الرئيسي لجيوش المماليك في مصر وذاع صيتهم في العالم الإسلامي بعد حسن بلاءهم وانتصارهم على النتار والصليبين، وكانت في القاهرة أسواق متعددة لبيع الرقيق بنوعيه من الرقيق الأبيض أو الأسود؛ وكما كانت هناك أسواق البيع الرقيق من الذكور وأسواق لبيع الرقيق من الإناث؛ وقد وردت مواقع وأسماء متعددة لهذه الأسواق في المصادر التاريخية، فالمرقيق الأسود القادم عن طريق السودان كان يباع في مراكز تجميعيه الأولى بأسوان وأسيوط ؛ وكان المكان الذي يتجمع هؤلاء فيه يعرف باسم "الجلابة" وهي

وكالة ترد إليها القوافل لبيع الرقيق الأسود الذي تحمله ؛ وكان تجار هذا الصنف من الرقيق فإن ينزلون فيها بالقرب من مسجد قايتباي(١) .

كما كان في الفسطاط القديمة دار تسمى دار البركة أو بركة الرقيق ؟ وهي دار كان قد بناها عمرو بن العاص لتكون دار ضيافة للخليفة عمر بن الخطاب ينزل فيها عند قدومه إلى مصر ؛ وكان مكانها بجوار المسجد الجامع المعروف الآن باسم مسجد عمرو بن العاص ؛ ولكن الخليفة عمر بن الخطاب قام بتحويلها إلى دار وسوق لبيع الرقيق الوارد إلى مصر (٢) ، كما اشتهر فندق الحجر بالفسطاط أيضاً ببيع الرقيق الأسود (٣) .

أما الرقيق الأبيض بوجه عام والجواري البيض على وجه الخصوص فكانت أهم الأسواق لنخاستهم هي كانت وكالة كشك وخان جعفر بالجمالية ؛ بالإضافة الحي خان مسرور وموضعه عند باب الزهومة قرب الصاغة الحالية ؛ وكان هذا الخان يتضمن إلى جانب ساحة البيع والعرض غرفتان لإيواء الرقيق المعروض في السوق ؛ غرفة للذكور وغرفة للإناث(؛) ؛ كما أنشأ السلطان قنصوه الغوري في سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م سوق جديدة للرقيق بجوار خان الخليلي الحالية(٥) .

⁽١) نعيم ذكرى عطرق التجارة الدولية ومحطاتها بين المشرق و الغرب – القاهرة ، ١٩٧٣.

⁽٢) د. عبد العزيز محمود عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨٤.

⁽٣) نفس المرجع ،

⁽٤) د. على السيد محمود : الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب -سلسلة تاريخ المصريين - عدد ١٨ ،القاهرة ١٩٨٤.

⁽٥) نفس المرجع،

التاسع عشر بالقرب من باب الخلق(١) كما كان للمماليك من التتار سوق في الأسكندرية (٢) .

وكان يتم تعيين محتسب خاص لهذه الأسواق يكون مكانه على دكة عالية تشرف على سوق النخاسة ليراقب عمليات بيع وشراء الرقيق ؛ وكانت المهمة الأساسية لهذا المحتسب بجانب تحصيل الرسوم والضرائب على كل رأس رقيق يتم بيعها التأكد من تطبيق الضوابط الشرعية التي تحكم عملية بيع وشراء الرقيق وهي قواعد كان يتم تطبيقها لحماية الرقيق الإناث بصفة خاصة ؛ ومنها عدم التفريق بين جارية وولدها بالبيع ؛ وعدم السماح لأهل الذمة بشراء الجواري المسلمات (٣) .

كما كان هؤلاء المحتسبون يقومون بدور الرقابة على أعمال النخاسة والسمسرة التي تتم داخل السوق ؛ فكان من الإجراءات الواجب اتخاذها عند بيع وشراء أي رأس رقيق سواء كان ذكرا أو أنثى وبصرف النظر عن عمره التأكد من شخصية البائع باسمه وصفته ؛ وحتى قيام أحد المعروفين لدى المحتسب بضمان شخصية البائع في بعض الحالات ؛ ويتم تسجيل عمليات البيع هذه في دفتر خاص يشبه دفتر اليومية للسوق لضمان شرعية عملية البيع وحتى لا يكون الرقيق المباع حراً أو مسروقاً أو رقيقاً أبقاً على سبيل المثال ؛ ولكى يسهل إعادة التحرى حول اى عملية بيع أو شراء إذا تطلب الأمر ذلك(٤) .

ونظراً للمركز الإقتصادي والتجاري الذي أحرزته مصر في هذه الفترة وما تبع ذلك من إنتعاش الأسواق النخاسة في البلاد فقد ظهرت حالات عديدة لما يمكن

⁽١) أحمد امين : قاموس العادات والتقاليد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة- بدون تاريخ.

⁽٢) د.على إبر اهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية - القاهرة ١٩٦٧.

⁽٣) د. على السيد محمود : الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية - مرجع سابق .

⁽٤)د. عبد العزيز محمود عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى - مرجع سابق.

تسميته بالغش التجاري في بيع وشراء الرقيق كان يقوم بها التجار النخاسون وسماسرة الرقيق ؛ لذلك قام المعاصرون لهذه الفترة ممن اكتسبوا خبرة في هذا المجال بوضع كتب أو رسائل تشرح للراغبين في شراء الرقيق مزايا رقيق كل بلد ؛ كما توضح أساليب الغش والخداع التي يلجأ إليها التجار النخاسون وسماسرة الرقيق ؛ ومن هذه الرسائل " رسالة في آداب الحسبة " لابن عبدالله السقطي " ونزهة العمر في التفضيل بين البيض والسمر " للسيوطي ؛ و " معالم القربة في أحكام الحسبة " لابن الأخوة؛ و " كتاب تقضيل الأتراك على سائر الأجناد " لابن حسول ، وكتاب " النظر والتحقيق في تقليب الرقيق " لمحمد بن ساعد السنجاري الاكفاني توفي سنة ٤٤٧ هـ / ١٣٤٨ م وكتاب " القول السديد في اختيار الإماء والعبيد " لمظفر الدين محمود الحنفي الدنيابي .

ومن أشهر هذه الرسائل أيضاً رسالة الشيخ أبي الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون البغدادي المتطبب ؛ المعروف باسم ابن بطلان(۱) و هو طبيب مسيحي انتقل من العراق إلى مصر وعاش فيها ثلاث سنوات ما بين ٥٤٤ هـ و ٤٤٨ هـ ٤ وتوفى سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٦٣ م .

ويفضح ابن بطلان في هذه الرسالة أساليب التجار النخاسين في غش الرقيق كما يشرح للراغبين في شراء الرقيق من الذكور والإناث كيفية إنتقاء رقيقهم وإختبار صحة أعضائه قبل شرائه وتصنيف الرقيق حسب أجناسهم وما يصلحون له من أعمال ودلائل معرفة أخلاقهم باستخدام طرق القياس بالفراسة .

يقدم ابن بطلان رسالته للقراء فيقول: إنها رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد يعلم منها الراغب في هذا الشأن الأعضاء السليمة من

⁽۱) ابن بطالان: أبو الحسن المختار بن عبدون بن سعدون الطبيب البغدادي توفى حوالي ده ده ده در سالة جامعة لفنون ناقعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات - المجلد الول، القاهرة ١٩٥٤.

المؤوفة ؛ والأخلاق الطاهرة من الردية ؛ وأي الإماء يصلحن للخدمة وأيهن للمتعة ؛ وأى الأجناس عبيد طاعة وولاء، وأيهم ذوى أنفة وحمية ؛ وأيهم لا يصلحه إلا الكد والعصا ؛ فيختار من كل جنس ما يوافق غرضه وينال به اربه(۱) وعن الوظائف التي تصلح لها الإماء بحسب أجناسهن يقول ابن بطلان : "من أراد الجارية للذة فليتخذها بربرية، ومن أرادها خازنة وحافظة فورمية ؛ ومن أردها للولد ففارسية، ومن أرادها للرضاع فزنجية، ومن أرادها للغناء فمكية(*) ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة ؛ ومن أرادهم للكد والخدمة فالزنج والأرمن ؛ ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة"(٢)

ويقدم ابن بطلان نصائح أساسية للراغب في شراء الرقيق من أسواق النخاس " النصيحة الأول: ما أمر والبحث أن يكون عليه المستعرض عند التقليب للشرى قالوا: إن المستعرض لأمر ما يجب ألا يكون ذا فاقه إليه ؛ فإن الجائع يستجيد كل طعام يشبعه ؛ والعريان يستوفق كل طمر يدفئه ويستره ؛ وبحسب هذا قالوا: لا يستعرض جارية شبق ؛ لأنه يقطع باول نظرة ؛ وأول نظرة سحر "(٣) .

" الوصية الثانية: ما حذر منه القدماء قبل الشرى ؛ قالوا : كن على حذر من شرى الرقيق في المواسم ؛ ففي مثل هذه الأسواق يتم للنخاسين الحيل ؛ فكم من قطيفة(٤) بيعت بخصبة ؛ وسمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ؛ وممسوحة العجز

⁽١) ابن بطلان : رسالة جامعة في فنون نافعة - مرجع سابق.

^(*) يقصد الجارية المولودة في مكة .

 ⁽۲) ابن بطلان : رسالة جامعة في فنون نافعة - مرجع سابق.

⁽٣) نفس المرجع .

⁽٤) قليلة اللحم ،

بثقيلة الروادف ؛ وبطين بمجدول الحشا ؛ وأبخر الفم بطيب النكهة ؛ وكم من مريض بيع بصحيح ؛ وغلام بجارية ! هذا زائد ما يوصون به الجوارى من ذلمة ومجانة ".

ويوصى ابن بطلان الراغب في شراء الرقيق بأن يختبر الرقيق من ناحية النطق والسمع ؛ " الوصية الثالثة: ما نص عنه من القطع بأول سمع من المماليك والإماء ؛ قالوا : لا تقطع بأول لفظ من غلام أو جارية ؛ فربما جاءت بالاتفاق فوافقت منك قبو لا لا يكون وراءها أمثالها ".

ويورد بن بطلان نصائح خاصة فيما يتعلق بشراء الرقيق الذكور؛ "الأولى - ما حظر على المشترى من ابتياع مملوك قدم مرن على الضرب والخصومة قالوا: لا تشتري مملوكاً كان مولاه يكثر من ضربه ؛ ولا تترك المسألة عن مالك المملوك وعن سبب بيعه ؛ واستعلم عن ذلك قبل ابتياعه من المملوك وغيره الثانية - مأخوذة من جرأة المملوك على ذم مولاه وتنقصه له أو إمتعاضه من ذمه ؛ الثالثة - ما وصى به قبل استخدامه؛ قالوا: المملوك على ما يراه منك أول دخوله دارك ؛ فإن أطمعته طمع ؛ وإن هذبته انقمع، وإن خالطه مفسد من مماليك وغير هم فسد "

ويقدم ابن بطلان دليلاً لمشترى الرقيق فيما يتفقده من الرقيق الذي يرغب في شرائه عضواً عضواً ؛ ومقاييس الصحة والمرض كما تظهر من الحالة العامة للرقيق ؛ "ومنها ما يتفقد أجسام الرقيق بحسب كل واحد من الأعضاء على مذهب الأطباء ثمانية وثمانون فصلا؛ من ذلك ما يعم جميع البدن ثلاثة أشياء، تفصيلها: من اللون، ألا يكون مائلاً إلى الصفرة الدال على ضعف الكبد وغلبة الصفراء، أو إلى السواد الدال على ضعف الطحال، لكن إن كان أبيض فليكن مشرباً بحمرة، وإن كان أسمر فلتكن سمرته صافية؛ ومن البشرة بأن تكون

لينة نقية خالية من بهنق أو برص أو وشم أو كبى أو صبغ أو ثاليل(١) ، لا سيما إن كانت من عضة كلب ؛ فإنه ما يلبث أن يصرع ويصاب بداء الماء فيموت ؛ ومن تناسب الأعضاء بأن تكون بعضها مناسبة لبعض في الطول والقصر والعظم والصغر ؛ فإن طول الأعضاء مع غير مناسبة في العرض جيد في مباشرة الأعمال العظيمة ! مع ضعف القوة والقصر بالضد من ذلك".

ويبدأ ابن بطلان في سرد علامات الصحة والمرض التي تظهر على كل عضو من أعضاء جسد الرقيق مستفيداً في ذلك من خبرته كطبيب؛ "ومن ذلك ما يختص بكل واحد من الأعضاء ؛ ثلاثون فصلاً : منها (ما بختص بالرأس) وهي شكلها بأن لا تكون مسفطة ؛ ولا مشوهة، ولكن ان تكون ككرة شمع قد غمزت من جانبها، فصار لها نتوء من خلف وقدام؛ وشعره: بأن لا يكون خفيفاً أو متفرقاً، ولا به داء الثعلبة والحية؛ ولا بعضه أبيض مجتمع كالبلق في البهائم جلده: بأن لا يكون قحلاً ولا فيه سعفة (٢) أوبتور أو أثر جرح غائر يدل على عظم .

فضلاته البارزة: ومنه الا يكون كثير المخاص والبصاق، كثير النوم، كدر العين والحواس ؛ فإن ذلك من أسباب الصرع، لا سيما إن ارتعشت بعض أعضائه؛ وما يختص بالعين،: خمسة أشياء ؛وهي من حركاتها بأن لاتكون مضطربة وبخاصة إذا لم يكن الكلام منتظما ؛ وهذا يعرفه العارف بلغة المملوك ومن لونها بأن لا تكون بها زرقة في السواد لم تكن من قبل، لأتها من علامات الماء؛ ولا أن يكون بياضهما كدرا أو أصفر ؛ أو فيه عروق، فإنه من مقدمات السبل ؛ ومن شكلها بأن لا يكون شكل العين مستديراً، لا سيما إن كان الوجه

⁽١) ثأليل: أثر التهابات في الجلد.

⁽Y) الجلد القحل اليابس ، والسعف الجروح .

متفجرا (۱) فإن ذلك من علامات الجذام؛ ولا ان يكون شقباً الحدقة سوادهما متساويين، ولا أحدهما وكأنه مشقوق بالطول ؛ وهذا يعتبر بأن يغمض كل واحدة منهما ويرى أشكالاً مختلفة ؛ ومن المآقي بأن لا يكون في المآق ظفرة ولا لحم زائد ؛ ولا ناصور (۲) وعلامته أنك إذا عصرت المآق خرج منه مدة .

ومن الأجفان: بأن لا يكون شعرها منثراً ولا منقلباً ولا أن تكون الأجفان غليظة ؛ ما يختص بالشم والسمع: وهو شئ واحد، تنظرهما في الضوء لئلا يكون فيهما ؛ لحم زائد؛ وتعرض عليه الكلام والروائح بعد سد أحد ثقبيه ؛ ما يختص باللسان: وهو شئ واحد ؛ أن يستنطق لئلا تكون به لثغة، وهذا يكون من صغر اللسان أوعظمه ؛ أو سقوط جزء منه، أو لآفة في عصبه ؛ او لسقوط بعض أسنانه، أو لالتصاقه من الجبلة (٣) أو لأثر قرحة به ؛ فسل عن جميع ذلك فإن لم يكن فتسئ الظن به فربما كان قد عض لسانه لصرع به ؛ فبخره بقرن المعزى، وأطعمه كبد تيس مشوى، فإنه يصرع إن كان مصروعاً.

ما يختص بالأسنان: وهى إن لم تكن موجودة بعد الثغر فإنها لا تعود ؛ وإن عادت فانها تفقد ألوانها وصلابتها وسلاستها من الحفور واختبرها بصبرها على الحامض ؛ وإجتماعها أجود من تفرقها؛ وإن كان الشنب مذهباً محبوباً عند العرب.

ما يختص باللثة: شئ واحد، وهو أن لا تكون فيها قروح، واستنكهه كي لا يكون به بخر ؛ وهذا يكون من عفن اللثة، أو تأكل ضرس، أو بلغم عفن في المعدة ؛ ما يختص باللهاة: شئ واحد ؛ وهو أن لا تكون مسترخية ؛ فإن ذلك

⁽١) متفجرا: مشدود الجلد.

⁽٢) ناصور: حساسية العين للضوء والتي تجعلها تفرز الدموع بكثرة.

⁽٣) الجبلة: طبيعة الخلق منذ البداية.

يسبب إتصال السعال؛ ولا نازلة إلى أسفل فإنه يتبع ذلك الخناث(١) فتأمل ذلك في الضوء.

ما يختص بالنغانغ والأزبتين: شئ واحد؛ وهو ألا يكون فيها أثر خنازير ما يختص بالصدر: شئ واحد، وهو ألا يكون ضيقاً أو معوجاً أو قليل اللحم فإن ذلك يكون سبباً للرئة والسعال والنزلات؛ ولا سيما إن كانت الأكتاف مجنحة ما يختص باليدين: شئ واحد؛ وهو ألا تكون إذا قدرتهما وجدت إحداها أقصر من الأخرى، أو هما قصيرتان، فإن ذلك ردئ في الأعمال.

ما يختص بالسواعد: شئ واحد، وهو أن يكون ثنى المرافق سهلاً بلا إلتواء ولايكون بها ورم ولا تشنج من جرح أو عرق مدني(٢) واسبره بأن يقبض على يديك بقوة ما يخص الحشا: جميعه خمسة أشياء ؛ منها ما يعم الحشا جميعها شئ واحد، وهو ألا تكون غليظة جميعها أو بعضها ؛ وهذا بأن تأمره أن يستلقى على ظهره وتجس حشاه من فم المعدة إلى العانة، فإن رأيت غلظاً أو ألماً فاقضى به لاسيما إن وافق ذلك فساد لون، وتهيج في المحاجر، ويحقق ذلك إنقطاع نفسه عند إحضاره وصياحه ؛ ما يختص بواحد واحد من أعضائه أربعة أشياء ؛ تقصيل ذلك؛ المعدة : بأن لا تكون حاسية (٣) ؛ ولا بها سوء إستمراء من سوء مزاج حار أو بارد، ولا بها خلط داع إلى أكل الطين .

الكلى والمثانة: بأن لا يكون فيها قرحة أو حصاة أورخاوة، وهذا يتعين بأن يتبين في البول رملاً أو مدة، ويراعى في ليالا كثيرة فلا يبول في الفراش. ما يختص بالرجلين: أربعة أشياء منها ألا يكون بها عوج أو تشنج أو عرق نسا

⁽١) مرض يصيب الأذن ويسبب صعوبة في التنفس.

⁽٢) مرض يصيب الساقين ويسبب التهابات شديدة.

⁽٣) صلبة.

أو خلع ورك ؛ وإذا قدرتهما فلم تنقص إحداهما عن الآخرى؛ وما يحدص بواحد واحد من أجزائها؛ ثلاثة أشياء، تفصيل ذلك بأن لا يكون بها ورم صلب أو شوكة الساقان : أن لا يكون بهما تقوس أو خنق أو فجج(١) ، ولا في باطنهما دوالى ؛ القدم والكعب بأن لا يكون فيهما داء الفيل "

كما يشرح ابن بطلان عيوب أخرى تصيب الجهاز التناسلي عند الرقيق الذكر والأنثى؛ " الأنثنيين : بأن لا يكون فيهما دوالي ؛ والقضيب : بأن لا يكون ثقب الكرة معوجاً ؛ وهذا يتأمل عند البول ؛ ما يختص بالرحم : شيئان؛ وهما ما يختص بحرمه بألا يكون ما بين السرة والعانة غليظاً أو صلباً، فإن ذلك دليل سرطان، وما يختص بأيام الحيض لئلا يعرض لهن الغشى الشبيه بالسكتة فإن ذلك دليل إختناق الرحم الذي يتبعه موت الفجأة ".

كما ينصح ابن بطلان مشترى الرقيق بأن يتابع الرقيق حتى بعد شرائه ودخوله إلى بيته ؛ "ومن ذلك ما يتأمل في زمان النوم خمسة الأشياء شرحها : بأن لا يكون ممن يتبرز في الفراش، أو يهذي في نومه، أو يمشى على غير علم منه ؛ أو ممن يصر على أسنانه أو ينام على وجهه ".

وكان الناس في مصر حتى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر وقبل فترة قصيرة من إكتمال تحلل علاقات الرق في مصر يراقبون الرقيق الذي يشترونه من التجار النخاسين ؛ والذين كان يسميهم الناس في مصر الياسرجي أو الياسرجية بالنسبة للتجار والنخاسين المتخصصين في تجارة الرقيق الأبيض والجلابة بالنسبة للتجار النخاسين المتخصصين في الإتجار بالرقيق الأسود ؛ فقد جرت العادة أن يستبقى المشترون الرقيق الذي اشتروه من التجار النخاسين لعدة أيام في منازلهم لمراقبة أحوالهم الصحية وسلوكهم العام ونواحيهم الأخلاقية وطبانعهم ؛ وكان لا يتم تسديد قيمة الرقيق بالكامل قبل إنقضاء مدة الإختبار

⁽١) انساع كبير بين الساقين من أعلى.

وإلا أعيد الرقيق للنخاس واسترجع المشترى ثمنه ؛ كما كان أحد الإجراءات المعتادة لإختبار صحة الرقيق والإناث هي أن يتم غمر الجارية في حوض كبير به ماء لفترة ثم إخراج الجارية من الحوض ؛ وقياس مدى نقص الماء في الحوض ؛ وإذا نقص الماء فان ذلك يدل على صحة الجارية (١).

وفي بعض الحالات كان بعض الياسرجية يستغلون الجوارى اللاتي في حوزتهم في أعمال القوادة ؛ فيقومون بإرسال هؤلاء الجوارى إلى بعض فاسدي الأخلاق من الأثرياء وتركهن في حوزتهم لبعض أيام بدعوى عرضهن عليهم للبيع(٢).

كما يورد ابن بطلان في رسالته دلائل يتعرف منها مشترو الرقيق على أخلاق المرقيق المعروض للبيع في السوق وطبائعهم باستخدام ما يصفه بدليل الفراسة يقول ابن بطلان: "أن دلائل الوجه والعينين هما أقوى الدلائل وأصحها في معرفة الأخلاق باستخدام الفراسة "ثم يضيف ابن بطلان "ما يختص بأخلاق الذكور والإناث والخصيان ؛ فالأنثى من كل جنس أموت نفساً ؛ وأقل جلداً وأسهل إنخداعاً ؛ وأسرع غروراً وسكوناً ؛ وأشد مكراً ؛ وأصغر رأساً ؛ والطف وجها وأدق عنقاً ؛ وأضيق أكتافاً وصدراً ؛ وأعظم بطناً ووركاً ؛ وألطف كفاً وقدماً وأسوا أخلاقاً من الذكر في كل جنس؛ وأخلاق الخصيان مشابهة لأخلاق النساء وامن ولد بلاخصيتين أو كانت فيه صغيرتان كان أشر".

ثم يذكر ابن بطلان دلائل الشعر فيقول " اللين منه يدل على الحمق والخشن دليل شجاعة ؛ وكثرته على البطن دليل الشبق ؛ وكثرته على الصدر دليل شجاعة أيضاً ؛ كثرته على العنق والكتفين دليل حمق ؛ وكثرته على الصدر دليل قلة فطنة ؛ وقيام الشعر دليل جبن ".

⁽١) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد-مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع ،

ويقول ابن بطلان أن لون شعر الرقيق نفسه يمكن أن يعطي لمشترى الرقيق دلائل على أخلاق الرقيق الذي يرغب في شرائه "الأشقر والأحمر يدلان على الدم والحرارة؛ اللون النارى دليل تأن ؛ والأحمر دليل حياء ؛ اللون الذي بين البياض والحمرة يدل على الإعتدال ؛ والأخضر دليل سوء الخلق .

كما يعطي ابن بطلان دلائل أخرى يعرفها مشترى الرقيق من شكل عين الرقيق: "عظمهما دليل كسل ؛ وغورهما دهاء وحسد؛ جحوظهما دليل هذر وقحة ؛ زرقة إحداهما يدل على بلادة ؛ شدة سوادهما دليل جبن ؛ شبهما بعيون الأعنز دليل جهل ؛ وسرعة حركتهما بحدة لبصرهما دليل مكر وحيلة ؛ بطء حركتهما دليل مكر ؛ عظمها وارتعاءهما دليل كسل وشبق ؛ وحمرتهما دليل شر وإقدام ؛ سوادهما دليل كسل وبلادة ؛ الزرقة مع إصفرار دليل رداءة الأخلاق جدا فإن مالت إلى الصفرة كان صاحبها سفاكا البقرية(۱) تدل على الحمق ؛ النقط والسعب حول السواد يدل على هذر وحمق وشر ؛ صفرهما وجحوظهما دليل على الميل إلى الشهوات ؛ إذا برز السواد عن البياض دليل على حمق "

ويشرح ابن بطلان ما يقول عنه أنه دلائل الحاجب: "كثرة الشعر فيه دليل الهم ؛ طوله إلى نحو الصدغ دليل التيه والصلف ؛ طوله إلى نحو الأنف دليل على البله ".

وأما دلائل الأنف فيشرحها ابن بطلان: " .. دقة طرفه دليل محبة الخصومة فإن كان ذلك مع طول دل على حمق ؛ غلظه دليل على قلة الفهم ؛ الغطسة دليل شيق ؛ غلظ أرنبتيه دليل غضب

⁽١) يقصد العيون المتسعة.

"كما يتحدث عن دلائل الجبهة: "..المستطيلة التي لا غضون فيها دليل شغب وخصومة ؛ كثرة غضونها دليل صلف ؛ وكبرها دليل كسل؛ وصغرها دليل جهل.

ودلائل الظهر:".. عرضه يدل على القوة والغضب؛ إستواؤه علامة العقل إنحناؤه علامة رداءة الخلق؛ ويقول عن الكتفين: ".. العريض دليل جودة العقل و الدقيق ضده؛ ويشرح دلائل الذراع والكف: ".. إذا بلغ الكف منه الركبة دل على نبل النفس وحب الرياسة؛ وقصره بالضد؛ والكف اللينة دليل سرعة التعلم والفهم؛ والصد بالضد؛ والطويلة تدل على زعارة الخلق

ويشرح دلائل الساق والقدم والخطى: "القدم اللحيم الصلب دليل بلادة الخلق ؛ الصغير الخشن دليل فجور ومرح ؛ غلظة العقب دليل شدة وبالضد دليل حب النساء ؛ والخطى الواسعة البطيئة دليل تأن ؛ وضده بالضد "كما يشرح ابن بطلان دلائل الضحك : ".. كثرته دليل دماثة الخلق ؛ وقلة إهتمام بالأمور ؛ وبالضد ؛ وعلوه دليل قحة ؛ ومن عرض له عند الضحك سعال فهو وقاح ؛ والمبتسم مستحى "(١)

⁽١) ابن بطلان : رسالة جامعة لفنون في شرى الرقيق وتقليب العبيد ؛ مرجع سابق .

ويقدم ابن بطلان في رسالته دليلاً للمشترين ليتبعوه في إنتقاء ما يحتاجون له من رقيق من أسواق النخاسة ؛ التي كانت في ذلك الوقت مزدهرة في مصر تبعاً للغرض الذي يحتاج له المشترى الرقيق الذي يشتريه ؛ فيقول: "طبع الرجال على جميع الصنائع ؛ واختصت النساء بالغناء والغذاء ؛ فهن أطيب طبيضا منهم لتباتهن في العمل ؛ وأحسن غناء لأنهن مطبوعات على النغم.

ويشرح ابن بطلان دلائل مهارة الامة في الطهي: "عمدة الطبيخ على طيب المرق وجودة المزاج ؛ فإن اتفق للطباخة مع هذا على جودة الصنعة وسرعة العمل فذاك غاية الأمل ! وقل ما يتفق أن تكون كاملة في البوارد ؛ والشواء والطبيخ ؛ والحلواء ؛ على أصنافها الثلاثة ؛ فهذا ما يعجز عنده قدر النساء ؛ والذي يمتحنون به الاسفيداج(١)

وفيما يجيده العبيد من أعمال يقول ابن بطلان: "الخزان - يختار لحفظ الأموال الروم ؛ لأن السخاء ليس في لغتهن ؛ وإعتبار هن يكون بإمراجهن(٢) في مال معلوم الوزن وإهمال مراعاتهن ؛ والتصفح له من بعد بغتة ؛ ورجال الحرب والنجدة - يختار لذلك الترك والصقالبة ، لحرارة قلوبهم ، وإعتبارهم يكون بإيراد الأشياء المفزعة ؛ كإلقاء الحيات ؛ أو طرح الأشياء التي لها صوت عظيم من بين أيديهم .

وقد إشتهرت الإماء المجلوبات من بلاد النوبة منذ ذلك العصر بمهارتهن في تربية الأولاد ؛ وهو ما سنجد له أثر بعد ذلك في أسواق النخاسة في مصر حتى نهاية القرن التاسع عشر ؛ وفي ذلك يقول ابن بطلان ؛ " الحواضين والدايات

⁽١) نوع من الطعام كان معروفاً في زمن المؤلف و يصنع من البصل واللحم والحمص.

⁽٢) امر اجهن: اختبار هن.

يختار لتربية الأطفال النوبة لأنهن جنس فيه رحمة وحنين على الولدوليس يلقن الولد لغة بشعة .

ويختار للرضاع الطهر الصحيحة الجسم؛ الحديثة السن؛ المعتدلة المزاج المائلة إلى البياض المشرب حمرة؛ الصحيحة الولد واللبن؛ وإعتبار اللبن أن تقطر على ظفرك منه؛ فإذا صار كالعدسة لاغليظا مقبباً؛ ولا مائعاً سائلاً؛ وكان طيباً في رائحته؛ أبيض في لونه؛ كان جيداً؛ وبعض الأطباء إختار الزنج للرضاع؛ لأن حرارتهن البارزة نحو الأثداء منضجة للبن ؛ ولأنهن لغلظه أكثر غذاء(۱)

وكان قد اشتهر عن اليهود إشتغالهم بالنخاسة في بلدان الغرب الأوربي وحيث تخصيص هؤلاء التجار النخاسون من اليهود في توريد الخصيان البيض والجوارى السلافيات إلى أسواق النخاسة في مصر والأسواق التابعة لها في الشام والحجاز ؛ وكان ما يصل إلى مسامع الأهالي في بالا السلاف والتركستان ؛ وحول بحر قزوين ؛ عن المكانة التي وصل إليها المماليك في مصر ممن اشتراهم السلطان ليضمهم لجيشه ؛ وما سمعوه عن التروة الهائلة للناس العاديين في مصر ؛ مقارنة بالأوضاع الإقتصادية المتردية التي كان يعيش أهالي هذه البلاد ؛ بسبب ظروف عدم الإستقرار والضرائب الباهظة ؛ حافزاً لكثير من الأهالي على بيع أو لادهم وبناتهم للتجار النخاسين ممن إشتهروا بتصدير للرقيق إلى أسواق النخاسة في مصر ؛ على أمل أن يتم ضم أبنائهم لجيش سلطان الرقيق إلى أسواق النخاسة في مصر ؛ على أمل أن يتم ضم أبنائهم لجيش سلطان على بياعوا إلى أحد الأمراء أو

 ⁽۱) هكذا ورد في النص الاصلى ؛ ويقصد أن لبن المرضعات من الزنج أكثر فاندة للمولمود
 ابن بطلان : رسالة جامعة في فنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد – مرجع سابق.

الأثرياء في القاهرة ؛ أو حتى أن ينتقلوا لحياة أفضل لدى أسيادهم الجدد من المصريين العاديين(١) .

وقد إعتاد الفاطميون على جلب الأسرى لبيعهم في أسواق النخاسة في مصر فيروى المقريزى أن الأساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيراً من أسرى الحروب ؛ وكانت سفن الفاطميين ترسو في جهة المناخ بالقرب من مدينة الإسماعيلية الحالية ؛ حيث يتم حجز الأسرى من الرجال ؛ ويُحمل الأطفال والنساء إلى القاهرة ؛ التي بناها الفاطميون بعد مجيئهم للبلاد لتكون عاصمة لهم فينتقى منهن الوزير ما يشاء ؛ ثم تفرق باقي النساء على الجهات (٢) والأقارب ؛ ويدفع بالصغار إلى الأستاذين(٣) فيربوهم ؛ ويعلموهم الكتابة وباقي الفاطميين ؛ وحيث يخصص هؤلاء فقط لأعمال البلاط والخدمة في قصور الفاطميين ؛ ويمتع عليهم الإلتحاق بالجيش (٤)

كما أكثر سلاطين الدولة الأيوبية من إستجلاب الرقيق الأبيض إلى البلاد وكان معظم هؤلاء من شبه جزيرة القرم ؛ وبلاد القوقاز ؛ والقفجان ؛ وأسيا الصغرى ؛ وفارس ؛ والتركستان ؛ وبلاد ما وراء النهر .

وبعد النصر الكبير الذي حققه مماليك الملك الصالم نجم الدين أبيوب على الصليبين في معركة المنصورة يوم الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠م الموافق غذى القعدة سنة ١٤٠٨ه ؛ وإنقلابهم على توران شاه ابن سيدهم الأول؛ بسبب سوء معاملته لزوجة أبيه شجر الدر؛ وخشيتهم أن يبطش بهم بعد إستقراره في الحكم فقتله المماليك في المحرم عام ٣٤٨ه أبريل سنة ١٢٥٠م ؛ وإنتهت بذلك دولة

⁽١) د . على السيد : الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية - الهينة المصرية العامة للكتاب.

⁽٢) الجهات : لقب فاطمى يطلق على زوجات وحظايا الخليفة في الدولة الفاطمية .. المؤلف

⁽٣) الاستاذين : جمع استاذ ؛ وهو الرقيق الخصبي في القصر الفاطمي .

⁽٤) عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى المكتبة النهضة القاهرة١٩٨٤.

الأيوبين في مصر وبدأت دولة المماليك بتولية شيجر الدر أرملة الملك العالم نجم الدين أبيوب والتي كانت أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك(١) ومنذ ذلك الحين شهدت مصر في عصر سلاطين المماليك تدفق أعداد هائلة من الرقيق على البلاد ؛ و أزدهرت أسواق النخاسة في مصر بشكل لم يسبق له مثيل بعد أن قرر المماليك المنتصرون الإستمرار في إنتاج علاقات الإسترقاق التي عرفتها مؤسسة الرق في البلاد في هذه العصور وكانوا هم أنفسهم أول ضحاياه !

و بالاضافة إلى ذلك فقد كانت الحملات العسكرية؛ التى إعتاد أن يشنها سلاطين المماليك في مصر؛ ضد الإمارات الصليبية التى إحتفظ بها الصليبون في الرها وأنطاكية وبيت المقدس وعكا من بلاد الشام؛ مصدر لاينضب للحصول على الأسرى من النساء والأطفال؛ وتوريدهم كرقيق لأسواق النخاسة في مصدر وهى الحملات التى استمرت حتى سقوط آخر المعاقل الصليبية في عكا سنة وهى الحملات التى استمرت حتى سقوط آخر المعاقل الصليبية في عكا سنة وهى الحملات التى السلطان الأشرف خليل بن قلاون .

ومن الحملات العسكرية الشهيرة أيضاً؛ والتي وفرت لأسواق النخاسة في مصر أعداد كبيرة من الأسرى؛ الذين تم بيعهم كرقيق؛ الحملة التي شنها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ لتأديب ملك النوبة المسيحي الذي أغار في سنة ١٣٦ه على أسوان بصعيد مصر؛ ونهب ما فيها قبل أن يحرق المدينة على سكانها؛ ويذكر ابن إباس في بدائع الزهور: أن عساكر السلطان بيبوس قد غنمت بعد إنتصارهم على ملك بلاد النوبة التي كانت تدين بالمسيحية حتى ذلك الوقت " غنائم كثيرة من عبيد وجسوار وخيسول وغيرذلك " (٢)

⁽١) د.عبد العزيز عبد الدايم :الرق في مصر في العصور الوسطى ؛مرجع سابق .

⁽٢)نفس المرجع .

كما عمد سلاطين دولة المماليك الأولى ؛ التى إشتهرت باسم المماليك البحرية الى إستجلاب الرقيق من كافة بقاع الأرض ؛ ومن ذلك أن السلطان المنصور قلاون قد أرسل لتجار الرقيق "بأن من يحضر منهم مماليك وجوارى فله من ثمنهم ما يزيد على ما يريد "(۱) .

وكانت أسواق النخاسة في أسيا الصغرى وأوربا ؛ وبصفة خاصة ميناء كافا وتانا على البحر الأسود؛ مراكز رئيسية لتجميع الرقيق الأبيض بعد صيده أو شرائه من موطنه؛ قبل تصديره وشحنه إلى أسواق الرقيق في مصر لينتقى منهم سلاطين المماليك من يصلح للإنضمام للجيش من الرقيق الذكور ومن يباع لغرض الخدمات المنزلية ؛ فضلاً عن إنتقاء من تصلح من الجوارى لتنضم إلى قصور الحريم ؛ ثم يباع الفائض للناس العاديين في القاهرة .

كما يذكر لنا المقريزى فى خططه مثال آخر على الحملات العسكرية التى كان يشنها سلاطين المماليك على أعدائهم؛ وتعود جيوشهم بعدها وهى تحمل أعداد من الأسرى يتم تزويد أسوق النخاسة فى مصر بها ؛ فيذكر أن السلطان الأشرف برسباى ؛ فى سعيه للقضاء نهائيا على شوكة الصليبين ؛ إستولى على جزيرة قبرص سنة ٩٨٩ هـ؛ وهى الجزيرة التى تحصن بها الصليبيون بعد طردهم من أخر معاقلهم فى عكا؛ وبدأوا فى إتخاذها قاعدة لشن الغارات على الثغور المصرية وإمارات المماليك فى الشام ؛ ويضيف المقريزى أن جنود جيش السلطان الأشرف عادوا من حملتهم على قبرص ؛وفى حوزتهم ما يزيد عن الألف نفس من الرجال والنساء والصبيان ؛ وكذلك كانت بالد الأرمن فى آسيا الصغرى من المصادر الهامة للحصول على الرقيق الأبيض فى هذه الفترة وبصفة خاصة من الإناث ؛ فقد أرسل سلاطين المماليك منذ إنتصارهم على

⁽١) ابن الفرات تاريخ الدول والملوك.

الصليبين حملات عسكرية لا تنقطع للإنتقام من الأرمن ؛ الذين تحالفوا مع الصليبين منذ بداية الحملات الصليبية على العالم الإسلامى؛ ثم تحالفوا بعد ذلك مع جيوش المغول التي إجتاحت الأفطار الاسلامية في المشرق؛ وكانوا بالنسبة لهم بمثابة عناصر الإستطلاع المتقدمة داخل العالم الإسلامى؛ بفضل خبرتهم به وبدروبه.

وكان أسرى الأرمن مصدر جديد لأسواق النخاسة في مصر منذ عهد محمد السلطان الناصر بن قلاون او هم الرقيق الذي يقول عنهم المقريزي : إنهم بدخولهم إلى البلاد جاءوا معهم بكتير من الأمراض الإجتماعية في أحياء القاهرة(١) ويقول عنهم ابن بطلان في رسالته عن الرقيق التي سبق الإشارة إليها: أن الملاحة للأرمن لو لا ما خصوا به من وحاشة الأرجل؛ مع صحة بنية وشدة أسر وقوة ؛ والعقة فيهن قليلة؛ أو مفقودة ؛ والسرقة فيهن فاشية وفيهن غلاظة طبع ولفظ ؛ وليست النظافة في لغتهن ؛وهم عبيد كد وخدمة ؛ متى نهنهت العبد ساعة بدون شغل لم يدعه إلى خير؛ لا يصلحون إلاعلى العصا والمخافة ؛ وليس فيهم فضيلة إلا تحمل العناء والأعمال التقيلة الواحد منهم إذا رأيته كسلانا فذلك لعلة فيه؛ وليس من عجز قوة ؛فدونك والعصا ؛وكن مع ضربه وإنقياده لما تريد منه على حذر ؛ فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب نساؤهن لايصلحون لمتعه ؛ وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان؛ كما أن الزنج أشر السودان ؛ وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد وكثرة الفساد وغلظ الأكباد(٢)

كما عمد سلطين دولة المماليك الأولى؛ التي إشتهرت باسم المماليك البحرية إلى إستجلاب الرقيق من كافة بقاع الأرض ؛

⁽١) خطط المقريزي مجلد ٣ باب السلوك

⁽٢) ابن بطلان : رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد . مرجع سابق

وكانوا لا يبخلون بمال لشراء الرقيق من الذكور والإناث من كافة بقاع الارض ومن جميع الاجناس(١) .

وكان مبعوثو المماليك يذهبون إلى كل الأماكن التى يستطيعون الحصول منها على الرقيق ؛ وهم إن كانوا يفضلون شراء الرقيق من المناطق الإسلامية فى وسط أسيا ؛ إلا إنهم كانوا يلجئون أيضاً إلى جلب الرقيق وهم صغار فى السن من البلدان المسيحية ؛ ثم يعتنق هؤلاء الإسلام فى مصر .

ومن المناطق التي إشتهرت بجودة الرقيق الأبيض المجلوب منها بـ الد؛ الروم وبلاد خوارزم ؛ وحول بحر البلطيق ؛ وأورد الرحالة الألماني أرنولد هـ ارف في مذكراته عن رحلته : أنه تعرف في القاهرة على إثنين من المماليك أحدهما من مدينة بال : والثناني من مدينة دانزج ؛ أما الرحالة بيروت افور فقد فوجئ بأن مندوب السلطان الذي إستقبله في القاهرة مواطن له من قشتاله ؛ ومن مواليد اشبيليه . (٢)

كما كان تجار الرقيق من مصر يقومون بجلب الرقيق الأسود من بلاد التكرور ؛ وهي بلاد في وسط أفريقيا ؛ وكانت أشهر مدن هذه البلاد مدينة كومبي عاصمة إمبراطورية غانا ؛ في ذلك الوقت والتي إشتهرت كمركز رئيسي لتجميع وتصدير الرقيق الأسود ؛ وهو الرقيق الذي كان يتم جلبه بالإغارة على القبائل الوثنية التي تعيش على الحدود الجنوبية لمناطق السافانا ؛ وهي قبائل وثنية بالأساس إشتهرت عند العرب باسم قبائل اللملم أو الدمادم(٣).

⁽١) د. عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى ، مرجع سابق.

⁽٢)نفس المرجع ،

⁽٣) نفس المرجع،

وكان لإختلاف المناخ بين مصر والمناطق التى نشأ فيها هؤلاء ؛ بالإضافة اللي طول الرحلة بين هذه البلاد ومصر؛ سبباً في أن تهلك نسبة كبيرة من الرقيق الأسود المجلوب إلى البلاد في الطريق ؛ أو بعد دخوله للبلاد بفترة قصيرة .

وإعتاد كثير من اهل هذه البلاد على إصطياد الأطفال والنساء ؛ وبيعهن إلى التجار النخاسين القادمين من مصر ؛ وكانوا يغرون الأطفال بالحلوى والحبوب على أطراف القرى التي يقطنون بها لإستدراجهم ؛ ثم خطفهم وترحيلهم بعيداً عن قراهم الأصلية ؛ كما إعتاد الأهالي في هذه المناطق على خطف أبناء خصومهم وبيعهم إلى تجار الرقيق نكاية في أهلهم ؛ أو أن يقوم أحدهم ببيع أطفاله رغبة في الكسب (١)

و اشتهرت مدن وموانى آخرى كمراكز لتجميع الرقيق الأسود قبل ترحيله إلى أسواق مصر والشام والحجاز والأسواق الأخرى ؛ ومن هذه المدن زويلة ؛ على أول حدود السودان ؛ وبربرة ؛ ودارفور ؛ وشندى ؛ و إشتهر اهالى السودان الغربى والأوسط بصفة عامة بالعمل فى تجارة الرقيق الأسود مع أسواق النخاسة فى مصر وعبر البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية ؛ وكانت بلاد النوبة مصدر أ هاماً آخر من مصادر جلب الرقيق الأسود إلى أسواق النخاسة فى مصر وكانت هذه البلاد تستخدم الرقيق كوسيط للتبادل بدلاً عن العملة النقدية لعدم معرفتها به .

وإشتهرت مدينة أو غشت ؛ التي تقع في الغرب الأقصى بين صحراء المثونة والسنغال مصدراً هاما من مصادر توريد الجوارى السود اللاتي يصلحن للتسرى ويصف الحميدي في الروض العطار الإماء المجلوبات من هذه المدينة بانهن "رشيقات القد لطاف الخصور ، ضخام الأرداف ، واسعات الأكتاف ، ضيقات

⁽١) د. عبد العزيز عبد الدايم ، الرق في مصر في العصور الوسطى .

الفروج ؛ المستمتع بأحدهن كأنه يستمتع ببكر أبدا ، من غير أن ينكسر الإحداهن تدى طوال العمر ".(١)

وكان يتم تجميع الرقيق الأسود المعد للتصدير إلى مصر فى مدن وسط وغرب السودان ؛ قبل أن يتم شحنه فى قوافل عبر دروب الصحراء الفاصلة بين مصر والسودان .

وكان يتم تجميع هذا الرقيق وشحنه من خلال قافلتى رقيق رئيسيتين اشتهرتا بأنهما يحملان كل عام ما يطلبه التجار النخاسون فى مصدر من الإماء والعبيد السود: القافلة الأولى هى قافلة سنار؛ وكان الجلابين القائمين على إعدادها يدفعون ٢ زر محبوب؛ وهى عملة مملوكية كانت موجودة حتى قدوم الفرنسيين للى مصر؛ كرسوم جمركية عن كل رأس رقيق عند وصولهم إلى مدينة إسنا جنوب مصر؛ ثم يدفعون ٢٠ مدينى؛ وهى عملة أقل من الزر المحبوب الواحد عن كل رأس رقيق عند وصولهم إلى مدينة منفلوط؛ و ١٢ مدينى عن كل رأس رقيق عند وصولهم إلى مدينة منفلوط؛ و ١٢ مدينى عن كل رأس رقيق عند وصولهم إلى مدينة المنيا؛ ثم يدفعون ١٠ مدينى أخرى على كل رأس رقيق عند وصولهم إلى بولاق ؛وهمى المحطة الأخيرة لهم قبل ان يقوموا بتوريد الرقيق وصولهم إلى بولاق ؛وهمى المحطة الأخيرة لهم قبل ان يقوموا بتوريد الرقيق الأسود الذي بحوذتهم إلى النخاسين في أسواق مصر .

والقافلة الثانية التى كانت تقوم بجلب الرقيق الأسود إلى أسواق النخاسة فى مصر هى قافلة دارفور؛ ويورد أحد علماء الحملة الفرنسية الذين قاموا بكتابة كتاب وصف مصر ملاحظاته حول قافلة دارفور فيقول: " فى أثناء إقامتى فى مدينة اسيوط عام ١٧٩٩ مرت بالمدينة قافلة دارفور: وقد حصلت من تجارها على المعلومات التالية: تجلب القافلة القرب المصنوعة من جلد الجمال؛ وبعض جلود النمور والصمغ؛ ولكن تجارتها الرئيسية تتمثل العبيد السود؛ وهؤلاء هم الأطفال الذين أختطف بعضهم من قرى مملكة دارفور عن طريق أناس يحترفون

⁽١) نقلاً من د. عبد السلام الترمانيني: الرق ماضيه وحاضره ؛ مرجع سابق.

هذا النوع من الإختطاف ؛ والأطفال الأخرون ينتمون إلى آسرى الحرب الذين أصبحوا عبيداً ؛ ويباع الطفل من هؤلاء بالقاهرة بما يتراوح بين ٣٠ إلى ٠٠ قرشا اسبانياً ؛ وفي بعض الأحيان يتم إختطاف أسر بأكملها ويستحوذ ملك دارفور على نسبة من هؤلاء ورئيس الشرطة على نسبة أخرى والباقى يباع في أسواق النخاسة .

والرجال البالغون من هؤلاء الذين أصبحوا عبيداً يتم بيعهم فى دارفور لأعمال الخدمات المنزلية ؛ وقبل عام ١٨٠٠ جاء ملك دارفور للقاهرة وفى صحبته ١١١٥ رجل من الرقيق الأسود ؛ وتبعا لما يذكره الجلابة فإن الناس فى دارفور لا يستخدمون النقود ؛ بل ان التعامل التجارى يتم من خلال العبيد الذين يتم إستخدامهم كوسيط للتبادل ؛ ويقدر العبد عادة بأربع أو خمس قطع من قماش الكتان المصنوع فى أسبوط أو المحلة ؛ وعند دخول هؤلاء الرقيق إلى مصر فإن جملة كل ما يتم تحصيله عليهم من رسوم تبلغ ؛ زر محبوب على كل رأس وكان يصل متوسط سعر الرأس الواحدة من الرقيق الأسود يصل عند بيعه فى هذه الأسواق ٢٠ زر محبوب(١).

وتورد قافلة دارفور سنويا إلى أسواق النخاسة فى مصر ما يتراوح بين دالاف إلى ٦ ألاف من الرقيق الأسود بين ذكور وإناث؛ و تبلغ نسبة الأطفال والإناث بينهم اربعة اخماس حجم القافلة؛ ويتراوح عمر هؤلاء ما بين ما عوام إلى ٣٠ عام فى الغالب؛ ويبلغ ثمن العبد من هذه القافلة عند بيعه فى أسواق النخاسة فى مصر ٣٥ زر محبوب؛ بينما يبلغ سعر الخصيان منهم والذى يتم خصى بعضهم فى أبى تيج على يد الحلاقين والرهبان ضعفى أو ثلاثة أضعاف هذا المبلغ(٢).

⁽١) علماء الحملة الفرنسية كتاب وصف مصر ج.١ ترجمة أمين الشايب وزهير الشايب.

⁽٢) نفس المرجع .

وقد إهتم الرحالة الأوربين الذين زاروا المنطقة بتقديم وصف حي لقوافل الرقيق وهي تحمل سلعتها الحيوية في رحلتها من بلاد السودان الأوسط والغربي وحتى دخولها إلى مصر عبر دروب الصحراء التي تربط بين البلدين ؛ فكرمب يقدم وصفا لقافلة الرقيق التي تأخذ طريقها عبر صحراء بيوض إلى مصر فيقول: بدأ المشوار خلال شهر أغسطس ١٧٠٢؛ حيث يساق الرقيق موثقا ؛ ومصفدا بسلاسل ثقيلة ؛ وهم يسيرون خلف الجمال تشدهم إليها طوال الرحلة سلاسل أو حبال ؛ ويساق آخرون ورقابهم موثقة إلى عمدان خشبية طول الواحدة منها عشرة أقدام تقريبا وسمكه في حجم الساعد ؛ وتلتف رقائق سيور من جلد الجمال حول العنق توثقه للعمود ؛ فتحول دون إفلات الراس من الوثاق ؛ وتوثق اليدان إلى العمود بحلقة حديدية ؛ ويوصل العمود بالجمل بسلاسل فيضطر التعساء للسير خلف الجمال وهي تعلو التلال وتهبط الوديان عبر الأجام والغابات والشوك والأعشاب ؛ إن أسرعت خطاها أو أبطأت ؛ توقفت أم واصلت سيرها ؛ يتبعونها حفاة حاسرة رؤسهم ؛ لا تغطى أجسامهم سوى خرقة تستر العورة بالكاد في هجير الشمس اللاهبة ؛ وخطر الموت عطشا وجوعا ؛ أما في الليل فيشد وثاقهم دون رحمة ؛ وإذا ما أصيب الرقيق بمرض في الطريق ؛ فإنهم يلقونه موثقًا به على ظهر الجمل كما يحمل القصاب لحم العجل الذبيح على سرج زاملته ؛ وإذا تدهورت حالته تركوه في الصحراء بين الحياة والموت !(١)

وكان تجار الرقيق والنخاسون القائمون على أمر القوافل التي تنقل الرقيق بين السودان ومصر ينتقون الإماء الصالحات للتسرى ؛ ليدفعوا بهن للعمل في الدعارة لخدمة القوافل العاملة على الخطوط التجارية بين البلدين ؛ واتسع هذا النشاط في عهر الاماء مع إتساع خطوط التجارة بين البلدين وإزدهارها ؛ ولم يقتصر هذا

⁽١) نقلاعن محمد ابر اهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني ، مرجع سابق.

النشاط على التجار النخاسين فقط ؛ بل إمتد ليشمل اثرياء النجار الاخرين ؛ وحتى النبالاء بعد تعاظم أرباح تجار الرقيق من وراء هذا النشاط .

وكان للإماء العاملات في مجال تقديم الخدمات الجنسية لقوافل التجار نصيب مما يحصله التجار من وراء نشاطهن ؛ وكن يقمن بإنفاق نصيبهن بصفة أساسية على شراء الملابس والعطور والحلى لأنفسهن كاحد متطلبات ترويج هذا النشاط (۱) .

وبالإضافة إلى المصادر السابقة للرقيق الأبيض والأسود التى كانت ترد إلى أسواق النخاسة فى مصر ؛ كانت الصراعات والحروب المستمرة ببين ملوك ورؤساء عشائر التتار المتناحرة بعد إنحسارها أمام جيوش المماليك فى عين جالوت ؛ وإندحارهم نحو الشرق ؛ مصدراً هاماً للرقيق النترى ؛ وكان يصل إلى الإسكندرية ؛ والتى كان بها سوق نخاسة خاصة بالرقيق التترى ؛ أعداد كبيرة من الأطفال والنساء ؛ ممن أسرهم فى هذه الحروب وبيعهم كسبايا فى أسواق الرقيق(٢) .

وعند قدوم نابليون إلى مصر على رأس حملته التاريخية ؛ والتى كان يعلق عليها أمال غير مسبوقة فى أن يبنى لنفسه ولفرنسا إمبراطورية فى الشرق تتحكم فى طرق التجارة إلى الهند ؛ وتسود العالم القديم والذى كانت بالاه تتنافس مع بريطانيا العظمى ؛ فى ذلك الوقت ؛ على زعامته ؛ وجعل مصر مركزا لتجميع المهاجرين من أفريقيا والجزيرة العربية وسوريا ولبنان واليونان وفرنسا وإيطاليا وبولندا وألمانيا وباقى الدول الأوربية ؛ لتحويل البلاد إلى الحضارة الأوربية ذات الخلفية الثقافية المسيحية ؛ ونشر هذه الحضارة عبر سنار والحبشة

⁽١) أ . د فاطمة بابكر : دور المرأة واستغلالها في نشأة الدولة ونشأة الرأسمالية في السودان بحث منشور في مجلة جمعية تضامن المرأة العربية : العدد الاول ؛ القاهرة ١٩٨٦.

⁽٢) د.عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى: مرجع سابق.

ودارفور وفزان إلى كل أرجاء أفريقيا(١) . وقد عرج نابليون وهو في طريقه إلى مصر على جزيرة مالطة ؛ حيث فتحها وإتخذ بها قاعدة لأسطوله ؛ بعد أن أصدر أو امره بإلغاء الرق في الجزيرة ؛ وتحرير الأرقاء الموجودين بها ومن بينهم ٢٠٠ من الرقيق الاتراك ؛ و ١٣٠٠ من الرقيق المغاربة المسلمون ثم طلب نابليون من القناصل الفرنسيين في تونس وطرابلس والجزائر أن يحيطوا الولاة في هذه البلدان التي كانت تتبع حتى ذلك الحين دولة الخلافة العثمانية ؛ بالإجراءات التي إتخذتها فرنسا لإبطال الرق في الجزيرة ؛ والتي كانت وثيقة الصلة بهذا الجزء من العالم العربي المطل على جنوب البحر المتوسط ؛ وأن يدعوهم إلى إتخاذ إجراءات مماثلة في بلدائهم ؛ من بينها على الأقل تحرير الأرقاء المالطيين ممن في حوذة مواطنيهم .

وكان نابليون قد قام بهذه الإجراءات تحت تأثير الأفكار التقدمية التحررية للثورة الفرنسية ؛ والتي إتخذت لنفسها شعارات تتحدث عن الحرية والإخاء والمساواة لكل البشر منذ قيامها قبل سنوات قليلة من هذا التاريخ ؛ ورافق بعض هؤ لاء العبيد المعتوقين سفن الحملة الفرنسية في طريقها إلى مصر ؛ والتحق بعضمهم بالفعل بالعمل بالأسطول الفرنسي الذي كان يقوده نابليون بنفسه ؛ ونزل البعض الآخر إلى المدن المصرية حيث ذابوا بسرعة وسط الأهالي ؛ وكان من هؤ لاء أحد المالطيين الذي إستطاع أن ينشئ في القاهرة مقهى قريبة من النمط المالطي الأوربي وتختلف قليلاً عن الحوانيت المشابهة ؛ التي كانت منتشرة في القاهرة وتقدم المشروبات والنارجيلة إلى روادها ؛ وكان هذا المقهى في حقيقة الأمر أقرب إلى الملهى ؛ ويصف الجبرتي العبد المالطي المعتوق ومقهاه بأنه : "جمع الناس للجلوس فيها ؛ والسهر حصة من الليل فاستأنسوا بالإجتماعات

⁽۱) ج. كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر ؛ ترجمة فؤاد اندرواس ؛ مراجعة د. محمد احمد أنس ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

والتسلى والخلافات ؛ وعم ذلك جهات تلك الخطة؛ ووافق ذلك هوى العامة ؛ لأن أكثر هم مطبوع على المجون والخلاعة ؛ وتلك هى طبيعة الفرنساوية ؛ فصاروا يجتمعوا عنده للسمر والحديث واللعب والممازحة ؛ ويحضر معهم ذلك الضابط الفرنساى ومعه زوجته .. (١)

ولم يكن الضابط الفرنسى الذى يشير إليه الجبرتى فى تاريخه هو الوحيد الذى إتخذ زوجة مصرية ؛ فقد درج على ذلك أعداد كبيرة من الجنود والضباط الفرنسيين بعد أن أشهروا إسلامهم ؛ كما لجأ فرنسيون أخرون ؛ ممن لم يكن لهم خليلات من نحو ٣٠٠ امرأة فرنسية ؛ رافقن سفن الأسطول الفرنسى فى رحلته للإستيلاء على مصر إلى التسرى بأعداد غير قليلة من الجوارى الأرمنيات والكرجيات ؛ اللائى قام الفرنسيون أنفسهم بسبيهن من حريم أمراء المماليك الذين فروا من وجه الجيش الفرنسى إلى الصعيد وأطراف الصحراء ؛ كما إعتادت الإماء السود ممن يلاقين سوء المعاملة من أسيادهم فى القاهرة ؛ على الهروب إلى ثكنات الجيش الفرنسى وفى ذلك يقول الجبرتى فى تاريخه : " وأما الجوارى السود فإتهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أقواجاً فرادى وأزواجاً ؛ فنططن الحيطان ؛ وتسلقن إليهم من الطبقان ؛ ودلوهم على مخبأت أسيادهم وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك (٢) .

وعلى الرغم من الإجراءات التى سبق لنابليون إتخاذها فيما يتعلق بمناهضة الرق؛ وتحرير الأرقاء فى جزيرة مالطة قبل نزوله إلى شواطئ مصر؛ وإظهار السلطات الفرنسية الجديدة فى البلاد لمزيد من التسامح تجاه الأرقاء الأبقين من أسيادهم؛ فإن نابليون قد إضطر لتغيير خططه فى هذا الصدد بالكامل تحت ضغط الباب العالى عليه؛ وإعلانه الجهاد ضد " الكفار الفرنساوية "؛ مما أفقده

⁽١) تاريخ الجبرتي .

⁽۲) نفس المرجع

المماليك العصاة الخارجين عن طاعة خليفة المسلمين العثماني ؛ بالإضافة إلى أن وطاعة المماليك العصاة الخارجين عن طاعة خليفة المسلمين العثماني ؛ بالإضافة إلى أن وباء الطاعون فتك بأعداد كبيرة من قواته ؛ مما الجأه؛ بعد أن فشل في تعويض النقص الذي أصاب قواته المحاربة بضم بحارة أسطوله إلى هذه القوات ؛ إلى أن يقوم هو نفسه بإنتاج علاقات الإسترقاق من جديد داخل مصر ؛ وبأن استعار نفس أسلوب أعداؤه المماليك ؛ الذين أخذوا على أنفسهم حتى بعد هزيمة قواتهم النظامية ضد القوات الفرنسية ؛ أن يلحقوا بالفرنسيين الهزيمة بإستخدام حرب العصابات؛ التي نجحوا في شنها ضد القوات الفرنسية في طول البلاد وعرضها بالتعاون مع الأهالي والعربان .

وفي خطوة عبرت عن الوله الشديد الذي أصاب نابليون وباقى ضباط الحملة الفرنسية بجو الحياة الأسطورية في الشرق ؛ بعد ما قرأوه وسمعوه ؛ شم شاهدوه بأنفسهم عند نزولهم إلى المدن المصرية ؛ نجد نابليون بعد عودته من سوريا حيث فقد كثيراً من جنوده في حصار عكا الفاشل ؛ يبدأ في اتخاذ إجراءات لتكوين فرقة مسلحة كاملة من العبيد على غزار فرق أعدائه المماليك ؛ فيكتب في يونيومن عام ١٧٧٩ للجنرال ديزيه ؛ أحد الضباط الكبار في حملته أمراً جاء فيه من تزيد ... أود أيها المواطن الجنرال أن أشترى ٢٠٠٠- ٣٠٠٠ عبد زنجي ممن تزيد أعمارهم على السادسة عشر (١) .

"ثم يكتب نابليون بعد أيام قليلة رسالة بنفس المعنى إلى سلطان دارفور؛ وهي السلطنة التي إشتهرت بأنها مورد رئيسي للرقيق الأسود المجلوب إلى مصروالذي كان سلطانها يرغب في نفس الوقت في التعاون مع الفرنسيين في القاهرة للقضاء تماما على ما تبقى من القوة العسكرية للمماليك في مصر ؛ والذيبن سبق

⁽۱) ج. كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر؛ ترجمة فؤاد اندرواس امراجعة د. محمد احمد أنيس . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

وكان هذا المشروع ؛ والذي لم يقدر لمه أن يخرج للنور بسبب الضربات القاصمة التي تلقتها القوات الفرنسية من فلول المماليك والعربان والمقاومة المسلحة للأهالي في مصر ؛ مشروعا طموحا جدا وكان جديرا به ؛ لو تم نتفيذه أن يغير مجرى التاريخ في الشرق وفي العالم بأسره ؛ فالجيش الذي فكر في إنشائه نابليون وديزيه معاكان يختلف تماما عن جيوش المستعمرات التي أسسها بعد ذلك الإنجليز والفرنسيون وغيرهما من القوى الإستعمارية في القرنين التاسع عشر والعشرين ؛ فقد خطط نابليون وديزيه لأن يكون هذا الجيش بمثابة قوات أممية يقاتل فيها الفرنسيون والزنوج والعرب معا ؛ ويتم ترقيتهم سويا على قدم المساواة ؛ وقد أعاد نابليون شرح هذه الفكرة بإستفاضة بعد عودته إلى فرنسا حيث رأى أن يتم إيفاد مندوبين فرنسيين إلى سنار ودارفور والحبشة لشراء عشرة ألاف عبد أسود صغير؛ وشحنهم إلى فرنسا ؛ وحيث يتم إدماج هؤلاء بعد تدريبهم فورا في المجيش الفرنسي بمتوسط ٢٠ من العبيد السود ؛ الذين تم إعدادهم ليكونوا مقاتلين على النمط الفرنسي ؛ لكل كتيبة من القوات الفرنسية المقاتلة ؛ ودمج الباقين في فرق إحتياطية تعمل تحت قيادة ضباط فرنسيين وهي نفس خطة نابليون التي كان ينوي تنفيذها في مصر ؛ بإدماج ١٠٠ مقاتل من العبيد السود في كل أورطة من القوات الفرنسية الموجودة في مصر ولكن بعد تطويرها ١٠٠٠)

وفيما يتعلق بالمصادر الأخرى للرقيق الذى كان يباع فى أسواق النخاسة فى مصر ؛ فعلى رغم من أن المصادر التاريخية كانت نادراً ما تشير إلى أن طائفة من سكان البلاد قد تم إسترقاقها أو بيعها فى أسواق النخاسة ؛ سواء كان ذلك بسبب نزاعات أو حروب أهلية بين السلطة القائمة فى البلاد وعشائر أخرى؛ أو حتى بين العشائر والقبائل المختلفة وبعضها البعض داخل حدود مصر ؛ إلا إنه

⁽١) ج.كريستوفر هيرولد : بونابرت في مصر ؛ ترجمة فؤاد اندرواس مرجع سابق .

ظهرت حالات كانت فيها مثل هذه النزاعات مصدرا للرقيق الذي يتم بيعه في أسواق النخاسة في مصر افقد حدث أن أرسل السلطان المؤيد شيخ و هو أحد سلاطين المماليك وله مسجد ضخم يحمل اسمه للأن بجوار باب زويلة؛ أن أرسل احد أمراء جيشه المعروف عنهم شدة البطش ؛ وهو الأمير فخر الدين ابن أبي الفرج ؛ للقضاء على الفتن وحالات التمرد التي إعتاد البدو على إثارتها في صعيد مصر ؛ فقام الأمير فخر الدين بعد هزيمة العربان بنهب أموالهم والإستيلاء على رقيقهم ثم باع حرائر هؤلاء الأعراب في أسواق النخاسة في القاهرة ؛ وقد أورد إبن تغري بردي هذه الحادثة ضمن تأريخه لحوادث سنة ٧١٨ هـ ؛ وأوردها المقريزي في خططه ضمن حوادث سنة ٥٢٨ هـ ؛ وكذلك نقل لنا ابس إياس في حوادث سنة ١٨٩هه ؛ أن الأمير أ قبردي المدوادار ؛ وهو أحد قواد السلطان الأشرف قايتباي ؛ إنتصر على أحد قبائل العرب الأحامدة في صعيد مصر ؛ فقتل منهم ما لايحصى؛ وأسر أبناءهم ونساءهم؛" وبعث بهن إلى أسواق النخاسة بالقاهرة حيث تم بيعهن كما يباع الرقيق من الزنج(۱) .

وحاولت بعض المصادر التاريخية بعدذلك تقديم مبرر شرعى لهذه الممارسات بأن سلاطين المماليك كانوا يعتبرون قبائل البدو القاطنين بصعيد مصر خارجين عن الإسلام؛ لأنهم كانوا يعاشرون النساء بدون زواج شرعى؛ وأيضاً يقسوم المتزوجون منهم بتبادل الزوجات؛ أو حتى التنازل عنهم فيما بينهم ؛ كما كانوا يمنعون توريث البنات ؛ واشتهر عنهم أيضاً أنهم يبيحون الإمائهم أن يزنين مع عبيدهم بهدف الإستحواذ على النسل وضمه إلى رقيقهم ؛ لذلك فلم يكن سلاطين وأمراء المماليك ينظرون إلى نساء البدو اللاتى تم أسرهن أكثر من مجرد نساء كافرات أو زناة أو حتى جوارى في أحسن الأحوال (٢)

⁽١) ابن ايلس : بدانع الزهور في وقانع الدهور ؛ ج٣ . مرجع سابق.

⁽٢) عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى ؛ مرجع سابق.

وبعد رحيل الفرنسيين ؛ فإنه على الرغم من أن طموحات الوالي محمد على والتي دفعت به إلى مغامرات عسكرية خارج حدود البلاد؛ حتى أنه جهز حملات عسكرية حاربت في المورة واليونان؛ وهي الحمالت التي عادت بأعداد من الأسرى تم بيعهم كرقيق في أسواق النخاسة في مصر إلا أن ظروف الصراع الذي دخله محمد على؛ وحكام مصر الخديوية بعد ذلك مع الخلفاء المهديين في الجنوب ؛ أثرت بشكل كبير على موارد أسواق النخاسة في مصر من الرقيق الأسود ؛ حيث عمد الخلفاء المهديون إلى منع وصول هذا الصنف من الرقيق إلى مصر لحرمان محمد على من ضمهم إلى جيشه ؛ أوحتى إستخدامه في أعمال المجهود الحربي ضد المهديين ؛ فقد أدرك الخليفة عبد الله المهدى أن الرقيق الأسود والذي يصل إلى مصر عبر السودان؛ يمثل سلعة إستراتيجية بالنسبة للمصريين في الشمال ؛ فيصدر الخليفة عبد الله أمره إلى قائده الميداني ولمد النجومي؛ الذي كان يستعد في ذلك الوقت للقيام بحملة عسكرية في إتجاه الحدود المصرية في الشمال بالإستيلاء على كل ما يصادفه من رقيق وإرساله نحو الجنوب كما يرسل الخليفة أمرا مماثلا إلى عامليه كرقساوى وكرم الله الشيخ محمد بمنع تداول الرقيق الذكور نهائيا ؛ نظرا لما يصفه بـ " إمتداد عين الكفرة عليه لا سيما في العبيد الذكور"(١) .

ثم يحرر الخليفة أمرا إلى أمرائه أب قرجة في طريق سواكن على البحر الأحمر ومحمد الخير في منطقة بريد على ضفاف النيل وعبد الرحمن النجومي الذي كان قد تمركز بقواته في دنقلا في الشمال على مقربة من الحدود المصرية وعثمان أدم في مناطق دارفور وبحر الغزال وهي أكبر مناطق تجميع وتصدير الرقيق الأسود إلى أسواق النخاسة في مصر والشام والحجاز تاريخياً بمنع بيع الرقيق الذكور نهائيا والإستيلاء على العبيد المعروضين للبيع وإرسال ما يفيض

⁽١) محمد ابر اهيم نقد:علاقات الرق في المجتع السوداني امرجع سابق.

من حاجتهم إلى بيت المال وهي الخطوات التي سبقت إصدار الخليفة المهدى أو امره بوضع جميع عمليات الإتجار في الرقيق تحت إشراف بيت المال في أم درمان وعدم الإعتراف بأى وثيقة بيع للرقيق لاتحمل تصديق بيت المال على شرعيتها وحيث شملت هذه الإجراءات بعد ذلك منع بيع الرقيق الذكور نهائيا ومنع بيع الإناث إلا من خلال بيت مال المهديين (٢)

وفى نفس هذه الحقبة تقريباً عمد حكام مصر الخديوية إلى الإستفادة من الحاح الرأى العام فى البلدان الأوربية لإبطال تجارة الرقيق فى إرسال حملات عسكرية نحو الجنوب لفرض السلطة المصرية على مناطق السودان وضمها إلى ممتلكات الخديوى فى مصر؛ وحيث إستفاد كل من عباس الأول وسعيد والخديوى إسماعيل من قضية مكافحة الرق؛ فى تأمين دعم الدول الأوربية للحملات العسكرية المصرية التى إستهدفت إعادة فتح السودان وحتى بعد وقوع مصر تحت الإحتلال البريطاني فى عهد الخديوى توفيق فإن المخابرات العسكرية البريطانية بالقاهرة كانت حريصة على رصد سلوك الخلفاء المهديين فيما يتعلق بتنظيم الإتجار فى الرقيق الأسود؛ وقد ذكرت فى تقاريرها أن قرار الخليفة بمنع الإتجار فى الرقيق الذكور قد أدى إلى إتساع التجارة فى الإناث؛ وحيث كان يتم عرض ما الرقيق الذكور قد أدى إلى إتساع التجارة فى الإناث؛ وحيث كان يتم عرض ما يقرب من ٢٠ أمة للبيع يومياً فى سوق النخاسة الرئيسى بأم درمان.

كما تقرر نفس النقارير إنه بعد إستيلاء كرقساوى على إقليم بحر الغزال فى سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م فإن أعداد العبيد والأسرى الأخرين الذين تم سبيهم وبيعهم كرقيق للتجار النخاسين قد أدى إلى هبوط الأسعار بشكل واضح ؛ حيث رست صفقة بيع ٢٠٠٠رأس من العبيد الذكور بالمزاد على تاجر يدعى محمد صالح الجعفرى ؛ وكان جملة ما دفعه ثمن نقل هذا العدد من العبيد ٢٥ ريال مجيدى فقط للرأس ؛ والريال المجيدى كان يساوى فى ذلك الوقت ٢٠قرشاً

⁽٢) نفس المرجع،

مصریا! علی الرغم من أن سعر رقبق العمل كبیر السن الواحد كان يتراوح قبل ذلك بین ٥٠-٨٠ ریال مجیدی لر أس الرقیق الواحد (١)

أسعار الرقيق في مصر

على الرغم من صعوبة وضع معيار واحد لأسعار الرقيق في مصر يمكن من خلاله ضبط هذه الأسعار؛ بسبب اختلاف نوع العملة المستخدمة من فترة تاريخية لأخرى؛ وكذلك لإختلاف قيمة نفس العملة خلال الفترة التاريخية الواحدة من وقت لأخر ؛ بالأضافة إلى تغيير حالتي العرض والطلب تبعاً للظروف الاقتصادية السائدة في كل فترة ؛ إلاأنه يمكن القول من خلال ما أوردته المصادر التاريخية عن هذه السلعة أنها كانت إحدى السلع الرئيسية التي تتميز بقدرتها على الاحتفاظ بقيمتها ؛ وإرتفاع الطلب عليها بشكل دائم ؛ حتى أنها كانت تستخدم في بعض المجتمعات المجاورة كوسيط تبادل على الرغم من أن هذه المجتمعات كانت تعرف العملة .

ففى أسواق النخاسة فى السودان الغربى والأوسط؛ وهى الأسواق التى مثلت المصدر الرئيسى للرقيق الأسود المجلوب إلى مصر؛ كان ثمن الفرس يتراوح ما بين سداسيين وثلاثة؛ والرقيق السداسى هو العبد أو الجارية التى يبلغ طولها إذا قيست من كعبها حتى شحمة أذنها ستة أشبار؛ كما كان العبد السداسى يباع أيضا فى نفس السوق بثلاثين تكية من التكاكى المصنوعة من دمور القطن؛ والتكية هى نوع من القماش كان يصل إلى السودان عن طريق أسيوط؛ ويبلغ طول التكية الواحدة ١٠ أزرع؛ وعرضها زراع واحد؛ وفى عام ١٧٩٣ كان سعر الرقيق الذكر فى سوق النخاسة بمدينة كوبى فى السودان الشمالى د١ قرشاً وكان سعر ه بعد دخوله إلى مصر؛ ووصوله إلى أسواق النخاسة فى أسيوط يصل

⁽١) محمد ابراهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني ؛ مرجع سابق.

إلى ٢٥٠ قرشاً ؛ وفي عام ١٨٠٥ كان سعر العبد السداسي ١٠ دولارات مارى تريزا (١) .

ويورد م.كادلفين ؛ وهو رحالة فرنسى مر بمصرفى النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ ملاحظة عن أسواق النخاسة في أسيوط ؛ والقاهرة أسعار الرقيق في هذه الأسواق .

يقول: " إن قوافل الرقيق الأسود كانت تصل إلى أسواق أسيوط قادمة من كردفان وسنار ؛ و يتم عرض الرقيق للبيع في سوق النخاسة الرئيسي بالمدينة وهم أنصاف عرايا ؛ وأجسادهم مدهونة بالزيت " .

وقبل أن يورد كادلفين أسعار الرقيق في أسواق نخاسة أسيوط يصف عمليات الفحص الدقيقة التي تجرى للرقيق قبل شرائه ؛ فيقول : إنه يتم فحص اجساد الرقيق بدقة؛ كما يتم الكشف على اسنانهم ؛وشفاههم؛ وألسنتهم؛ وعيونهم وأذانهم .

وكان سعر الرقيق من الأطفال الذي يبلغ طوله ثلاثة أشباريترواح ما بين ١٥٠ إلى ١٠٠ قرش ؛ وسعر الرقيق الرباعي ما بين ٢٠٠ إلى ١٠٠ قرش والخماسي ما بين ١٠٠ إلى ١٠٠ قرش والخماسي ما بين ١٠٠ إلى ١٠٠ قرش والعبد اليافع الذي يبلغ عمره ١٥ عاماً ما بين ١٠٠ إلى ١٠٠ قرش ؛ وكان ثمن الجارية التي انجبت مرتين سابقتين ما بين ١٠٠٠ إلى ١٠٠ قرش ؛ أما الأسطة وهي الجارية المتوسطة السن ؛ والتي تحسن تدبير شئون المنزل فيتراوح سعرها مابين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ قرش ؛ والجارية المرضعة ما بين ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠ قرش .

⁽١) محمد إبراهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني ؛ مرجع سابق.

وكان لايتم دفع ثمن العبد بشكل كامل إلا بعد أن يقضى فى بيت سيده فترة لا تزيد عن ثلاثة أيام لمراقبة عيوب شخصية قد تكون به ؛ كأن يكون قد إعتاد على التبول فى الفراش أو الشخير ليلا(١) .

ويتحدث مارسيلوس وهو رحالة فرنسى مر بمصر ؛ فى نفس الفترة تقريبا عن اسعار الجوارى البيض فى اسواق النخاسة فى مصر فيقول : إن اسعار الجوارى القوقازيات كانت مرتفعة نظر الجمالهن ؛ وتميزهن ببشرة بيضاء صافية ؛ وعيون ملونة ؛ وشعر ناعم طويل ؛ وكان ثمن الجارية القوقازية التى يتراوح عمرها من عشرة إلى خمسة عشر عام يصل إلى ستة آلاف قرش؛ ويتم جلبهن إلى مصر من جورجيا وأرمنيا ؛ وذكر مارسيلوس إلى أنه شاهد بنفسه فى أسواق النخاسة فى مصر جوارى يونانيات من أسرى الحرب اليونانية أثناء حملة إبراهيم باشا ابن الوالى محمد على ؛ كما أشار إلى أن سعر العبيد الخصيان كان يتراوح بين ما بين ١٥٠٠ قرش إلى ٣٠٠٠ قرش وكان لايستطيع شراء هذا الصنف من العبيد سوى الأسر الثرية التى تقتنيه لإلحاقه بخدمة النساء .

وأثناء الشهور الأولى بعد إعادة فتح السودان على يد كتشنر في عام ١٨٩٨ وبسبب إستيلاء القبائل النيلية على الرقيق المملوك للمهديين ؛ تدنت أسعار الرقيق في السودان بشكل لم يسبق له مثيل ؛ حتى أنه تمت مقايضة رأسيين من الرقيق مقابل رأسيين من السكر في سوق النخاسة بدارفورد ؛ وهو السوق الذي اشتهر تاريخيا بأنه اكبر أسواق النخاسة في أفريقيا على الاطلاق لتجميع الرقيق الأسود قبل تصديره إلى الجزيرة العربية ومصر والشام وبلاد الشمال الأخرى .

وبعد إنشاء قلم مكافحة الرقيق في القاهرة وفتح فرع لها في الخرطوم؛ اهتمت المخابر الت العسكرية البريطانية برصد حركة أسعار الرقيق في سوق أم درمان

⁽۱) د.الهام محمد على ذهنى :مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر اللهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٩٤.

وذلك في إطار سعى سلطات الحكم الثنائي لمكافحة النخاسة في السودان وذكرت التقارير المرفوعة إلى الإدارة في القاهرة: "أن سعر الجارية الوسيمة كان يبلغ ١٢٠ دولار ، والجارية فـوق التـي يزيد عمرها عـن ثلاثين عام ٢٠ دولار ؛ أما الجارية التي يميل لونها للأحمرار وتصلح للتسرى فيتراوح ثمنها ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ دولار ؛ كما كان سعر العبد الذي يبلغ عمره ٦ سنوات م دولار، وسعر العبد الشاب الصالح للعمل إلى ما بين ١٥٠ إلى ٢٥٠ دولار وقد تسببت إجراءات إدارة الحكم الثنائي بعد ذلك لمكافحة تجارة الرقيق أن رفعت قبائل الرشايدة ؛ وهي القبائل التي تخصصت في نقل الرقيق لمصر والجزيرة العربية ؛ ثمن الجارية التي يتم تصديرها إلى ٤٠٠ دولار ٠)



⁽١) محمد ابر اهيم نقد علاقات الرق في المجتمع السوداني - مرجع سابق.

الجوارى



الجسواري

الجارية هي كل امرأة أخذت أسيرة في الحرب أو نقلت قسراً من دار الكفر على شرط أن تكون غير مسلمة ، أو التي تلدها أمة مملوكة(١) .

وقد شكلت الجواري باستمر ال مجتمع قائم بذاته في القاهرة الإسلامية ، بل كان عددهن يفوق أحياناً عدد الحرائر ، وظهر هذا بصفة خاصة في دولة المماليك الأولى. (٢)

وهؤلاء الجواري كن متعددات الأجناس والألوان وأيضاً الأديان ، وإن كانت القاعدة هي أن تكون الجواري على نفس دين أسيادهن ، لأن همؤلاء كانوا يتعمدون غالباً شراء الجواري وهن صغيرات ليصبحن أكثر قابلية للتطبع بعادات مالكيهم وعقائدهم ممع الأخذ في الاعتبار أن أحد الوظائف الرئيسية لمحتسب سوق الرقيق في هذا الصدد هو التأكد من عدم قيام كتابي أو ذمي بشراء جارية مسلمة .

ولم يكن هناك حد أقصى للثمن الذي يمكن أن يصل إليه سعر الجارية وبصفة عامة كان تحديد هذا الزمن يتوقف على عدة عوامل منها الأوضاع الاقتصادية والسياسية في المجتمع ، والقيمة الشرائية للعملة ، بالإضافة إلى عوامل أخرى مرتبطة بالجارية نفسها ؟ مثل عمر الجارية ودرجة جمالها وما تجيده من فنون ومهارات .

وفي العادة ، فقد كانت الجواري صغيرات السن أغلى سعراً من الكبيرات والمائلان إلى البياض أغلى من الجواري السود ، وإن كانت المصادر التاريخية قد أوردت عن الصالح إسماعيل على سبيل المثال أنه كان شغوفاً باقتناء الجواري

⁽١) ابن تيمية: السياسة الشرعية.

⁽٢) د . على السيد محمود : الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية ، مرجع سابق .

السود وافتراشهن(۱) ، وكانت السمة الغالبة على الجارية الصالحة للتسرى هي أن يكون لونها مائلاً للحمرة ، وأن تكون نحيلة الجسد من أعلى وتميل للبدانة كلما اتجهت لأسفل ، و كما كانت البدانة بصفة عامة من علامات جمال الجارية ، وقد ألف المعاصرون كتباً في صفات الجواري وأصنافهن والوظائف اللاتي يصلحن لها ، واختبار هن قبل اقتنائهن .

جاء في رسالة بن بطلان عن معابير شراء وتقليب الجوارى: " فيما تعلم به براءة الجوارى من الحبل قبل الشراء ، قالوا تحرز في إستبراء الإماء من الحمل قبل التملك لهن ، واحذر بهرجتهن بالسداد والدعاوى الكاذبة ، فإن كثيراً ما يجعلن في فروجهن خرقا بدماء غيرهن ، وليكن من يستبرئ ذلك منها إمسرأة تكره أن تلصق بك ولد غيرك ومرها بتفقد تدييها وجس حشاها ، وأعلم ذلك من شحوب لونها وشهوتها للطعام المالح ، فإن ذلك دال على توحمها..."

وجاءت في رسالة بن بطلان إشارات تشي ببعض سمات علاقات الأسترقاق التي كانت قائمة في المجتمع المصرى في هذه الفترة بين السادة وإمائهن ، حتى فيما يتعلق بتفاصيل خاصة ، ومن ذلك ما كان شائعاً عند بعض السادة ممن كانوا يفترشون جواريهم مع حرصهم على ألا يؤدى ذلك الفعل إلى أن تحمل منه الجارية على غير إرادة سيدها ، لأن ذلك سيؤدى في ظل أحكام الفقه الإسلامي الجارية على غير إرادة سيدها ، لأن ذلك سيؤدى في ظل أحكام الفقه الإسلامي إلى أن تخرج الجارية إلى فئة جديدة هي أم الولد ، وأيضاً حرص الجوارى على الحمل من اسيادهن لنفس الغرض ، و في هذا الصدد جاء في كتاب بـن بطلان : " .. ما يراعي بعد الشرى من الغيلة في الحمل من غير إرادة المولى قالوا راع أمرا ذا ركنين اذا إشتريت جارية ، غير بالغة فربما بلغت في ملكك وأنت لا تعلم وكتمت ذلك عنك رغبة في الولد ، احذر الجواري اللواتي يوهمن أنهن عقم وهن كارهات للحبل فربما خدعنك بذلك ومن ذلك ما يختص بالبائع

⁽١) د. سعيد عاشور: المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، مرجع سابق .

دون الشارى قالوا: لاتخرج جارية من ملكك إلى نخاس إلا فى دم ، فربما تم عليها فى الحجر ان تحبل فادعت انه منك ،على أننا قد شاهدنا فى زماننا من حاضت مدة زمان حملها وهذا نادر".

وفي ظل الأزدهار الإقتصادي الذي عرفته مصـر فـي هـذه الفـترة ، وإنتعـاش اسواق النخاسة في البلاد نبعا لهذا الأزدهار ، شهدت اسواق الرقيق تعدد الحيل التي يستخدمها النخاسون وسماسرة الرقيق في غش البضاعة المعروضة في السوق ، و هو السبب الرئيسي الذي يقول بن بطلان إنه وضع رسالته من أجله والإرشاد الراغبين في شراء الجواري لتجنب الوقوع في هذه الحيل: " ما حذر منه القدماء قبل الشرى ، قالوا كن على حذر من شرى الرقيق في المواسع ففي مثل هذه الأسواق يتم النخاسين الحيل ، فكم من قضيفة (١) بيعت بخصبة وسمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وممسوحة العجز بتقيلة الروادف ، وبطين بمجدول الحشا ، وأبخر الفم بطيب النكهة ، وكم صفروا البياض الحادث عن القروح في العين والبرص والبهق في الجلد ، وجعلوا العين الزرقاء كملاء وكم من مرة حمروا الخدود المصف رة وسمنوا الوجوه المقعقعة (٢) وأعدموا الخدود شعر اللحـــي ! وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور السبطة ؛ وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورطلوا الشعور الممرطة ، وأذهبوا أثار الجدري والوشم والنمش والحكة ، هذا زائد على ما يوصون به الجواري من ذل ومجانة سوى ما يفعلنه من زينتهن بالخضاب والحناء والمالابس المصبغة الناعمة .."

⁽١) قليلة اللحم .

⁽٢) يظهر منها العظم ،

كما يظهر من حديث بن بطلان جو الدسائس والمؤامرات الذى كان سائداً فى هذه الفترة ، وإستخدام الجوارى فى تدبيرها: "ما حذر منه الرؤساء خاصة قالوا: ليحذر الرؤساء ممن له عدو يخشى منه غيلة أو يخاف أن يطلع له على سرمن شرى خادم أو جارية خاصة إن كانت خرجت من دار سلطان إلا بعد خبرته بها ، ولا شرى جارية مولدة أو تاجر أو جلاب فان هذه حيلة قد هلك بها جماعة من الملوك والرؤساء ".

ويذكر بن بطلان خصائص لكل صنف من أصناف الجوارى:

الصديات: أول الجنوب على سمت المشرق ، لهم حسن القوام وسمرة الألوان وحظ وافر من الجمال على صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهه ولين نعمة؛ لكن الشيخوخة تسرع اليهن وفيهم وفاء عهد ومودة وكثرة محافظة وبعد غور وسلاطة ونفوس عزيرة لايصبرون على الذل ولا يتألمون للقتل نسائهم يصلحن للولد ؛ ورجالهم لحفظ النفوس والأموال وعمل الصنائع الدقيقه غير أن النزلات تسرع اليهم .

السنديات بين المشرق والجنوب ، وهم قريبوا الشبه بالهند لمتاخمة بلادهم لبلادهم ، غير أن نسائهم ينفردن بدقة الخصور وطول الشعر .

البوبوبهات: من جزيرة بربرة (۱) ، ألوانهم على الأكثر سود ، ويوجد فيهن الصفر ، وإذا وجدت منهن الكتامية الأم الصهاجية الأب المصمودي المنشأ فإنك تصادفها مطبوعة على الطاعة والموافاة في كل أمور هن ، نشيطات للخدمة ويصلحن للتوليد واللذة ، لأنهن أحدب شئ على ولد .

⁽۱) جزيرة بربرة هذه من الجزر التى تجاور سواحل اليمن كما أن البربريات نتسبب إلى بلاد البربر في بلاد المغرب.

الزونجيات: في بلد يقال لها زرنج ؛ ذكر ابن خرداذابه: أن من هذا البلد إلى مدينة الملثان مسيرة شهرين والملثان وسط الهند ، وخاصة هذا الجنس اذا بوشرن فعرقن بدا منهن عرق كالمسك ، لكنهن لا يصلحن للولد .

الزنجيات: مساويهن كثيرة وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن وتحدت أسنانهن وقل الإنتفاع بهن وخيفت المضرة منهن والغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب وليسس في خلقهن الغم والرقص والايقاع فطرة لهن وطبع فيهن ولعجومة ألفاظهن عدل بهن الى الزمر والرقص ويقال: لو وقع الزنجي من السماء إلى الارض ما وقلم على الابالايقاع، وهم أنقى الناس تغورا لكثرة الريق وكثرة الريق لفسادالهضوم، وفيهن جلد على الكد؛ فالزنجي اذا شبع فصب عليه العذاب صبا فإنه لا يتألم له، وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن.

المبشبات: الغالب عليهن نعمة الأجساد ولينها وضعفها يتعاهدن السل والدق ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، رقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها ، وفيهن خيرية ومسايرة وسلاسة إنقياد ، يصلحن للإئتمان على النفوس يخصمهن قوة النفوس وضعف الأجسام ، كما يخص النوبة قوة الأجسام على دقتها وضعف النفوس ، قصار الأعمار لسوء الهضم .

البجاوبات: بين الجنوب والغرب في الأرض التي فيما بين الحبشة والنوبة مذهبات الألوان ، حسنات الوجوه ، ملس الأجسام ، ناعمات البشرة ، جوارى متعه إن جلبن صغار وقد نجين من أن ينكل بهن فإنهن يقورن ويمسح بالموسى بأعلى فروجهن من اللحم كله حتى يبدو العظم فيصرن شهرة من الشهر وتقطع أثداء الرجال وتسل الرضفة (١) من ركبهن _ زعم القائل _

⁽١) الرضفة بالفتح والتحريك : عظم مطبق على رأس الساق ورأس الفخذ .

حتى لا يعيا الساعى منهم ، والشجاعة والسرقة فيهم طبع وغريزة ، ولهذا لا يأمنون على مال ولا يصلحون أن يكونـــوا خزاناً .

القندهاربات : في معنى الهنديات ، ولهن فضيلة على كل النساء ، فإن الثيب منهن تعرد كالبكر ، الصفراء الولدة تنسب الى أبيها وأمها وتمزج بينهما بأخلاقها مركبة منهما .

التركيبات: قد جمعن الحسن والبياض والنعمة ، ووجوههن مائلة الى الجهامة وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة وقدودهن ما بين الربع الى القصير والطول فيهن قليل ، ومليحتهن غاية وقبيحتهن آية ، وهن كنوز الأولاد ومعادن للنسل ، قل ما يتفق في أولادهن وحش ولا ردى التركيب ولا حان وفيهن نظافة ولباقة ، قدورهم معدهم يعولون عليها في الطبخ والنضج والهضم لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة ولا من له عجيزة عظيمه وفيهم أخلاق سمجه وقلة وفاء .

الرومبات: بيض شقر ، سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصرة ووفاء وأمانة ومحافظة يصلحن للخزن لضبطتهن وقلة سماحتهن ، لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة .

الأرونبات: الملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحاشة الأرجل مع صحة بنية وشدة أسر وقوة والعفة فيهن قليلة أو مفقوده والسرقة فيهن فاشية وقل ما يوجد فيهن بخل وفيهن غلظ طبع ولفظ وليست النظافة في لغتهن ، وهن عبيد كد وخدمة متى نهنهات العبد ساعة بغير شغل لم يدعه خاطر الى خير لا يصلحون إلا على العصا والمخافة وليس فيهم فضيلة إلا تحمل العناء والأعمال الثقيلة ، الواحد منهم إذا رأيته كسلاناً فذلك لعلة فيه و ليس من عجز قوة فدونك والعصا ، وكن مع ضربه وإنقياده لما تريد منه على حذر فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلا عن الغضب نساؤهان لا يصلحون لمتعة ، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما أن الزنج أشر يصلحون لمتعة ، وجملة الأمر أن الأرمن أشر البيضان كما أن الزنج أشر

السودان ، وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد وكثره الفساد وغلط الأكباد .

ويقدم بن بطلان ما يصفه بوسيلة التعرف على حمل الجارية ، ويستغل بن بطلان خبرته كطبيب فى شرح معرفة نوع حمل الجارية: "ومن ذلك ما يتعلق بالحمل شيئان: وهما تحقق الحمل ليعلم صحته ومعرفة ذلك يتم بان يوضع تحت المرأة بخور كالعنبر ونحوه ويمنع خروجه من أردافها أو فرج أثوابها فان ظهرت الرائحة من فيها فليست حاملاً وبالضد .

معرفة الحمل بذكر أو أنثى وهذا يتبين في الذكر من سرعة الحامل وإشراق لونها ، وأن يقدر بخيط من وسط السرة الى وسط الفقارة المحاذية لها من أحد الجوانب ويعلم المكان بمداد وتديره الى الجانب الآخر فإن نقص الخيط عن العلامة من الجانب الأيمن فهي حامل بذكر ؛ وإن كاد فبأنثى"(١) .

وقد لعبت الجوارى فى مصر أدواراً لا سبيل لتجاهل أثرها على النواحى السياسية والإجتماعية والأدبية ، ففى الناحية السياسية عرف تاريخ مصر جاريتين قامت كل واحدة منهما بالقضاء على دولة بكاملها!

الأولى هى الجارية "وصد" ، وكانت جارية سوداء فى القصر الفاطمى تحظاها الخليفة الظاهر فولدت له المستنصر ، والذى آلت إليه الخلافة وهو صغير ، مما ساعد "رصد" على السيطرة على ابنها الخليفة الصغير تماما فاتخذت لنفسها علامة هى " الحمد لله ولى كل نعمة " للتوقيع على المخاطبات وقرارات تسيير شئون الدولة ، كما اتخذت لنفسها ألقاب : السيدة ، الملكة والجهة الرفيعة ، والسند الرفيع .

⁽۱) ابن بطلان : رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات ، القاهرة ١٩٥٤ .

وبلغت هذه الجارية من النفوذ على ابنها حتى كان رجال الدولة وحتى ابنها الخليفة المستنصر يخاطبونها بلقب " مولاتنا" ؛ وما حدث أنه بعد موت الخليفة الظاهر وتولى ابنه المستنصر ، قربت رصد شخصيتين لها ، ممن لعبا أدورا مكملة لدورها في تصدع دولة الفاطميين ؛ الشخصية الأولى : هو أبو سعد إبراهيم بن سهل التسترى ؛ وهو تاجر من أصل يهودى ؛ وكان قد باع "رصد" نفسها للظاهر ، فحفظت له الجميل بعد تولى ابنها للخلافة ، وعينته رئيساً لديوانها .

والشخصية الثانية: هو أبو محمد الحسن بن على بن الرحمن اليازودى وهو قاضى من يازور من أعمال الرملة بفلسطين ؛ جاء إلى مصر والتحق بخدمة أم المستنصر حتى ولته الوزارة.

وتدخلت رصد فى كل شئون الدولة حتى فيما يتعلق بالقضاء والدعوة وتعبين الولاة في الأقاليم التابعة للخلافة الفاطمية ، وكان لتخبط سياسات رصد أثره فى تفكك الدولة وإستقلال الأقاليم الفاطمية عنها واقتصارها على مصر ، كما عقدت رصد معاهدة تحالف مع الامبراطور ميخائيل الرابع سمحت له بموجبها بإعادة بناء كنيسة القيامة بفلسطين ، كما راسلت رصد الملكة أروى فى اليمن واحتفظت معها بعلاقات سياسية وتجارية.

وكان الخطأ الأخير الذى وقعت فيه رصد هو تفضيلها للجند من الرقيق الأسود على باقى طوائف الجيش الفاطمى ، وهو الذى أدى فيما بعد إلى فتنة بين الجنود السود والجنود الأثراك ، وهي الفتنة التى لم تنته حتى قيام فلصو الدولة بن همدان ؛ أحد قواد الجيش الأثراك ؛ بانقلاب على رصد والتى قيل أنها فرت بعد ذلك إلى بغداد .

و الجارية الثانية التى تركت بصمة على التاريخ المصرى هى شجر الدر وهى جارية من جوارى الملك الصالم نجم الدبين أبوب ، اشتراها أيام والده

وحظيت عنده ووندت له ابنه "خليل " فأعنقها وتزوجها، وبعد موت نجم الدين أيبوب أثناء معركة المنصورة أخفت خبرموته وأرسلت لولده توران شله الذي عاد لمصر وحارب الفرنسيين وانتصر عليهم ، وعندما حاول توران شاه الحد من نفوذها ألبت ضده مماليك زوجها حتى قتلوه وتولت السلطنة وتلقبت باسم عصمة الدين ملكة مصر أم خليل المستعصمية تقربا الخليفة العباسي المستعصم الذي رفض إقرارها على السلطنة، وقامت ضدها إضطرابات في القاهرة تنكر تولي امر أة عرش البلاد، كان وراءها الشيخ العز بن عبد السلام من علماء الأزهر فاضطرت إلى الزواج من وزيرها عز الدين أيبك الذي تلقب بالملك المعز ، شم أمرت مماليكها بقتله ، فقتلوه خنقا وهو بالحمام ، قبل أن يقتلها ابنه على في سنة دولة الأيوبيين وأعطت الفرصة للمماليك التركمان لاعلان دولتهم .



ilmil





الفصيان

ظهرت عادة الخصاء عند الشعوب والحضارات الشرقية في منطقة الشرق الأدنى القديم بالدرجة الأولى(١) على الرغم من أن الجاحظ في كتابه الحيوان يتهم الروم بأنهم " أصل كل خصاء"(٢) ؛ وينكر عليهم أن يكونوا صادقين في ادعائهم بالتمسك بمبادئ المسيح لاعتيادهم على خصىي أرقائهم وأسراهم(٣).

وحيث استخدم الروم منذ عهد الإمبر اطورية الرومانية الخصاء ليس فقط كوسيلة لاستلاب الرقيق وتخصيص بعضهم لخدمة النساء ؛ وهى العادة التي أخذوها عن الشعوب الشرقية التي أستعمروها ؛ و أخذها ايضاً بعد ذلك الأتراك عند فتحهم للقسطنطينية حاضرة ما تبقى من الدولة البيزنطية على يد محمد الفاتح بل أن الروم استخدموا الخصاء كذلك كوسيلة للعقاب وانتمثيل بالمجرمين أوالأسرى(٤).

وكان أهل بابل والأشوريون والفرس قد أعتادوا خصى الغلمان من أبناء الأسرى قبل أن يتم بيعهم في أسواق الرقيق ؛ وكانت الفكرة الأساسية عندهم هو أن هذه الطريقة ستمنع أعدائهم من التناسل وتقضى عليهم نهائياً ؛ كما مكنتهم من الاستفادة من قوة عمل ذكور هم كرقيق للخدمات المنزلية أو للوظائف الأخرى.

وفى مصر القديمة ظهرت آثار تدل على أن المصريين القدماء أعتادوا خصى الرقيق الأسود ؛ وهسروالرقيق المجلوب أساسا من بلاد النوبة

⁽١) د. عبدالسلام الترمانيني : الرق ماضيه وحاضره؛ الكويت١٩٨٥.

⁽٢) كتاب الحيوان المجاحظ: ج١

⁽٣) نفس المرجع،

Encyclopédic LarousseP:Enuque (&)

أو السودان ؛ كما أن المصريين القدماء لجأوا أيضا الى استخدام الخصاء كعقوبة على جريمة الزنى لمعاقبة الزناة من الرجال على هذه الجريمة ؛ والذى يظهر أنهم كانوا ينظرون اليها كجريمة كبيرة تستوجب عقاباً حاسماً ؛ كما كانت النساء ممن ترتكبن هذه الجريمة؛ يتم معاقبتهن بعقوبات شديدة أخرى (١)

وقد استمر هذا لنوع من الرقيق متواجداً باستمرار في ظل كل الحضارات التي ظهرت بعد ذلك ؛ ولم يقوم أي مجتمع بتجريم هذه العادة أو حتى محاولة منعها طالما كان هذا المجتمع يبيح الرق وتتواجد به علاقات استرقاق ؛ وحتى في ظل الحضارة الاسلامية ؛ وعلى الرغم من أن مبادئ الفقه الاسلامي كانت قد احتوت على أساس نظري يحرم بصورة حاسمة تغيير خلق الله ؛ كما أن نصوصاً عديدة قد وردت في هذا الشأن على وجه الخصوص عندما حرم الاسلام الخصاء ؛ لأنه أعتبر هذه العاده تعذيبا لا يصح أن ينزل بإنسان ؛ كما أعتبره أيضا فعلا خاطفاً ؛ لأنه يقطع استمر ار النسل للذكر الذي يتم خصائه ورد أن النبي (عر) نهى جماعة من الصحابة أرادوا أن يقوموا بخصى أنفسهم ورد أن النبي (عر) فهي شان خصاء

الرقيق على وجه الخصوص أنه قال: " من خصى عبد خصينا له "(٢)

فعلى الرغم من هذه النصوص الحاسمة ؛ إلا أن ممارسة الخصاء ظلت موجودة ومنتشرة أيضافى ظل الحضارة الاسلامية ؛ ولم يظهر لهذه النصوص أثر فاعل فى هذا الصدد بل أن قواعد الفقه الاسلامى الحازمة فيما يتعلق بحجاب النساء قد أدت بالمسلمين إلى الاقبال على إقتاء الخصيان لوقفهم على خدمة النساء وجعلهم حراساً على بوابات الحريم ؛ أوحتى عيونا لمراقبتهم ؛ بل

⁽١) عبد السلام الترمنيني : الرق ؛ مصدر سابق.

⁽۲) حدیث رواه ابو داود فی مسنده.

أن هذه العادة تحولت الى عقوبة محتملة يمكن أن يأمر بها الخليفة لعقاب مخالفيه أو حتى للتعزير على فعل معين ؛ ومن ذلك ان السلطان السلجوقى طغرلبك قد أمر بخصى وزيره عمر بن منصور الكندرى ؛ لأنه عندما أرسله ليخطب له امرأه لنك و إحدى زوجات السلطان خطبها لنفسه وتزوجها بدلاً منه عندما بهر جمال المرأه الوزير (١) كما أمر الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بخصى شاعر يدعى سمير الإايلى لأنه تغزل بجارية من جواريه (٢) كما أمر نفس الخليفة عامله على المدينة بأن يجمسع المختئين بالمدينة ويقوم بخصيهم .

وكانت النتيجة أن أسواق المرقيق في البلدان الاسلامية ؛ ومن بينها أسواق الرقيق في مصر ؛ والاسواق التابعة لها في الشام والحجاز ؛ وهي الأسواق التي ظلت افتره طويلة أهم أسواق الدولة الاسلامية ؛ استمرت في استيراد هذا الصنف من الرقيق ؛ والذي إمتاز بإرتفاع ثمنه بشكل واضح بسبب ندرته وحرص العائلات الثرية على إقتنائه لإرتباط حيازة هذاالصنف من الرقيق بإرتفاع مكانة الأسرة ؛ ومكانتها الاجتماعية ، ونظراً لأهمية الخصيان كسلعة رئيسية ومرتفعة القيمة داخل أسواق النخاسة في مصر فقد عمد بعض ذو الخبرة في شراء الرقيق إلى كتابة رسائل تشرح للراغبين في شراء هذا الصنف من الرقيق ما يصفه كاتب الرسائل كتاب معيد النعم ومبيد النقم " بأخلاق الخصيان " ، وكانت أشهر هذه الرسائل كتاب السبكي عن الخصيان : " إن الخصي نيس برجل ولا إمراة ، وأخلاقه مقسمة بين أخلاق النساء وأخلاق الصبيان ، وهو يعتبر نفسه رجلاً بين النساء "(۲)

⁽١) الكامل لابن الأثير ج١٠

⁽٢)كتاب الإغاني للاصفهاني ج٤

⁽٣) عبد الوهاب السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ، تحقيق محمود الضاحي، القاهرة ١٩٤٨

وكان الخصاء لا يقتصر على جنس بعينه من الرقيق : إلا أن الرقيق الاسود الذي كسان يصل الى أسواق النخاسة في مصر كان الجنس الأكثر تعرضا لعمليات الخصاء .

وكانت سلطنة هديه ؛ وهي من الممالك الأفريقية التي كانت تقع على ساحل البحر الأحمر بالقرب من خط الإستواء من أكثر مصادر الخصيان السود المجلوبين الي أسواق النخاسة في مصحر ؛ وحيث أشتهر سكان قرية (وشلوه) القريبة من سلطنة هديه بمهارتهم في القيام بعمليات الخصاء للرقيق الذكور صغار السن(۱) ؛ فقد كان أهالي قرية وشلوه يقومون بخصى الغلمان لحساب التجار النخاسين من أهالي سلطنة هديه ؛ والذين تخصصوا في توريد هذا الصنف من الرقيق لتجار الرقيق في مصر ؛ وكان يتم نقل الرقيق الصغار بعد إتمام عملية الخصاء الى هديه ليمر هؤلاء بفترة علاج ونقاهة من آثار عملية الخصاء قبل تصدير هم الى أسواق مصر ؛ وكانت هناك أكثر من طريقة لاجر اء عمليات تخصاء بعا لما يطلبه التجار النخاسون ؛ والذين كانوا يقومون بتحديد عملية راتهم حسب خبرة كل واحد منهم بنوع الخصيان المفضل لدى عملائه .

وبصفة أساسية كانت هناك ثلاثة طرق رئيسية للقيام بعملية الخصاء ؛ كانت الطريقة الأولى هـى الجب ؛ ويتم فيها نزع الأعضاء الذكرية للرقيق بالكامل ويستخدم القائم بهذه العملية مــوسى حادة لقطع الخصيتين والقضيب معا ؛ ثم يقوم بعد ذلك بوضع أنبوبة من المعدن في مكـان مجرى البول كي لا ينسد ويدهن موضع الجرح بسمن ساخن حتى يتم وقف نزيف الدم ؛ ثم يدفن الرقيق الذي يكون قد فقد وعيه من أثر الألأم الهائلة المصاحبة لنزع أعضائه الذكرية

⁽۱) جون لويس يوركهارت: رحالت يوركهارت في بلاد النوبة والسودان؛ ترجمة فؤادأندر اوس القاهرة ١٩٥٩

بهذه الطريقة حتى بطنه في أرض طينية لمده يوم كامل حتى يسهل التئام الجـــرح.

والطريقة الثانية للخصى كانت بأن يتم ربط خصيتى الرقيق بخيط رفيع وحاد من الحرير بإحكام بحيث يمنع هذا الخيط تدفق الدم الى الشرابين المتصلة بالخصيتين ؛ على أن يتم إحكام الخيط حول موضع الربط بإستمرار ؛ وترك الرقيق على هذه الحالة حتى تضمر خصيتاه بحكم عدم وصول الدم إليها ؛ ويسهل نزعها أو حتى تسقطا من تلقاء نفسيهما إذا كان الرقيق صغيرا وكانت هذه الطريقة تعرف باسم السل ؛ وهى تكفل خصى الرقيسق بنزع خصيتيه دون التعرض للقضيب ؛ الطريقه الثالثة الأخرى : هى الوجر ؛ وكان يتم فيها رض خصيتي الرقيق حتى الرقيق حتى التأكد من تلفهما دون التعرض لقضيب الرقيق .

ومن المراكز الشهيرة لعمليات الخصاء أيضاً كانت شقلو ببلاد الحبشة لخصى الرقيق الأسود ؛ وأيضا جزيرة الدهب القريبة من قبرص ؛ وبجانة لخصى الرقيق الأبيض من غلمان السروم والصقالبة قبل أن يتم توريدهم لأسواق مصر والشام .

وفى مصر نفسها كان دير الزاوية بأسيوط ؛ والتى أطلق عليها كلوت بك اسم عاصمة السفاكين لاشتهارها بإجراءهذه العمليات ؛ مركزاً أساسياً لإجراء عمليات الخصاء للرقيق الأسود المجلوبين من النوبـــة والسودان ؛ حيث اشتهر رهبان هذا الدير ببراعتهم في إجراء عمليات الخصاء .

وبصفه عامة كانت عمليات الخصاء تسبب آلاماً هائلة للرقيق ؛ وكانت الطرق البدائية المستخدمة في نزع الأعضاء الذكرية للرقيق تتسبب عادة في أن يموت عدد كبيرمنهم أثناء وبعد إجراء هذه العملية ؛ ولعل هذا كان سبباً رئيسياً آخر في إرتفاع ثمن هذا الصنف ؛ لأن التجار النخاسون كانوا يأخذون في اعتبارهم وهم يقومون بتقدير أثمان الخصيان أن يتضمن الثمن الأساسى الذي يتم تحديده تعويضاً مناسبا عن الرقيق الهالك أثناء عمليات الخصي.

وقد اتسمت أسعار الخصيان بصفة عامة بالارتفاع ؛ وعلى الرغم من إختلاف قيمة المقابل النقدى الذى يتم دفعه فى مقابل شراء الرقيق الخصى تبعا لطبيعة كل فترة تاريخية ؛ والظروف الأقتصادية السائدة فيها ؛ وأيضسا حالتي العرض والطلب وقيمة العملية نفسها ؛ إلا إنه للدلالة على إرتفاع أثمان الخصيان فى مصر ؛ نشير الى أنه فى أو اسط دولة المماليك كانت هذه الأسعار تشير الى أن سعر الجارية الجميلة التى يميل لونها للإحمر اروتصلح للتسرى يتراوح بين ٢٠٠ و ما بين ٥٠٠ دوكا ؛ وهو دينار البندقية ؛ وكان سعر الرقيق الذكر الأسود يتراوح ما بين ٥٠٠ در هم مملوكى ؛ وهى عملة كانت سائدة فى نفس الفترة وكان قيمتها فى الأسواق المملوكية أقل من قيمة دينار البندقية ؛ فإن نفس الرقيق يرتفع ثمنه الى نحو ٢٠٠ دينار بندقى إذا كان خصياً(١).

وكانت الوظيفة الأساسية للخصيان هي الالتحاق بخدمة النساء القيام بأعمال الخدم المنزلية العادية ؛ وبصفة خاصة الأعمال التي تحتاج الى قوة بدنية و لا تستطيع الجروري الخادمات القيام بها؛ مثل حمل الأمتعة النقيلة أو جلب المياه للمنزل ؛ وفي أحيان أخرى كان الخصيان يقومون بدور الرقابة على الجواري داخل الحريم بالنسبة لقصور الأثرياء أو من ينتمون للأسر النبيلة وحيث كانت هذه الاسر تنيط بهذه المهمة إما الى جارية متقدمة في السن وأهل ثقة لديهم تسمى القهرمانة أو رئيسة الجواري ؛ وحتى في هذه الحالة كان يعاونها واحسد أو أكثر من الخصيان ؛ أو أن يتولى الخصيان بمفردهم هذه المهمة؛ في كل الأحوال كالمحمان الخصيان هم المكلفون غالبا بتولى عقاب الجواري المخطئات ؛ وكانوا في هذا الصدد يتميزون بغلظة واضحة قد تبررها إنعدام رغبتهم في النساء ؛ كما كانت النساء الحرائر يغضل نالبا الاحتفاظ الاحتفاظ

⁽١) نعيم زكى: طرق التجارة المرجع سابق.

⁽٢) عبد السلام الترماينني : الرق ؛ مرجع سابق .

بخصى أو أكثر لخدمتهن لما كان يضفيه ذلك عليهن من علامات التسراء أو وللدلالة على إرتفاع مكانتهن فى المجتمع وعلو منزلتهن لدى أزواجهن ؛ فالى جانب أعمال الخدمات المنزلية العادية كان يتولى أيضاً حراسة مولاته ومن يرافقها من صديقات او حتى جوارى خادمات أثناء خروجهن من المنزل للأسواق أو للذهاب الى الحمامات العامة ؛ وكانت وظيفة الخصى الرئيسية فى هذه الحالة هى حمل صسرة ملابس سيدته وجواريها وحمايتهن من أى مضايقات محتملة قد يتعرضن لها من جانب بعض العابئين .

وكانت الأسماء التى اعتاد ملاك هذا الصنف من الرقيق عليهم تشير ضمنا اللى طبيعة الوظائف التى من المتوقع منهم القيام بها ، وكذلك السادة الموكول بهؤلاء الخصيان القيام بخدمتهم ، فقد كانت الأسماء الشائعة للخصيان الروم هى : " فيروز ، مقبل ، كافور ، لولو ، هلال ، قشقدم " ، والأسماء الشائعة للخصيان الهنود هى : " جوهر ، خالص ، كافور " ، والأسماء الشائعة للخصيان الأحباش هى : " متقاد ، سرور ، مرجان ، ياقوت ، جوهر " والأسماء الشائعة للخصيان الخصيان التكرو : " عنبر ، خالص "(۱) .

وبالنسبة لقصور الأمراء والعائلات النبيلة في مصر على إختالف الدولة الحاكمة فيها ؛ فقد بلغ الخصيان منزلة عالية داخل هذه القصور لاطلاعهم على كل أسرار مالكيهم ؛ ولإتصائهم الشديد بنساء الأمراء من الحرائر ؛ أو حتى الجوارى الحظايا ؛ و كان من يستطيع من هؤلاء الخصيان أن يكسب نقة سيدته فإنه يصبح الموتمن على أسرارها؛ والمتصرف نيابة عنها في كل شئون القصر وخدمه وجواريه ؛ وقد حدث أن استغل خصيان كثيرون هذه المكانة ليتدخلوا عن طريق النصيحة أو الابحاء في إتخاذ قرارات تمس الحكم ؛ وكان من أبرز هؤلاء

⁽¹⁾ د. لبيبة إبر اهيم مصطفى محمد : الرقيق وتجارته فى مصر والشام فى عصر دولة سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الاداب ~ جامعة القاهرة ١٩٨٤ .

العبد الخصى الأسود عطوف ؛ خادم سبت الملك ؛ أخت الحاكم لأمر الله ابن المعز لدين الله أبى تميم معد ؛ والذى أستمر لفترة طويلة محل نقة مولاته قبل أن تطيح به إحدى مؤامر ات القصر ويلقى حتفه على يد خصيان آخرين كانوا تحت إمرته بعد أن غضبت عليه مولاته ؛ وكان حى العطوف بالقاهرة الفاطمية المجاور لحى الجمالية الحالى هو الحى الذى خصص لسكنى الخصيان السود العاملين فى خدمة نساء القصر الفاطمي من الحرائر والجوارى الحظايا .

وكانت فترة الدولة الفاطمية هي الفترة التي بدأ فيها الرقيق الخصيان في مصر الوصول الي مراتب رفيعة ؛ وأن يصبحوا من أصحاب النفوذ الواضح في أعلى طبقات المجتمع في مصر ؛ حيث أكثر الفاطميون من شراء الخصيان وبصفة خاصة من بين الرقيق الأسود المجلوب من النوبة والسودان وتوزيع هؤلاء على زوجات وحظايا القصور الفاطمية لخدمتهن ؛ وكان لكل زوجة أو جارية من حظايا القصر عدد من الرقيق الخصيان يشير ضمنا إلى مكانتها داخل القصور.

ومما يدل أيضا على أهمية الدور الذى شغله هؤلاء الخصيان داخل القصور الفاطمية في مصر؛ ومكانتهم أنه أصبح لهؤلاء رتب يحصلون عليها تبعا لدرجة التفاني والاخلاص الذى يظهره كل واحد منهم في خدمة مولاته ؛ وأيضا تاريخ التحاقه بخدمة نساء القصر ؛ وكانت هذه الرتب تبدأ برتبة " الأستاذين المحنكين " وهم فنة الرقيق الخصيان الذين يقومون بخدمة نساء القصر وهم يرتدون عمائم تمر أطرافها من تحت الفم أو " الحنك " ؛ وتصعد من الطرف المقابل لتلتف من جديد حول رأس كل واحد منهم من أسفل لأعلى ؛ وكانت الرتبة التي تعلو " الأستاذين المحنكين " هي رتبة - " الأستاذين " وهم الرقيق الخصيان الذين يقومون بخدمة نساء القصر بدون أن يضطروا إلى ارتداء هذه العمائم ؛ وكانت الرتبة التي تعلو " الأستاذين " هي رتبة " الوكلاء " ؛ وهذه

الرتبة يصل اليها العبيد الخصيان الذين يظهرون كفاءة عالية وتفانسى شديد فى خدمة نساء القصر ؛ وكان هؤلاء الوكلاء يقومون بخدمة الحريم عن قرب ويحتكون بهن مباشرة؛ وكان الخصى من هؤلاء الوكلاء يكلف فى العادة بأعمال شديدة الخصوصية بالنسبة لمولاته المفرد لخدمتها ؛ ويعاونه فى ذلك عدد من الجوارى الخادمات أو العبيد الخصيان الأقل درجة ؛ وكان من الطبيعى أن يصبح نفوذ هؤلاء الوكلاء قوياً داخل القصر ؛ حيث يكون الوكيل الذى فى الغالب قد استحوذ على ثقه سيدته ويصل بذلك الى أن يصبح الحاكم الفعلى ؛ والمتصرف فيما يحتويه القصر من مال أو جوارى أو رقيق آخرين .

و كان لكل واحد من خصيان القصر راتب يحصل عليه من خزانته ؛ ويتم تحديده تبعا لرتبته. فكان راتب الاستاذين مثلا يتعدى المائتين دينار ولم يكن هناك حد أقصى لما يمكن أن يحصل عليه الوكلاء ؛ ويلاحظ هنا الى أن هذه هى المرة الأولى مما وصل إلينا من تاريخ مؤسسة الرق التي يحصل فيها عبد رقيق على راتب نقدى بخلاف إعالته من جانب سيده ؛ وهو ما سيتكرر بعد ذليك عند نشوء ظاهرة المماليك في مصر .

وبعد إنهيار دولة الفاطميين فيما عرف بالشدة المستنصرية استمر وجود الخصيان داخل قصور الأيوبيين والمماليك اواستمر تداولهم كسلعة مرتفعة القيمة في أسواق الرقيق في مصر والاسواق التابعة لها في الشام والحجاز .

وفى عصر دولة المماليك ؛ ومع زيادة إهتمام الحكام الجـــد باستجلاب الرقيق الأبيض من التركمان ومن حول بحر قزوين لتدريبهم على أعمال القتال والحرب قبل إنضمامهم لجيوش السلطان التى أصبحت منذ ذلك الوقت تتكون من العبيد الأرقاء الذين سمح لهم بحمل السلاح بعد تلقى تدريبات راقية على إستخدامه وعلى فنون القتـــال وأصبح هؤلاء يعرفون باسم المماليك وهى التسمية التى أصبحت تشير في مصــرالى نوع متميز من الرقيق ؛ ظهرت منذ ذذلك الحين وظيفة رئيسية جديـدة للخصيان ؛ هى القيام على تربية المماليك

الجدد الذين يتم جلبهم وهم غلمان صغار ؛ وحيث كان يتم إدخال الغلمان الصغار الى الطباق ؛ وهو المكان الذي خصص لتربية هؤلاء الغلمان وإعدادهم عسكريا.

وكان يتم إختيار هؤلاء الخدم المربين من الخصيان طبقا لمعايير قاسية يضعها السلطان بنفسه ليتولوا الأشراف على تربيه هؤلاء الغلمان ؛ ويتولى السلطان بنفسه إنزال عقوبات صارمة على المخطئ من هؤلاء الخصيان وكانت الفكرة الأساسية من وراء إختيار مربين خصيان لهذه المهمة هو ضمان حماية الغلمان المماليك الصغار؛ خاصة مع انتشار عادة الاستمتاع بالغلمان في هذه الفترة ؛ فقد كان السراة يقبلون على شراء الصبيان من الرقيق الأبيض ؛ وكان هؤلاء يعرفون باسم الغلمان ؛ وأخذ الملاح من هؤلاء الغلمان ينافسون الجواري في الاستحواذ على قليبوب مالكيهم ؛ الذين كانوا يحرصون على إنتقاء الغلمان الوسيمين وكسوتهم وإتخاذهم كزينة فيي مجالسهم للمؤانسة والتسرى ؛ وتنقل كتب التراث لنا خبرا عن المكانية التي وصيل اليها الغلمان البيض لدى مالكيهم وشغف هؤ لاء بهم.

ومن هذه الأخبار ما جاء عن شاعر لـــم تصلنا تفاصيل كثيرة عن كنيته وضع أبيات في مدح جارية له تسمى صفية مشبها إياها كأنهـا غلام: وصنفيسة كالغلام تصلح

للأمريس كالغصس في تثنيها

أكملها الله ثم قال لها

لما استتمت حسنها: إيها!

ومن الأنباء التي امتلأت بها كتب الأدب والشعر والتي تدل علي عشق السراة الشديد لهـ ولاء الغلمان ما جاء ذكره عن الغلاميات ؛ وهن الجوارى اللاتى كانت الحرائر من النساء تشتريه ن و تلبسهن ملابس الغلمان ليصرفن أزواجهن أو أبنائهن عن عشق الغلمان ؛ ومسن الأنباء التي وردت في هذا الصدد ما قامت بــه زبيدة أم الأمين عندما أشترت لأبنها الأمين جوارى فارعات الطول وألبستهن ملابس الغلمان لتصرف أبنها عن التسرى بالغلمان البيض.

ويذكر بن بطلان وهو طبيب مسيحى عاش في مصر في الفترة من ١١هـ الى ويذكر بن بطلان وهو طبيب مسيحى عاش في مصر في الفترة من ١١هـ الدعون المدع ووضع رساله في صفات الرقيق أن التجار النخاسين كانوا يبيعون الجوارى على أنهم غلمان ليكسبوا من وراء ذلك عن طريق الخداع! وهو ما يشير الى إرتفاع الطلب على هذا الصنف من الخصيان البيض ويشير في هذا الصدد إلى شكوى لأحد المخدوعين في سوق الرقيق من أن النخاس قد أحتال عليه وباعه جارية بيضاء على أنها غلام!

ومما يستشهد به للدلالة على شدة حب الساده لغلمانهم ؛ ما جاء فى وفاة الوفيات عن ذكر قصيدة لشاعر يسمى سعيد بن هاشم الخالدى يصف فيها محاسن غلامه ومحبته له تماما كقصائد النسيب التى كان يتغزل فيها الشاعر العربى فى محاسن محبوبته ؛ يقول الخالدى فى غلامه واصفا إياه بأنه لهوه ؛وكل مأربته:

LL VIONINGERON

ما هو عبد لكنه ولسد شد أزرى بحسن خدمـته صغير سن كبير منفعة أنسى ولهوي وكمل مأربتي سامري إن دعا الظلام فلي ظريف مزح مليخ نادرة خازن ما في داري وحافظه ومنفق مشفق إذا أنـــا أسر ويعرف الشعر مثل معرفتي وصيرفي القريض وزان دنا يصون كتبي فكلها حسن ا وأبصر الناس بالطبيخ فكا وواجد لي من المحبة والرأ إذا أبنسمت فهو مبتهج ذا بعض أوصافه وقد بقيت

خولينه المهيمينُ الصميدُ فهو يدي والنزاغ والعضية تمازج الضعف فيسه والجلد مجتمع لي فيه ومنفرد منه حديث كأنه الشهيد جوهر حسن شهراره يقهد فليس شئ لدى يفتقد فت وبزرت فهو مقتصدة وهـو علـى أن يزيـد مجتهـدُ نير المعانى الرقاق منتقد يطوى ثيابسي فكلها جدد لمسك الغلايا العنبر التردب فة أضغاف ما به أجدُ وإن تتمسيرت فهسسو مرتعميد له صفات لم يحوهاأحدُ(١)

وعندما وقعت مصر تحت الحكم العثمانى ؛ اشتهرت أسواق النخاسة فى أسيوط والقاهرة بأنها كانت المحطة الرئيسية لتجميع الخصيان السود من الرقيق الذى يتم استجلابه من النوبة وبلاد السودان والحبشة ؛ وكانت الوجهة الرئيسية لهذا الرقيق بعد تجميعه هى أسواق النخاسة فى مصر ثم تصدير الفائض منه الى تركيا حيث قصور الباب العالى والعائسلات التركية النبيلة التى كانت تميل إلى

⁽¹⁾ نقلاً عن د.عبد السلام الترمانيني: الرق؛ ماضيه وحاضره ؛ مرجع سابق .

شراء هذا النوع من الرقيق بسبب رغبتها في إحكام قبضتها على الجوارى في حريم قصورهم ؛ والإدخال هؤلاء الى خدمه النساء.

وفي داخل قصور السراة الأتراك في مصر ؛ والذين جلبوا معهم نظمهم وتقافتهم العثماني...... ؛ احتفظ الرقيق الخصيان بأوضاعهم السابقة التي أكتسبوها بفضل دخولهم في خدمه نسباء البيوت النبيلة ؛ والإذن لهم في الدخول على مجالس مالكيهم طوال اليوم، ومما يشير بوضوح البيسي الوضع الفريد الذي استحوذ عليه الرقيق الخصيان داخل البيوت التركية النبيلة في مصر أن الرقيق الخصيان الذين عرفوا في مصر في عصور سابقة على الحكم العثماني باسم الطواشية ؛ أصبحوا يعرفون من الآن وصاعد باسم " الأغوات " وهي جمع أغالطواشية ؛ أصبحوا يعرفون من الآن وصاعد باسم " الأغوات " وهي جمع أغالسن ؛ ودلالة استخدام هذه المفردة نتضح أكثر إذا علمنا أنه في كل التقافات التي عرفت الرق ؛ كانت هناك ممارسة شائعة داخل هذه المؤسسة تقضى باطلاق الرقيق ؛ وحتى اذا كان طاعنا في السن ؛ و كانت هسذه الممارسة تتم في الأسلى بغرض استمرار الستلاب شخصيه الرقيق.

وكانت كلمة "الأغا" تطلق في اللغة التركية في نفس الوقت على الرئيسس والقائد ؛ وشيخ القبيلة ؛ وكانت فكرة إطلاق نفس الكلمة في اللغة التركية على الخادم الرقيسة الخصى ؛ الذي يؤذن له بخدمة النساء ودخول غرفهن في البيوت التركية لأنه كان يرأس الخدم الأخرين في الدار ؛ سواء كان هؤلاء من الجواري الخادمات ؛ أو العبيد ؛ أو الخصيان الأخريسن الأقل مكانة لدى مالكيهم أو حتى الخدم الأحرار ؛ كما ظهرت رتب جديدة للرقيق الخصيان في القصور التركية لم تكن معروفة في الفترات السابقة ؛ ومنها " أغادار السعادة " وهي فيسي التركية من الأصل " دار السعادة أغاسي " ؛ وهو أكبر الخدم من

الرقيق الخصيان في القصور التركية ؛ وهو المكلف ؛ ومن يقع تحت إمرته من الرقيق الخصيان الآخرين ؛ بخدمة النساء في قصور الأتراك .

وكان الولاة في مصر قد أعتادوا على أن يرسلوا هدايا الى السلطان في تركيا من أفضل الرقيق الخصيان المعد للتصدير ؛ والذي يتم جلبه لاسواق النخاسة في مصر ؛ وكان الخصى الذي يصل الى رتبة " أغادار السعادة " في قصر السلطان يتم خلع هذه الرتباة عليه في حضور السلطان نفسه ويصدر بذلك فرمانا من الباب العالى؛ وقد وصل أغوات دار السعادة إلى مكانة رفيعة وحظى بعضهم بنفوذ غير مسبوق منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الثامن عشر؛ حتى أن بعضهم أستطاع التدخل في تعيين

ومن الأسماء التى أصبح الرقيق الخصيان فى مصر يعرفون بها أيضا بعد قدوم الأثر الك الى البلاد " أغا القز لار " ؛ وكلمة قز لار فى المصدر التركى هى جمع " قيز " ؛ ومعناها البنست ؛ وأغوات القز لار هم الرقيق الخصيان المكلفيكن بخدمة البنات وقضاء شئونهن الخاصة .

ويذكر الجبرتي في تاريخه أنه كان لكل باشا من حكام مصر العثمانيين خادم رقيق خصصي يدعى " أنختار أغاسي " و هو الرقيق الخصى الذي يتولى رئاسة كل الخدم الخصوصيين للباشال المناسلهم إذا مرضوا للمستشفى ؛ ويصرح لهم بالذهاب الى بيوتهم ؛ ويوقظ الأغوات في السحر للصلة ؛ ويصلح بينهم إذا إختصموا و يدرس الملتمسات ؛ ونظرا لسعة إختصاصاته الإدارية فلم يكن بصاحب الوالى في المصيف(۱) .

⁽¹⁾ د. أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل؛ دار المعارف - القاهرة ١٩٧٩.

وبعد هذه اللمحة التاريخية التي يذكر فيها الجبرتي بعض نواحي الحياة الاجتماعية للخصيان داخيل قصر الوالي العثماني في مصر ؛ ومن أهمها أنهم كانوا يقومون للصلاة في السحر ؛ وأنهم كانوا يختصمون فيما بينهم؛ وأنه كان لهم بيوت يذهبون إليها ؛ يورد الجبرتي لمحة أخرى عن أحد خصيان القلعة أسماه الجبرتي لطيف باشا : " في ليلة الأحد تاسع عشرة من ذي الحجة الحرام سنة الجبرتي لطيف باشا : " في ليلة الأحد تاسع عشرة من ذي الحجة الحرام سنة المداه له ؛ وقعت كاننة نطيف باشا ؛ وذلك أن المذكور كان مملوك الباشا أهداه له عارف بيك ؛ واختص به الباشا ؛ وأحب ورقاه في الخدم والمناصب الى أن جعله أنختار أغاسي أي صاحب المفتاح وصارت له حرمة زائدة وكلمة في باب الباشا "(۱)

ومن اشهر الخصيان في تاريخ مصر الحديث هو "خليل أغا" ؛ وهو رقيق اسود خصى ؛ التحق بخدمة خوشيار خانم افندى ؛ والتي أصبحت تعرف فيما بعد باسم " الوالدة باشا " عندما اصبح إينها إسماعيل خديو مصر ؛ وبسبب تفاني خليل أغاث في خدمة سيدته ؛ واستحواذه على ثقتها ؛ فقد بلغ شاناً رفيعاً داخل قصر الاسرة الخديوية ؛ حتى أنه وفي حفل عقد قران الامراء توفيق وحسين وحسن ابناء الخديوي إسماعيل ؛ ترأس خليل اغا الحفل ؛ واشرف بنفسه على عقد القران على الرغم من ان جميع النظار وأعضاء الاسر النبيلة وكبار أعيان البلاد كانوا حاضرين .. " وكان محل إجلال الجميع حتى انهم كاتوا يقبلون يده عند المقابلة لنفوذه الكبير عند اسماعيل ووالدته وكلمته في الدوائر الحكومية وبذلك اصبح من ذوى الثروات الضخمة "

كما كان من دلائل المكانة الرفيعة التي وصل إليها خليل أغا ؛ والنفوذ الكبير الذي حاز عليها داخل القصر الخديوي في مصر ؛ أن الخديوي اسماعيل نفسه

⁽¹⁾ د. أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في ناريخ الجبرتي من الدخيل امرجع سابق.

كان يوكل اليه حل الخلافات الشخصية التي كانت تنشأ بين زوجاته الضرائر فضلاً عن الاشراف على تدبير الشئون الخاصة لعدد كبير من الحظايا الذي كان الخديوى اسماعيل يقتنيهن ؛ كما بني خليل اغا الدي كان يعرف باسم " باش اغا الوالدة باشا " مدرسة حملت اسمه بحى باب الشعرية بالقاهرة .

كما ظهر لهؤلاء الأغوات وظيفة جديدة ؛ عندما استدعى الخديوى اسماعيل فرق تمثيلُ من اوربا تضم رجال ونساء ؛ وكانت هذه الفرق تقدم عروض خاصة لنساء القصر الخديوى فى بهو مخصص لهن يفصله عن مكان جلوس النساء شيش يمكنهن من رؤية تمثيل هذه الفرق بدون ان يتمكن اعضاؤها من رؤيتهن ؛ و كان الاغوات يقومون بعصب أعين اعضاء هذه الفرق من الرجال والنساء على حد سواء ؛ وإصطحابهم الى اماكن تناول الطعام او الدخول والخروج من الحريم .

و كانت الاسر النبيلة في مصر تستخدم اعداد من الاغوات ؛ سواء كان هؤلاء مملوكين لها اولاسر صديقة ؛ للقيام بأعمال رئيسية اثناء حفلات الزواج وكان يبدء دور هؤلاء بدءا من اصطحاب الشهود داخل الحريم للتاكد من موافقة العروس على الزواج ؛ والإصطفاف في صفوف وهم يركبون الجياد ويرتهون أزياء خاصة حول موكب العروس اثناء الزفاف ؛ وحتى قيام اثنين من الخصيان الوسيمين بمصاحبة العروس ومساعدتها على المشي وهي ترتدي كميات كبيرة من المصوغات الذهبية والمجوهرات اثناء الزفة ؛ كما كان بعض السراة من الاعيان يحرصون على إقتناء بعض الخصيان السود ليقوموا بوظيفة السياس لخيول عرباتهم ؛ وهم الذين عرفوا باسم القمشجية الذين كانوا يقومون بالجرى المام عربات هؤلاء الاعيان لافساح الطريق امامهم ؛ ولاضفاء جو من الهيبة عليهم .

و كان بعض الخصيان يتزوج لإشباع ميول شاذه ؛ فقد كانوا يجامعون زوجاتهم بطرق غير سوية ؛ او لممارسة انحرافات جنسية اخرى ؛ مثل الميل

الى تعذيب الزوجة ؛ أوالعكس ؛ وكان بعض الخصيان؛ وبخاصة هؤلاء المملوكين لملاسر النبيلة ؛ يلجأون للزواج بغرض المؤانسة ؛ وكان بعض هؤلاء يميلون فى ظروف اخرى إلى القيام بأدوار النساء .

وجاء ذكر الرقيق الخصيان في رسالة ابن بطلان ؛ التي وضعها لإرشاد الراغبين في شراء الرقيق إلى صفات كلل جنس من أجناس الرقيق وحيل التجار النخاسين في التدليس على الراغبين في شراء الرقيق ؛ وفيها يقرر هذا الطبيب المسيحي أن للجواري والخصيان جمفات جسدية ونفسية واحدة .

فالخصيان فيهم من صفات الجوارى الجسدية أنهم: "أكبر بطناً ؛ و وركاً وأثقل أردافاً ؛ وألط ف كفاً " ؛ ومن الصفات النفسية التي يشترك فيها الخصيان مع الجوارى: "أنهم أموت نفساً ؛ وأقبل جلداً وأشد مكراً ؛ وأسرع غروراً ؛ وأسواً أخلاقاً من الذكر في كل جنس" ؛ كما أشتهر عن الخصيان أن لهم عيون غائرة ؛ وأنهم غلاظ القلوب مع من تحت إموتهم من الرقيق الاخرين ؛ أو حتى الأحرار.

ويوصى بن بطلان المشترين بأن يكونوا أكثر حذراً من الغلمان الذين ولدوا بخصية واحدة ؛ أو بدون خصية على الاطلاق لأنهم اسواً انواع الخصيان أخلاقاً.



shurif muhmend

تحلل علاقات الرق في مصر



shurif muhmend

•

•

تطل علاقات الرق في مصر

لم تبدأ الافكار التي نادت بضرورة تحريم تجارة الرقيق وتحرير الرقيق في التبلور إلا مع بداية القرن التاسع عشر؛ وحيث عُقد مؤتمر فينا في عام ١٨١٥م والذي أصدر قرارات بإبطال تجارة الرقيق ؛ وإن لم يتخذ إجراءات عملية بهذا الصدد.

وارتبط ظهور مثل هذه الأفكار ببداية دخول العالم إلى عصر شهد تغيراً واضحاً في طبيعة علاقات الانتاج ؛ وبصفة خاصة بعد ظهور مؤشرات دلت في ذلك الحين على أن العالم سوف يدخل في السنوات التي تلى ذلك إلى الحقبة التي أصطلح على تسميتها فيما بعد بالثورة الصناعية ؛ وهو ما أصبحت معه مسألة الرق والاحتفاظ برقيق وإعالته لإستخدامه في علاقات الانتاج المقبلة أمراً مشكوكاً في جداوه من الناحية الاقتصادية ؛ وذلك مع الأخذ في الأعتبار أن العلاقات الانتاجية المتوقعة في هذه الفترة ستقوم بالدرجة الأولى على رأس مال صناعي يميل أكثر لتوظيف عمالة رخيصة ومؤقتة يمكن الاستغناء منها في أي وقت بدلاً من تعمل اعباء شراء رقيق ثم الاحتفاظ به وإعالته ؛ فضلاً عن عدم منطقية توظيف مثل هؤلاء في مؤسسات ستبنى مجدها القادم على أساس التصنيع الذي يعتمد بالدرجة الاولى على إيداع العامل وهو ما يفتقد الرقيق الحافز الى تحقيقه .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذه العوامل الاقتصادية لم تمنع أن تظهر في الغرب منظمات وجماعات ضغط تدعو إلى تحرير الرقيق والقضاء على النخاسة وتجارة الرق لأسباب اخلاقية بالأساس ؛ وأن تستند هذه الجماعات بالدرجة إلى مبادىء العدالة والكرامة الانسانية.

وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية ؛ والتى كانت مصر إحدى الولايات التابعة لها حتى عشية الحرب العالمية الأولى ؛ لم تعلن إلغاء النخاسة وإغلاق أسواق الرقيق في القسطنطينية إلا في عام ١٨٤٧م ؛ إلا أن المجتمع في مصر

كان قد تعرف على مثل هذه الافكار قبل هذا التاريخ بفترة ليست قصيرة ؛ فعندما أمتد الحكم المصرى للسودان بداء من عام ١٨٢٠م ؛ في إطار سلسلة الفتوحات التي بدأها محمد على لإقامة دولته الكبرى ؛ وهو الأمر الذي جعل منه صاحب السيادة على مناطق برير وشندى وسواكن وسنار وكوبة والفاشر ، وهي المناطق التي مثلت تاريخا أكبر مراكز لتجميع الرقيق الأسود بعد إصطياده من المناطق الزنجية المجاورة وتجارته .

وقد اعتادت قوافل الجلابة نقل هذا الصنف من الرقيق عبر المدروب الصحراوية بين مصر والسودان إلى إسنا وأسوان ؛ ثم إلى أسواق أسيوط والقاهرة ؛ وتصديره بعد ذلك إلى المجاز؛ وموانى الخليج العربى والشام والاستانة ؛ وموانى أوربا الجنوبية .(١)

وهذا النفوذ الذى حققه محمد على بسيطرته على السودان دفع بالدكتور جون بورنج John Bouring ؛ العضو السابق في البرلمان البريطاني ؛ وأحد الرواد الذيبن نادوا بالقضاء على تجارة الرقيق بأن يحضر إلى مصر ليئتقى بمحمد علني ويتحدث إليه عن ضرورة إتخاذ إجراءت لمكافحة نشاط تجار الرقيق في السودان؛ بإعتباره أكبر مصدر للرقيق الأسود في العالم ؛ وحيث كانت مليشيات الجلابة تقوم بتنظيم غزوات مسلحة ضد المناطق الزنجية المحيطة ؛ وإصطياد الرقيق بموافقة السلاطين المحليين في مناطق السودان وبمشاركتهم في كثير من الأحوال(٢)

Burchardt , JL: Travels in Nubia , London. 1819. (1)

⁽٢) د.نسيم مقار: مصر وبناء السودان الحديث الهينة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٢.

وفى الحقيقة فإن محمد على قد عمد إلى إستغلال هذه الواقعة ليظهر للمندوب البريطانى أنه سيكون أكثر تعاوناً فيما يتعلق بهذه المسالة ؛ ولعله أيضاً كان يهدف إلى إستغلال الرغبة الملحة للمغاء الرق التي ظهرت في الغرب تحت الحاح الرن العام هناك ؛ ليقدم نفسه لحاكم متحضر يمكن أن يكون بديلاً أكثر قبولاً لمدى الأوربيين من السلطان العثماني على الأقل في هذا الجزء من العالم .

وما حدث هو أن محمد على أعرب لجون بورنج عن تفهمه لوجهة نظره كما أصدر أمراً إلى حكمدار السودان بمنع مشاركة الجنود التابعين للسلطة المصرية في السودان في غزوات صيد الرقيق من مناطق الزنوج المجاورة كما أعلن محمد على أثناء زيارته للخرطوم في ٤ ديسمبر سنة ١٨٣٨ قراراً لم يدخل حيز التنفيذ ابداً بإلغاء تجارة الرقيق في السودان ٤ على الرغم من أن محمد على نفسه كان قد أمر عند فتحه للسودان بشراء ٢٠٠٠ رأس من العبيد السود صغار السن ٤ وخصيهم لإرسالهم هدية للسلطان العثماني في الأستانة (١).

و الحقيقة أنه على الرغم من نجاح محمد على في كسب إعجباب الغرب فيما يتعلق بالإجراءات التي أعلن عن إتخاذها لمحاربة النخاسة في السودان ؛ الذي أصبح منذ فتح محمد على وحتى منتصف الخمسينات من القرن العشرين تابعاً للحكم المصرى بإستثناء سنوات قليلة ؛ وهو الإعجاب الذي كان أحد مظاهره أن أوفدت جمعية الرق بلندن Slavery Society رئيسها إلى مصر في عام أوفدت جمعية الرق بلندن وتقدير ها للجهود التي قام بها؛ إلا أن محمد على لم يقم أبداً بإتخاذ إجراءات أدت في النهاية إلى إيطال النخاسة في السودان ؛ ومن ثم منع تصدير الرقيق الأسود منه إلى مصر .

بل أن حملات البكباشي المصرى سليم قبطان لفتح طريق الملاحة في النيل الأبيض ؛ وما صاحب هذه الحملات من ثلاث رحلات ملاحية إستكشافية للكشف

⁽١) محمد ابر اهيم نقد :علاقات الرق في المجتمع السوداني ؛ مرجع سابق.

عن منابع النيل الاستوانية في الفترة من ١٨٤٦- ١٨٤٢ م؛ أدت إلى أن يرزداد بعد ذلك نشاط غزوات صيد الرقيق؛ والذي قام بتنظيم بعضها أوربيون كانوا قد وصلوا إلى السودان لصيد الفيلة بغرض الحصول على العاج؛ ثم تحولوا بعد ذلك لصيد الرقيق مستغلين الأمكانات البحرية الجديدة التي وفرتها طرق الملاحة البحرية في النيل الأبيض(١).

كما لم تؤدى الاجراءات التى اتخذها خلفاء محمدعلى للقضاء على تجارة الرقيق فى السودان لأى نتائج ظاهرة ؛ و بإعتبار أن مؤسسة النخاسة فى هذا البلد كانت المورد الوحيد تقريباً للرقيق الأسود الذى يتم إدخاله إلى مصر ؛ فقد أصدر الخديوى عباس الأول قراراً بإلغاء إحتكار الحكومة لتجارة الصمغ بهدف تشجيع تجار الرقيق إلى التحول إلى هذه التجارة ؛ كما أن جولة الخديوى سعيد فى الاقاليم السودانية وقيامه بنفسه بالإعلان عن قرارات تتعلق بنفس المسألة ؛ وظهر هذا الفشل بصورة أكثر وضوحاً فى ظل ضعف هيبة الحكم المصرى فى السودان فى فترة تالية ؛ عندما زاد نشاط تجار الرقيق أنفسهم بإنساء ميليشيات مسلحة خاصة بهم ؛ وإقاموا محظات وزرانب خاصة بهم تكون مركزا لتجميع الرقيق الذى يتم صيده من مناطق أقاليم بحر الغزال ؛ وبحر العرب ؛ والسوباط وهول غندكر ؛ وهى الميليشيات التى أصبحت فيما بعد تهدد الأدارة المصرية نفسها فى الخرطوم(٢)

ولم تبدأ الجهود المصرية للقضاء على تجارة الرقيق في الأقاليم التابعة لمصر وحتى داخل مصر نفسها تأخذ شكلا جدياً إلا مع قدوم الخديوي إسماعيل؛ والذي

⁽١) د.نسيم مقار : مصر وبناء السودان الحديث ؛ مربع سابق.

⁽٢) د. محمد صبرى: الأمبر اطورية السودانية في القرن التاسع عشر: القاهرة ١٩٤٨.

أستغل الرغبة القوية التي ظهرت في الغرب القضاء على النخاسة لخدمة ما كان يسعى إلى تحقيقه من تطوير لحركة الكشوفات المصرية في الأقاليم الأستوائية وضم المناطق الجديدة التي يتم إكتشافها إلى الممتلكات المصرية ؛ وهو ما دفع به إلى عقد إتفاق مع السير صموئيل بيكر في ٢٧ مارس سنة ١٨٦٩ م ؛ القيام بقيادة حملة عسكرية في هذه المناطق بدعم من الحكومة المصرية ؛ كان أحد أهدافها القضاء على الميليشيات المسلحة التي كان يديرها أشخاص من العرب والبرتغالبين لصيد الرقيق ؛ ثم إستغلال الرقيق الذي تم صيده في نقل كميات ألعاج التي يتم نهبها حتى الساحل ؛ ثم تصدير الصنفين معا أو بيعهما التجار المحليين .

وقد نجح بيكر الذى اشتهر عنه دمويته فى الوصول حتى غندكرو ؛ وضمها المى أملاك مصر فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٠ م؛ وتسميتها بالإسماعلية نسبة إلى الخديوى إسماعيل والقضاء على نفوذ تجار الرقيق فيها .

وم يناير سنة ١٨٧٧م استولى بيكر على فاتيكر وأقام نقطة عسكرية مصرية فيها ؛ وأخضع للحكم المصرى قبائل الشولى ؛ وهى القبائل التي كانت تخضع فى السباق لسطوة ميلشيات تجار الرقيق بالمنطقة ؛ وبصفة خاصة ميلشيات العقاد ووكيله أبو السعود ؛ وقد بلغ هؤلاء من النفوذ فى المنطقة إلى حد أنهم ألزموا زعيم قبائل الفاتيكر ؛ وكان يدعى روث جارما ؛ بالدخول معه فى تعاقد يلزمه بتوريد عدد من رؤوس الرقيق إلى زرانب أبو السعود ؛ وهو العقد الذى لم يستطع جارما التخلص منه حتى بعد دخول القوات المصرية إلى مناطق قبيلته واكتفى فقط بطلب مساندة هذه القوات له حتى لايتم فرض تجديد العقد على قبيلته وهو العقد الذى كان سينتهى فى نهاية المحرم سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ١٨٨٨

أبريل سنة ١٨٧٢م ؛ وهو تاريخ لاحق لدخول القوات المصرية إلى مناطق هذه القبائل (١) .

ثم واصلت حملة بيكر بعد ذلك توغلها في الجنوب السوداني ؛ حتى وصلت إلى فويرا على الجانب الأيسر من نيل فيكتوريا في ٢١ مارس سنة ١٨٧٧ م وهي مناطق تعرضت لعمليات نهب واسعة من جانب ميليشيات تجار الرقيق حيث قامت القوات المصرية بإعتقال عناصر من هذه الميليشيات ؛ ثم تقدمت الحملة إلى مازندي مقر كباريجا ملك قبائل الايونيورو على بعد ١٤٠ كم آخر وذلك قبل أن تشن القوات المصرية حملات مطاردة عنيفة ضد ميليشيات تجار الرقيق ؛ وهي الحملات التي أنتهت بإلقاء القبض على أبو السعود نفسه ورجاله حيث تم إعدامهم(٢).

وبصفة عامة فإن هذه الحملة التي قادها بيكر ؛ وتكلفت أكثر من مليون جنيه في ذلك الوقت ؛ لم تنجح في القضاء على النخاسة في مناطق السودان وكان أحد أسباب فشل هذه الحملة؛ إلى جانب تغلغل نفوذ مؤسسة الرق في المنطقة هو النهج العنيف الذي أتبعه بيكر مع الأهالي العاديين في مناطق السودان ؛ فقد كان لا يتواني حتى عن مصادرة قطعان الأبقار والخراف المملوكة لهم بحجة بجوين جنوده ؛ وهو ما حدث بصفة خاصة مع قبائل الباري حول مدينتي عندكرو ولادو وهو الأمر الذي أدى إلى عدم تعاون هذه القبائل مع القوات المصرية التي اعتبروها لا تختلف كثيرا عن ميلشيات تجار الرقيق ؛ وهو الخطأ الذي تنبه له الخديوي إسماعيل نفسه في القاهرة وحاول تلافيه في خطاب التكليف الذي أصدره في ٢ محرم سنة ١٩٢١ه الموافق ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ م .

⁽١) د.نسيم مقار : مصر وبناء السودان الحديث ؛ مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع ،

لشارل جورج غردون؛ والذي كلفه الخديوي اسماعيل بفيادة حمله اخرى للفضاء على النخاسة في السودان ؛ و جاء في هذا الخطاب:" بحسب المشهود فيكم من اللباقة والأهلية قد عيناكم مأموراً على جهة خط الأستواء التابعة للحكومة ؛ وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان؛ وصارت قائمة بنفسها ؛ وعند وصولكم لتلك الجهات وإختباركم أحوالها تحروا ترتيبها بحسب ما يتراءى لكم وتستحسنوه امع معاملة أهليها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيه عماريتهم ؛وترغيبهم وتشويقهم على العمارية ودخولهم في سلك الإنسانية شيئاً؛ فشيئاً وأرجو منكم أن تتجنبوا الوقوع في الخطاء الذي وقع فيه غيركم؛ فكان له عواقب وخيمة يحاولون اليوم علاجها؛ أعنى نقص المؤن؛ فقد اعتمدوا على القبائل المجاورة غير حافلين بطول المسافات بوبصعوبة المواصلات مع الخرطوم؛ وأهملوا الزراعة فاضطروا أخيرا إلى الاستيلاء على محصولات الذرة من قبائل كان عليهم أن يشيعوا بين ظهرا نيها الثقة والطمائنينة ؛ويكونوا لها مثلاً يحتذى به؛لذلك زالت الثقة؛ فلا بد من إعادتها؛ فعليكم أن تقيموا في مكان تصلح فيه الأرض للزراعة وتنتج .. والمسألة الأخيرة التي ينبغي على تناولها تختص بعلاقتنا مع رؤساء القبائل الضاربة على شواطىء البحيرات ؛ووصيتى الوحيدة في هذا الشأن أن تتجنبوا كل عمل يخيفهم وينفرهم؛ فيجب أن تعملوا ما استطعتم على كسب تقتهم ؟ وطلبا لهذه الغاية يلزمكم أن تحترموا بلادهم وتستميلوا الرؤوساء بالهداياء وتبذلوا الجهد في المحافظة على الأمن بين القبائل بما تكسبونه ولا شك من بالغ النفوذ؛ وعليكم أن تحاولوا منع الحروب التي يشنها الرؤوساء بعضهم على بعض لصيد الرقيق "(١)

⁽۱) عابدين ::المعية دفتر رقم ١٩٤٨ (أو امر عربى) مكاتبة رقم ٩١ بناريخ ٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ١٢٩١هـ /١٩ فبراير سنة ١٨٧٤م ١ نقلاً عن د. نسيم مقار : مصر وبناء السودان الحديث.

ويظهر فهم إسماعيل لطبيعة وتاصل جذور مؤسسة الرق فى السودان وصعوبة القضاء عليها بضربة واحدة ، وفى ذلك يقول الخديوى اسماعيل فى نفس الخطاب : .." ولكن أوصيك فى هذا الشأن بأشد الحذر ؛ ففى البدء قد يكون من المحال منع الحروب بين القبائل منعا باتاً، على أنه يجب الاحتراس من نزوع الظافرين إلى الفتك بأسراهم ؛ ما داموا لا يستطيعوا الإتجار بهم".(١)

كما حدد الخديوى اسماعيل أيضا لغوردون مهمته فيما يتعلق بالقضاء على النخاسة ؛ ومحاربة تجار الرقيق في نفس الوثيقة السابقة ... " أود وأنتم على أهبة الوصول إلى الأقاليم التي وليتكم عليها أن ألفت نظركم إلى النقطة التي حدثتكم فيها من قبل ؛ أن الأقاليم الأستوائية هي مناطق مجهولة وكان يشغلها إلى العهد الأخير بعض مغامرين يتاجرون في العاج إلى جانب إتجارهم بالرقيق متوسلين كما تعلمون بإنشاء مراكز تجارية (أوزرايب) يستخدمون فيها رجالاً مسلحين ؛ ويمارسون أعمال المبادلة بالوسائل القهرية مع القبائل المجاورة أيام لم تكن هذه الأقاليم قد ألحقت بحكمدارية السودان ؛ وعليكم تطبيق القواتين العسكرية في كامل شدتها على من تسول له نفسه المضيى في تجارته والمداومة على أعمال النهب بطريقة سافرة ؛ أو خفية فهؤلاء يجب ألا يلقوا عندكم رحمة أو شفقة ؛ وقد آن الآوان لأن يعلم الجميع أن فرق اللون لا يحول البشر إلى سلعة ؛ وأن الحياة والحرية مقدستان (٢).

وقد غادر جوردون القاهرة فى فبراير سنة ١٨٧٤م ؛ فوصل عن طريق سواكن إلى الخرطوم فى ٣١ مارس سنة ١٨٧٤م ؛ وأصدر بعد ثلاثة أيام من وصوله إلى الخرطوم أمراً بمنع دخول أى فرد إلى المنطقة الأستوائية بدون

⁽۱) عابدین: المعیة - دفتر رقم ۱۹۶۸ (أو امر عربی) مكاتبة رقم ۹۱ محرم سنة ۱۲۹۱ه ۱۹ فبر ایر سنة ۱۸۷۶م.

⁽٢) نفس المرجع،

الحصول على تصريح مسبق بذلك من الادارة ؛ كما أصدر قراراً أخر بتأميم تجارة العاج وإحتكارها لصالح الحكومة بعد أن تبين ارتباط تجارة العاج بتجارة الرقيق ؛ ومنع بصورة حاسمة إنشاء الميليشيات المسلحة في مناطق المديريات الاستوائية ؛ كما منع إدخال الأسلحة النارية والبارود إلى هذه المناطق ؛ وأنشاء جوردون سلسلة من المحطات العسكرية بالمديريات الاستوائية بلغ عددها ١٢ محطة في فويره ؛ وفاتيكر ؛ والابر اهيمية ؛ واللابورية ؛ والرجاف ؛ ومكركة واللادو ؛ واللاتوكة ؛ وبور ؛ وشامبي ؛ والناصر ؛ وسبت ؛ وقد قامت هذه المحطات بجانب محاربة النخاسة ومكافحة تجارة الرقيق في المناطق الاستوائية بدور كبير أيضاً في تقديم الخدمات التعليمية والصحية للأهالي في هذه الاقاليم(١).

وفى نفس الوقت الذى كان جوردون بتقدم فيه فى اقاليم المنطقة الاستوائية لمكافحة النخاسة فى هذه الاتحاء ؛ كانت الاحداث تتطور على نحو أفضل فى إقليم بحر الغزال بمديرية دارفور ؛ ولكن هذه المرة على يه المصريين بمفردهم فقد كانت هذه المناطق من أكبر مناطق النخاسة فى العالم ؛ وعند ضم هذه المناطق للإدارة المصرية على يد الزبير رحمت والذى حصل فى حينه على دعم من القوات المصرية ؛ قام اسماعيل باشا أيوب الحكمدار المصرى للسودان بعد دخوله إلى المنطقة بإطلاق سراح جميع الرقيق الذى صادفهم فى طريقه حتى بلغ عدد من تم عتقهم بأوامر منه اكثر من ألف وستمائه عبد (٢).

وكانت السياسة المتبعة من قبل الادارة المصرية في السودان تجاه الرقيق الذي تم تحريرة تقوم في الأساس على الحاقهم بالعمل في أعمال الزراعة

⁽١)د نسيم مقار : مصر وبناء السودان الحديث ؛ مرجع سابق.

⁽۲) الدكتور محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى في السودان (۱۸۲۰ - ۱۸۸۰). القاهرة ١٩٤٧.

أو الحاقهم كجنود بالقوات المصرية وحتى تعليم الصغير منهم ؛ وهي السياسة التي وضعها الخديوي اسماعيل بنفسه في الامر الذي أصدره إلى مدير عموم قبلي السودان بتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨ مايو سنة ١٨٧٣م والذي جاء فيه: " أنه مع ما صدرت من أوامر وتنبيهات الحكومة مكررا بالتأكيد والتشديد في إبطال التجارة في جنس الرقيق ؛ وحصول الملاحظة والدقة في ذلك من ساير مأموري الحكومة ايجب اذا كان يصادف دخول رقيق في حدود الجهات التي تحت ادارتكم ايجب عليكم بالحال إخراج وإطلاق ذلك الرقيق ؛ واعطاؤه أوراق الحرية المطلوبة من الحكومة بمعرفتكم إلى آخر حدود الحكومة فقط ؛ بحيث أن هذا يكون مع التحقيق لكم عن إمكان رجوعه إلى أهله ؛بدون أن يتمكن أحد من إعادته بصفة رقيق مرة أخرى ؛ وأما الذين لايمكنهم العودة إليها فتحروا استعمالهم في أشغال الزراعة والحراثة ؛ ومن يكون منهم صغير السن ذكورا أو اناثا تحدوا الحاقهم بالمكاتب للتعليم والبنات القابلة للزواج يجرى زواجهن لمن يرغب ويريد ؛ كما أنه إذا كان يوجد رقيق معروض للبيغ في مراكب تعلق الأهالي فتحروا ضبط المراكب المذكورة وتطلقوا الرقيق منها وتعطوه الحرية الملازمة وتحروا فيه كما ذكر آنفا(١)

وعلى الرغم من كل هذه التوجيهات التى حرص الخديوى اسماعيل أن يقررها بنفسه فى خطاباته وأوامره إلى جوردون ورجال الأدارة المصرية الأخرين فى السودان ؛ إلا أن جوردون لم يستطع سوى إتخاذ إجراءات صارمة وعنيفة فى مواجهة سطوة تجار الرقيق فى السودان ؛ وعمليات النهب والقتل الواسعة التى كانت تقوم بها الميليشيات التابعة لهؤلاء ضد القبائل الزنجية لاصطياد أفرادها ؛ ثم بيعهم كرقيق ؛ إلى جانب تضرر مصالح التجار الآخرين

⁽١) عابدين (المعية):نفتر رقم ١٩٤٦ ، أوامر عربي ص ٦٥ ، رقم ١٦

الذين تأثرت أوضاعهم ونشاطهم التجارى بإجراءات الادارة المصرية ضد تجارة الرقيق التى كانت تمثل عصب الاقتصاد فى السودان حتى هذه الفترة ولفترة تألية ومثلت أيضاً وسيلة هؤلاء التجار فى تسديد قيمة البضائع التى يستوردونها من مصر والأسواق الأخرى المحيطة بهم ؛ كل هذه الأوضاع بالإضافة إلى ما لا يمكن تجاهله من أن مؤسسة الرق فى السودان وعلاقات الاسترقاق كانت ذات جذور ضاربة فى المجتمع السودانى .

كما حدث أن قام غوردون بإجراءات أخرى أتسمت أحيانا بعدم الاخلاقية كان من أبرزها قيام غوردون بتدبير مؤامرة لاغتيال سليمان بن الزبير ؛ وهو أحد كبار التجار في السودان الشمالي والأوسط ؛ وهو في نفس الوقت ابن الزبير رحمت ؛ أحد كبار زعماء العشائر في شمال السودان ؛ والذي أشتهرت عشيرته بالولاء بإستمرار للإدارة المصرية ؛ وصاحب الفضل الكبير في ضم أقليم دارفور بكامله للحكم المصري(۱).

كل هذه الاجراءات تسببت في تذمر التجار الذين تضررت مصالحهم وفقدوا بالفعل ثلثى تجارتهم التى كانت مرتبطة بتجارة الرقيق ؛ وهى السلعة التى كانت مثل وسيلة هؤلاء التجار لتسديد قيمة البضائع التى كان كانوا يقومون بإستيرادها من أسواق مصر والأسواق الأخرى المجاورة ؛ كما أن ما كانت تمثله مؤسسة المرق في السودان من نظام إنتاجي وإجتماعي ؛ وتأصل جذور هذه المؤسسة داخل المجتمع السوداني ؛ كل هذه العوامل دفعت بالتجار السودانيين وفئات أخرى من الأرستقر اطية السودانية إلى التعاون مع تجار الرقيق في مساعيهم لتأليب الناس العاديين ضد الأدارة المصرية في السودان ؛ وهو الأمر الذي ساعد في النهاية محمد أحمد المهدى وأتباعه على القيام بثورتهم ضد الحكم المصري في إطار ما عرف تاريخياً بإسم الحركة المهدية ؛ التي أجبرت القوات المصرية

Gessir: Seven years in the Sudan ,London 1892.

على الإنسحاب من كل المناطق التي استطاعت الوصول إليها في السودان الجنوبي ؛ ومناطق المديرية الأستوائية ؛ ومناطق أخرى من السودان الذي وقع بأكمله تحت نفوذ المهديين .

وفى ٤ أغسطس ١٨٧٧ وقعت بريطانيا مع مصر ؛ والتى بدأت تعانى منذ سنوات من ضغط الديون التى أسرف إسماعيل فى إقتراضها ؛ معاهدة لتحريم تجارة الرق ومكافحة النخاسة فى أفريقيا ؛ وكانت هذه المعاهدة تركز على إتخاذ إجراءات صارمة وعنيفة ضد الجلابين الذين تخصصوا فى توريد الرقيق الأسود بعد إصطيادهم إلى أسواق النخاسة فى مصر والشام والجزيرة العربية .

وقد نصت هذه المعاهدة على السماح للطرادات البريطانية بتفتيش السفن المصرية في البحر الأحمر ؛ وخليج عدن ؛ والساحل الصومالي ؛ ومياه الجزيرة العربية ؛ وحتى في داخل المياه المصرية نفسها ؛ كما أعطت نفس المعاهدة مصر الحق في تفتيش السفن التي تحمل العلم البريطاني ؛ وإن ظل هذا النص شكلياً وبصفة عامة فقد نصت المعاهدة على إعتقال أصحاب وبحارة السفن التي تضبط وهي تحمل رقيقاً ؛ على أن يتم محاكمة هؤلاء في محاكم الدولة التي تحمل السفينة علمها (۱) .

وبمقتضى هذه المعاهدة أيضاً تم تعيين شارل جورج غوردون حاكماً عاماً على السودان بأكمله بما فى ذلك مناطق أعالى النيل والمديرية الإستوائية ؛ وعلى الرغم من السياسات العنيفة التى إنبعها غوردون فيما يتعلق بمكافحة النخاسة ؛ إلا أنه إضطر لإظهار مزيد من المرونة حول نفس المسألة بسبب تكتل كبار الأعيان والتجار ورؤساء العشائر ضد إدارته بعد أن تسببت إجراءات مكافحة النخاسة فى أن يفقد هؤلاء الجزء الأكبر من تجارتهم ومواردهم ؛ فوافق على تعيين الأمير

⁽١) أحمد شفيق باشا: مذكراتي في نصف قرن ؛ مرجع سابق،

عبد الشكور ؛ ابن الأمير عبد الرحمن سلطان دارفور السابق سلطانا جديداً على مديرية دارفور ؛ وصاحبه بنفسه في قطار خاص حتى كورسكو ؛ وبرفقة الأمير عبد الشكور أكثر من أربعين جارية من ضمن عدد أكبر من إمائه ممن كان قد إصطحبهن معه إلى القاهرة نفسها ! كما أصدر غوردون في مارس سنة ١٨٨٤ م منشورا إلى الأهالي لإستمالتهم تضمن : تخفيض الضرائب التي المحملها إدارته إلى النصف وإعلاناً بأنه أمر بإحراق دفاتر الحكومة التي بها المتأخرات من الضرائب وأباح لهم أيضاً الإتجار في الرقيق !

وعلى الرغم من هذه الإجراءات وبصفة خاصة السماح ببيع وشراء الرقيق بغرض الربح ؛ وهوالأمر الذى فرغ السياسات السابقة لمكافحة النخاسة فى السودان من مضمونها ؛ فإن غوردون فشل تماماً فى السيطرة على الأوضاع المتدهورة فى السودان ؛ ووقف أنشطة المهديين الذين حاصروا مع العشائر السودانية الموالية لهم الخرطوم نفسها ؛ وهو الحصار الذى تسبب فى إفلاس الإدارة الحكومية تماماً ؛ حتى أن غوردون قام بطبع عملة ورقية عديمة القيمة من الناحية العملية ؛ وفرض التعامل بها على الأهالي والتجار الموجودين داخل الخرطوم ؛ وامر بمحاكمة من يرفض قبولها ؛ كما رفض الزبير رحمت باشا مساعدة غوردون ؛ والذى قام سلفه صموئيل بيكر بتدبير مؤامرة لإغتيال إبنه سليمان ؛ وإتهم الزبير نفسه بعد ذلك بالتعاون مع المهديين بعد أن رفض عرضه غوردون بأن يكون وكيلاً لحكمدارية عموم السودان .

وكان غوردون قد قدم هذا العرض إلى الزبير بعد أن رفض المهدى رسالة غوردون الذى عرض عليه فيها أن يتم تعيينه من قبل الإدارة سلطاناً على كردفان وقيام المهدى برد هدية غوردون له ؛ وهي عبارة عن كمية من الملابس المزركشة بالقصب والمموجة بالذهب.

وبالإضافة إلى ذلك فشلت الحملة التى أرسلتها الحكومة الإنجليزية بقيادة الجنر الين جراهام وبيكر لإنقاذ غوردون ؛ كما تراجع الجنر ال ولسلى وقواته عن

إتمام نفس المهمة بعد أن وصل إلى كورنى فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٤ ودخل فى معارك مع قوات المهديين بعد أن علم أنه قد تم قتل غوردون نفسه و هدم مقر إقامته داخل الخرطوم .

ولم تمر بعد ذلك شهور حتى صدرت الأوامرمن لندن للبرنس حسن باشا شقيق الخديو توفيق؛ والذى تقرر أن يتم تعيينه معتمدا سامياً للسودان بالعودة إلى مصر بعد أن غادر ها بالفعل إلى وادى حلفا فى طريقه إلى تولى سلطاته الجديدة فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٥م؛ وذلك بعد أن خشيت بريطانيا والباب العالى فى الأستانة ؛ والذى وافق على تعيين حسن باشا فى هذا المنصب من أن يستغل الأوضاع المتردية فى السودان فى تأسيس ملك جديد خاص به(١) وبذلك تكون السلطات المصرية قد فقدت من نفوذها فى السودان وتوقفت الجهود التى صاحب هذا التواجد لمكافحة النخاسة فى السودان .

والمفارقة التي حدثت بعد ذلك أنه على الرغم من عودة النخاسة في السودان مع إنتصار المهديين؛ الذين حاولوا مكافأة كبار التجار ورؤساء العشائر على مساندتهم للثورة؛ فإن المهديين عمدوا إلى فرض إجراءات صارمة للرقابة على حركة تجارة الرقيق بالمناطق التي سيطروا عليها في السودان؛ وذلك لمنع وصول الرقيق الأسود إلى مصر؛ والتي إستمر تداول الرقيق فيها متواجد في إطار المرحلة الإنتقالية التي حددتها معاهدة سنة ١٨٧٧ بسبع سنوات داخل القطر المصرى وإثنا عشر عاما في الملحقات التي كانت تتبع خديوى مصر وتشمل السودان؛ وكان يسمح بإنتقال الرقيق من ملكية شخص لآخر داخل نفس الأسرة ولم يقرر الأمر تحرير الرقيق بالفعل إلا لمن يطلب ذلك منهم؛ وإعتبر القانون الجيل الموجود من الرقيق جيلاً إنتقالياً يمكن أن يستمر على حالة الرق حتى

⁽١) أحمد شفيق باشا ، مذكر اتى في نصف قرن ، مرجع سابق.

ينقرض ؛ كما حدد القانون عقوبة الأشغال الشاقة لمدة تنراوح ما بين خمسة أشهر وخمسة سنوات لمن يعمل بالنخاسة .

وكانت فكرة المهديين من سعيهم لمنع تدفق الرقيق الأسود من السودان إلى مصر هو حرمان السلطات المصرية من إستخدام هذا الرقيق بعد أن يتم تحريره في أعمال المجهود الحربي ضد قوات المهديين ؛ والتي كانت تستعد لإختراق الحدود المصرية نفسها بعد أن أعلن التعابشي خليفة محمد أحمد المهدى عن نيته في فتح مصر ؛ وكلف قائده عبد الرحمن ولد النجومي بذلك ؛ والذي وصل بالفعل إلى توشكي داخل الحدود المصرية حيث لقي مصرعه في ٣ أغسطس سنة بداية إجراءات جديدة اتخذها الإنجليز لإعادة فتح السودان ؛ وكانت هذه الهزيمة بداية إجراءات جديدة اتخذها الإنجليز لإعادة فتح السودان ؛ثم توقيع معاهدة الحكم الشودان أو تصديره منه؛ وإعلان أن "ما من شخص ولد بعد إعادة الفتح في عام السودان أو تصديره منه؛ وإعلان أن "ما من شخص ولد بعد إعادة الفتح في عام المودان أو تصديره منه؛ وإعلان أن "ما من شخص ولد بعد إعادة الفتح في عام

وقد حرص السردار كتشفر باشا؛ قائد الحملة التى أعادت فتح السودان ؛ على الا يرتكب نفس أخطاء سلفيه بيكر وغوردون فى إتخاذ إجراءات صارمة وعنيفة فيما يتعلق بمكافحة الرق فى السودان ؛ ولإدراكه أن إدارة الحكم الثنائى لن تتوافر لها موارد مالية كافية لإستيعاب الرقيق الذى سيتم تحريره ؛ وخشيته من أن تؤدى أى إجراءات لتحرير الرقيق بصورة فورية إلى تكوين طبقة كبيرة من الأرقاء السابقين الذين لا يستطيعون كسب قوتهم بأنفسهم ؛ وحتى لا يؤدى ذلك أيضاً إلى ثورة ملاك الرقيق من المواطنين السودانيين العادبين .

⁽١) محمد ابر اهيم نقد . علاقات الرق في المجتمع السوداني . مرجع سابق.

لذلك أصدر كتشنر في مارس سنة ١٨٩٩ مذكرة سرية لمديري المديريات في السودان جاء فيها: "أن الرق ليس نظاما معترفا به في السودان؛ ومع ذلك فطالما كان الرقيق يقدم خدماته طوعا لسيده؛ فما من ضرورة للتدخل في هذه العلاقة وإني لأترك لكم وفقا لحسن تقديركم حق إختيار أنسب الوسائل للقضاء على عادة الإعتماد على عمل الرقيق؛ والتي ظلت لفترة طويلة جزءا من تعاليم الدين والأعراف في هذا البلد؛ والتي يستحيل إستنصالها دون صدمة قوية لمشاعر أهل البلد الأحرار ورفاهيتهم" (۱) .

والمفارقة الأخرى التى حدثت هو أن إنتصار القوات المصرية بقيادة كتشنر على المهديين أدى في الواقع إلى إنتعاش النخاسة في أرجاء السودان ؛ وذلك بعد أن استولت القبائل النيلية ؛ والتيكانت تناوئ المهديين ؛ على الأرقاء المملوكين لقبائل التعايشة والأنصار الذين فروا من وجه القوات المصرية من أم درمان عاصمة المهديين وباقي أقاليم السودان الأوسط ؛ وكانت أن إكتظت خلجان ومرافئ البحر الأحمر بالرقيق ؛ والذي كان يتم تصديره في هذه المرة إلى الجزيرة العربية (٢) .

و في ظل الفوضى التى اجتاحت السودان عشية هزيمة المهديين ؛ وبصفة خاصة فى الفترة التى سبقت بسط إدارة الحكم الثنائى لسلطاتها على انحاء السودان ؛ نجد أنه وحتى بالنسبة للمتعاونين مع الادارة الجديدة ؛ فإن هؤلاء قاموا هم أنفسهم بالإتجار فى الرقيق ؛ فنجد على دينار الذى تولى السلطة فى دارفور يرسل فى يوليو سنة ١٩٠٠ ببرقية إلى كتشنر يبلغه فيها أن عبد الرحيم أبو ضقل ؛ الذى كلفته إدارة الحكم الثنائى بملاحقة قوات المهديين ؛ قام بنهب

⁽١) أرشيف السودان: جامعة درم حافظة ٢٠٤٠٦ ؛ نقلاً عن محمد ابراهيم نقد ؛ علاقات السرق في المجتمع السوداني ، مرجع سابق.

⁽٢) نفس المرجع،

79. رأساً من الرقيق وبيعهم لحسابه ؛ وفي ١١ ديسمبر سفة ١٩٠٣ يكتب كتشفر إلى اللورد كرومر بالقاهرة أن على دينار قد كلف أتباع له بنقل رقيق من دارفور وقاموا ببيعهم علفاً في سوق أم درمان دون أن تتعرض لهم السلطات اكما قام في وقت لاحق بإتخاذ نفس الإجراء الذي سبق للمهديين أثناء صراعهم مع مصر بتنفيذه فيما يتعلق بتقبيد الإتجار في الرقيق الذكور تحسباً لمواجهة محتملة مع إدارة الحكم الثنائي .

وفي عام ١٩٠٤ قامت إدارة الحكم الثنائي بتنفيذ حكم الإعدام في تاجر الرقيق إبراهيم ولد محمود وأفراد ميليشتيه ؛ الذين قاموا بإفراغ منطقة قمبيلا بالكامل على الحدود السودانية الأثيوبية من سكانها بغزواتها المتواصلة لصيد أبناء هذه المنطقة ثم بيعهم كرقيق ؛ وخلال الفترة من ١٩٠٥ م إلى ١٩١٥ م قامت إدارة الحكم الثنائي بتنفيذ حكم الإعدام في خمسة عشر شخص آخر أدينوا بممارسة النخاسة ؛ وحتى نهاية العشرينات استمرت النخاسة في أنحاء مختلفة من السودان ففي ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٩ بعث مدير مديرية الفونج برسالة إلى المدير الإداري جاء فيها : أن أسرة الشيخ خوجلي لا تزال تمارس النخاسة في المديرية ؛ كما أشار التقرير أيضاً إلى أنه تم إعتقال إمرأة تدعى "الست آمنة " كانت تدير عمودية مستقلة على الحدود بين السودان وأثيوبيا ؛حيث قدمت للمحاكمة وأدينت بممارسة النخاسة .

وبالإضافة إلى ذلك إتخنت الإدارة إجراءات أخرى لمواجهة تحايل النخاسين على قوانين مكافحة النخاسة ؛ فطالما ملكية الرقيق وإنتقاله من أسرة لآخرى داخل القطر المصرى مباحا أثناء الفترة الإنتقالية فقد مثلت هذه النقطة مدخلا لتجار الرقيق لإدخال رؤوس رقيق جديدة إلى مصر ثم إدعاء ملكيتها لأسرة مصرية ثم التصرف عليه بعد ذلك بالبيع أو الشراء ؛ لذلك فرضت سلطات البحر الأحمر تأمين على كل طفل مسافر بصحبة أحد المسافرين إلى مصر على أنه خادم للمسافر ؛ أو تابع له أو حتى كإبن ؛ وتم تحديد قيمة هذا

التأمين الذي وصل إلى ٥٠ جنيهامصرياعلى كل طفل بحيث يكون أعلى من السعر السائد للغلمان في مصر ؛ كما لوحت السلطات بوضع المادة الرابعة من معاهدة ١٨٧٧ موضع التنفيذ وهي المادة الخاصة بمكافحة إختطاف الغلمان والمتاجرة بهم حيث وصفت المادة جريمتي الإختطاف أو الإتجار بالغلمان كجرائم قتل تستوجب عقوبة الإعدام ويكون الحكم عليه بواسطة حكم عسكرى.

وفي مصر كانت قصور الخديوي إسماعيل نفسه ؛ الذي كان أول من أخذ على عاتقه إتخاذ إجراءات جدية لمكافحة النخاسة ؛ مليئة بألاف الجوارى ؛وكانت الجوارى في قصور الخديوي إسماعيل تقوم بوظائف مختلفة ؛ فكانت منهم فرق خاصة للرقص والغناء والعزف على الآلات النحاسية والوترية ؛ والجوارى المخصصات لخدمة أميرات الأسرة الخديوية وكن يعرفن بأسم " القلفاوات "وكان يتم تخصيص عدد من هؤلاء القلفاوات ليكونوا في إستقبال زائرات أميرات القصر الخديوي ؛ وكان يطلق على هؤلاء الجوارى اسم الشاويش وكان يتم إختيار هن من الجوارى الوسيمات الرشيقات ذوات القامة الطويلة ، وكن يحملن دائما أثناء عملهن عصا مفضضة غليظة !

وكانت هناك قلفاوات أخريات توزع عليهم وظائف خاصة داخل قصر الخديوى من خازندارة ؛ وشماشرجية وطاهيات ، وكان لهؤلاء القلفاوات أنفسهن خادمات من الإماء السود ؛ وكان يتبع كل واحدة منهن أيضاً عدد من الفتيات اللاتى يقمن بتدريهن على أعمال الخدمة لأميرات العائلة الخديوية .

كما كان للخديوى إسماعيل ؛ والذى اشتهر ببذخه الشديد أسراب كبيرة من المجوارى الخصوصات أو الحظايا ؛ وقد إعتاد الخديوى إسماعيل أن يعتق أعداداً من هؤلاء الجوارى ؛ ويختار أزواجاً لهن من بين رجال حاشيته أو حتى نظاره ؛ وكان هذا سببا فيما بعد لأن تكون كل الأسر التى كونت فيما بعد ما أصطلح على تسميته بالطبقة الأرستقراطية في مصر ذات الثقافة التركية أو

الشركسية قد تكون من زواج مصريين من إماء معتوقات سواء كن من جوارى القصر الخديوى .

ويقول أحمد شفيق باشا في مذكراته: أن والدته نفسها كانت جارية شركسية من معاتيق السيد على البكرى ؛ كما حملت عائلات أخرى ألقاب هي في حقيقتها لأسماء الوظائف التي كانوا يقومون بها قبل عقهم داخل قصور العائلة المالكة وأسرها ؛ مثل الشماشرجي والخاندار والجمركشي ؛ وكان أشهر هؤلاء الرقيق المعتوق الذي كون فيما بعد هذه الطبقة: العشي باشا ؛ والأسطى إبراهيم ؛ والد محمود باشا فهمي ؛ وكان طاهي القصر الخديوي ؛ ومحمد بك الناغي السفرجي الخاص للخديوي إسماعيل ؛ كما جاءت إلى مصر عائلات بأكملها من الجراكسة بيعوا في أول الأمر كرقيق ؛ وإقت ناهم أعيان المصريين ؛ والذين كانوا يستمتعون بالإناث من هذه الأسر؛ شم ما تلبث هؤلاء الجواري أن تحظى لدي مالك أسرتها وتنجب منه فيعتق باقي عائلتها إكراماً لولده منها ؛ والذين كانوا يسعون على الفور للإلتحاق بوظائف الجيش أو الإدارة ؛ وكان هذا سببا رئيسياً في الصعود الإجتماعي لهؤلاء .

وبصفة عامة فإن تحلل علاقات الرق داخل مصر قد تم فى هدوء وبدون أن يصاحب ذلك أى شكل من أشكال الصراع الأجتماعي مثل الذي ظهر في السودان أو في أي بلد آخر ؛ فلم يدخل الرقيق في مصر أبدا في صراعات أو مواجهات مع أسيادهم ؛ سواء كان هؤلاء السادة من أعضاء الأسر النبيلة ؛ أو حتى من المصريين العاديين .

وكان النموذج التقليدى لحصول رقيق على حريته من سيده هو أن تنتهى الفترة الإنتقالية التى تم تحديدها للسماح بإنتقال رقيق من ملكية أسرة لأخرى ؛ ثم يظل هذا الرقيق في خدمة سيده الذي إنتهت إليه ملكيته لأنه كان يعجز غالبا عن كسب قوته بنفسه ؛ أو أنه اعتاد على العيش في كفالة سيد يعوله ؛ أو أن العمر قد تقدم به ؛ وكان هذا النموذج سائدا بصفة خاصة بالنسبة للإماء السود المجلوبات

من النوبة أو السودان أو الحبشة ؛ فقد كانت هذه الإماء نستمر غالبا فى خدمة أسيادهن ؛ أو يعملن كمرضعات ؛ أو مربيات للأطفال ؛ وكان أبناء هولاء الرقيق يخرجون كأحرار ؛ ويندمجون بسهولة داخل المجتمع المصرى؛ والذين لم يظهر فيه من جراء ذلك أى مشاكل أو حساسيات إجتماعية تتعلق بقبول هؤلاء كأعضاء على قدم المساواة مع المصريين الآخرين؛ وهى الحساسيات التى ظهرت في بلدان أخرى ومنها مجتمعات أخرى مجاورة .

وقد قامت السلطات الإنجليزية بإنشاء مصلحة خاصة لمناهضة الرق كان مقرها القاهرة وتتبع وزارة الداخلية ؛ وكانت تعرف باسم "قلم منع تجارة الرقيق " ؛ وتقوم هذه المصلحة بمنح الأرقاء الذيبن يلجئون إليها أو يتم ضبطهم أثناء عمليات النقل والبيع أوراق حرية كان يتم التصديق عليها من قبل القاضى الجزئي وتصدر باللغتين العربية والإنجليزية لتقول أن حاملها قد أصبح "حراً "وقد ظهر أن كل أوراق الحرية التي أصدرتها هذه المصلحة تم منحها لرقيق أسود حيث لم يكن الرقيق الأبيض من أصول تركيبة أو شركسية يعاني أو حتى يشعر بأي مهانة إجتماعية ؛ وبصفة خاصة من الإناث ؛ اللاتي كن يحظين لدى أسيادهن .

وقد منحت هذه المصلحة في سنة ١٩١١م عدد ٣٠ ورقة حرية لأرقاء سود بمدن القاهرة ؛ والإسكندرية ؛ والسويس ؛ وبنها ؛ والفيوم ؛ والبحيرة ؛ وأسوان وفي عام ١٩١٢م أصدرت المصلحة ٢٦ ورقة حرية أخرى ؛ وفي عام ١٩١٣م أصدرت ٤٤ ورقة وفي عام ١٩١٤م ٦٤ ورقة ؛ و٥ أوراق فقط في عام أصدرت ٤٤ ورقة وفي عام ١٩١٦م و المنازع ورقتان عام ١٩١٧م ، ثم ظلت المصلحة طوال سنوات ١٩١٨ ؛ ولم تصدر سوى ورقتان عام ١٩١٧م ، ثم ظلت المصلحة طوال سنوات ١٩١٨ ؛ ١٩١٩ ؛ ١٩٢٠ ؛ بدون أن يتقدم إليها أحد للمطالبة بالحصول على حريته ؛ أو أن يقوم احد ضباطها بضبط حالات نخاسة يمكن أن تصدر المصلحة أوراق حرية لضحاياها؛ ثم أصدرت المصلحة ورقة حرية واحدة في عام ١٩٢١م ؛ ولم تصدر أي أوراق حرية عام ١٩٢٢ ورقة حرية واحدة في عام ١٩٢١م ؛ ولم تصدر أي أوراق حرية عام ١٩٢٢

ثم أغلقت المصلحة مركزها الرنيسى بالقاهرة وإنتقلت بضباطها وموظفيها إلى السودان (١) ،

وفي سبتمبر سنة ١٩٢٤ تنشر مجلة المرأة الجديدة في عددها الرابع الخطاب الذي ألقته هدى شعراوى أمام مؤتمر برلين لمنع الإتجار في الرقيق ؛ وتقول المجلة أن هدى هانم شعراوى قد حضرت المؤتمر ممثلة للمرأة المصرية وقدمت فيه مذكرة باسم وفد مصر تطالب بتحرير الرقيق وتجريم الإتجار فيه (٢) .

وكانت قد تفجرت في ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ أشهر قضية نخاسة شغلت الرأى العام في مصر والخارج ؛ فقد إعتقل ضباط قلم منع تجارة الرقيق فجأة وعلى غير المتوقع "على باشا شريف " رئيس مجلس شورى القوانين ؛ وثلاثة آخرين من كبار الأعيان في مصر ؛ هم محمد باشا الشواربي وحسين باشا واصف من المديرين السابقين والدكتور عبد الحميد الشافعي؛ وكانت التهمة التي ألقى القبض عليهم بسببها هي شراء رقيق بعد إنتهاء الفترة الإنتقالية التي حددها الأمر الخديوى الذي صدر لتفسير معاهدة ١٨٧٧ م؛وكان السبب في تفجر القضية على هذا النحو؛ وإنشغال الرأى العام بها المعاملة السيئة التي لقيها شريف باشا رئيس مجلس شورى القوانين ورفاقه؛ والذين ألقى بهم في الحبس بقسم شرطة عابدين والذي لم يفرج عنهم أوعن رئيس مجلس شورى القوانين نفسه الإبعد تدخل القنصل الإيطالي لصالحه بإعتباره رعية إيطالية نظرا لتمتعه بالحماية الإيطالية وهو النظام الذي كان متبعاً في ذلك الحين وتقوم بمقتضاه قنصلية كل دولة من الدول الأوربية بضمان مواطنيها على ألا يكونوا مسئولين إلا أمام قناصل دولهم وهو النظام الذي كان يستفيد به أيضا بعض المصريين ؛ وقد أدى تدخل القنص الإيطالي لضمان شريف باشا في هذه القضية إلى إستدعاء القنصل إلى بالده بعد

⁽١) محمد إبر اهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني ؛ مرجع سابق.

⁽٢) مجلة المرأة المصرية: العدد الرابع - السنة الأولى ؛ سبتمبر ١٩٢٤، ص ٢١.

أن رأت الحكومة الإيطالية أن قنصلها قد أخطأ بالتدخل للإفراج عن شخص متهم بشراء رقيق حتى لو كان هذا الشخص رعية إيطالية ؛ وفى نفس الوقت رئيس مجلس شورى القوانين فى مصر ؛ كما لم يفرج عن رفاق شريف باشا إلا فى ٢٨ أغسطس بعد أن ضمنهم عثمان ماهر باشا .

وكان السبب في هذه المعاملة المهينة التي لقيها هؤلاء وبصفة خاصة شريف باشا ؛هو أن مجلس شورى القوانين الذي يرأسه الأخير كان قد بدأ في المطالبة بوضع دستور للبلاد؛ ودخل في صبراع مع اللورد كرومبر الحاكم الفعلى لمصبر في ظل الإحتلال الإنجليزي؛ وبدأت جلسات المجلس فيذلك الوقت تحفل بالإنتقادات الموجهة إلى سياسات المستشارين الإنجليز في الوزارات والدوائر الحكومية المصرية؛ وتطالب بتخفيض مرتباتهم أوحتى إلغاء وظائفهم بما في ذلك جيفر بك رئيس قلم مصلحة إلغاء الرقيق؛ وكان أن استغل جيفر بك تورط شريف باشا في هذه القضية في أن يوجه إليه لطمة قضت فيما بعد عليه ؛والذي مات بعد هذه الواقعة بعامين بعد أن قدم إستقالته من المجلس.

وكانت حليمة وفاطمة ومراسيلة وزنوبة وسعيدة ومريم؛ وهن إماء حبشيات جئن بصحبة نخاس مغربي وجالب بدوى عبر واحة جغبوب على الصدود المصرية الليبية ؛ وتم إدخالهن إلى القاهرة عبر الصحراء في أثناء تغيب ضابط نقطة كرداسة الذي كان منتدباً لميناء السويس لمتابعة عودة الحجاج ؛ وقد دفع شريف باشا ٢٠ جنيه مصرياً فقط كثمن لثلاث جوارى من هؤلاء؛ كما دفع كل واحد من المتهمين الأخرين ثمن مناسب للجارية التي إشتراها.

وفى هذه الفترة لم يكن المجتمع المصرى قد أفاق بعد من صدمة هزيمة العرابيين ؛ وهو ما يعنى أن مصر وقعت للمرة الأولى فى قبضة إمبراطورية أوربية مسيحية ؛ منذ أن طردت جيوش الرومان من مصر مع الفتح الإسلامى لها على يد عمرو بن العاص؛ لذلك لم يكن من الغريب أن تكون هذه الفترة من تاريخ مصر مليئة بالمفارقات غير المنطقية والتى كان من بينها ان الصحف

الوطنية في تلك الأيام مثل المؤيد والأهرام ؛ دافعت بحماس عن حق الباشوات الثلاثة والدكتور الشافعي في الإحتفاظ برقيقهم؛ وإتهمت جيفر بك ومصلحته بتعمد إهانة الكرامة الوطنية ؛ كأنها كانت مصانة من الأصل ؛ بتعمده إلقاء القبض على رئيس مجلس شورى القوانين؛وهو المجلس النيابي الوحيد في ذلك الوقت ووضعه في الحبس بمركز شرطة عابدين وسط المجرمين !

وكانت حجة جريدة المؤيد في دفاعها عن المتهمين الأربعة هو أن القانون يجرم النخاسة وبيع الرقيق؛ لكنه لم يحرم شراء الرقيق ؛ لأن من يشترى الرقيق يكون قد أنقذه من يد نخاسه! كما أن المؤيد قد رفضت من حيث المبدأ فكرة أن يتم محاكمة المدنيين أمام محاكم عسكرية؛ كما كانت تنص إجرءات محاكمة المتهمين بالنخاسة ؛ أما صحيفة الأهرام فقد اتهمت الدكتور عبد الحميد الشافعي نفسه ؛ والذي اعترف بشرائه لأحد الجواري اللاتي تم ضبطهن؛ بأنه خائن وعميل للإنجليز؛ وأنه قد اعترف ليثبت التهمة على الباشوات الآخرين ؛ وفي نفس الوقت فإن صحيفة المقطم الموالية للإحتلال قد ا ستغلت الحادثة للدفاع عن الوجود الإنجليزي في البلاد؛ وقالت أن هؤلاء الباشوات ؛ الذين يتمنون أن يكونوا هم السادة وسائر الناس العبيد؛ هم أعداء هذا الشعب وليس الإنجليز ؛ كما نشرت دراسة قالت فيها أنها " بقلم أديب فاضل من وجهاء المصريين طالما قارع ببراعة فحول الأدباء وسحر ببيانه ألباب أولى الألباب " ؛ ودافعت المقطم في بحثها عن حرية الإنسان عوختمت بحثها بقولها:" أنتم أيها العبيد إعلموا أنكم إخواننا ؛ لكم ما لنا و عليكم ما علينا ؛ لا فضل لقرشي على حبشي إلا بالتقوى ولا يهولن أسيادكم أن تتساوا بهم في الحقوق ؛ وليهونوا على أنفسهم ؛ فكلكم لأدم وآدم من تراب " (١) ،

⁽۱) صلاح عيسي . حكايات من دفتر الوطن . بيروت – ١٩٨٥.

وفى ٤ سبتمبر من نفس العام تم عقد مجلس عسكرى لمحاكمة المتهمين الأربعة ؛ بالإضافة إلى النخاس المغربى حمدان مشكانة ؛ والجلاب البدوى محمد شعلوف ؛ وآخرون كانت تهمتهم تتراوح بين نقل الإماء والوساطة فى بيعهن وتسهيل إيوائهن بدون إبلاغ ضباط مصلحة إلغاء الرقيق ؛ وهم عبد الله سعد ووهدان ؛ أبو زيد ؛ وعبد الرحمن نصار ؛ ومحمد رحيم البطران .

وقد ترأس المجلس العسكرى اللواء زهرى باشا ؛ وعضوية اللواء فضلى باشا والأمير لاى حسن بك رضوان ؛ والقائمقام والأمير لاى حسن بك رضوان ؛ والقائمقام البراهيم بك راجى ؛ ومحمود بك توفيق ؛ ومحمد بك بكير ؛ وبحضور القائمقام على بك حيدر ؛ والقائمقام يوسف بك خلوصى ؛ وفريت بلك نائب الأحكام العسكرية ؛ والقائمقام حسن بك حارس ؛ والبكباشى محمد أفندى ماهر كمندوبين عن مصلحة الغاء الرقيق .

وصدرت الأحكام على المتهمين في ١٣ سبتمبر ؛ حيث قضى المجلس العسكرى ببراءة محمد باشا الشواربى ؛ وحسين باشا واصف ؛ وسجن الدكتور عبد الحميد الشافعى ؛ لمدة خمسة أشهر مع الأشغال الشاقة ؛ وسنجن باقى المتهمين مدد مختلفة تتراوح بين ستة شهور ؛ وسنة مع الأشغال الشاقة ؛وبالنسبة لشريف باشا فقد قررت الحكومة الإيطالية أنه غير تابع لها ؛ وأنه قد حصل فقط على رتبة مدنية من ملك إيطاليا تتيح له بأن يخاطبه باسم " ابن عمى العزيز" ولذلك تقرر محاكمته أمام مجلس عسكرى جديد في ٢٤ سبتمبر ؛ ولكنه لم يحضر المحاكمة لسوء حالته الصحية والتي شهد بها طبيبان إنجليزيان إنتدبهما المجلس للكشف عليه ؛ وفي ٨ سبتمبر أصدر الخديوى عباس حلمى الثاني الذي كان متغيبا خارج البلاد في رحلته السنوية لأوربا وقت القبض على شريف باشا أمرا بالعفوعن رئيس مجلس شورى النواب ؛ وإكتفى بأن كتب الإقرار الأتى : أقر أنى إشتريت ثلاث سودانيات للخدمة بدائرتنا ؛ وبقين بالدائرة لحد يوم تسليمهن للحكومة ؛ وأعترف بأنى مذنب في هذا الفعل لعلمي أن هذا غير جائز

ولكن حصل ذلك منى بنوع الإهمال ؛ والأن قد ندمت وتأسفت على حصول ذلك وعليه أطلب العفو والسماح من لدى أولى الأمر - الإمضاء والختم(١) ثم منحت مصلحة إلغاء الرق كل جارية ورقة حرية ولم يعرف لهن بعد ذلك مصير !



⁽١) أحمد شفيق باشا . مذكر اتى في نصف قرن ، مرجع سابق .

كتب ودراسات سابقة

- (۱)أحمد شفيق باشا: الرق في الإسلام، ط ۱ باللغة الفرنسية سنة ١٨٩٨، ترجمها للعربية أحمد زكى باشا، حاول المؤلف في كتابه دفع التهمة عن الدين الإسلامي بأنه شجع تجارة الرقيق وعرض لأوضاع الرقيق في ظل الأديان السماوية والوضعية السابقة للإسلام.
- (٢) مصطفى الجداوى: الرق فى التاريخ والإسالم، مبطعة بورسعيد ،الاسكندرية ، ١٩٦٧، قدم المؤلف شرحاً لأوضاع الرقيق فى ظل الدين الإسلامى ، وطرح وجهات نظر مغايرة حول طبيعة الأهلية القانونية للرقيق مستنداً إلى مذهب الإمام أبو حنيفة ، وأراء ابن قدامة في المغنى ، كما قرر المؤلف أن الاستعمار هو صورة جديدة من صور الرق الحديث .
- (٣) د. عبد السلام الترمانيتي: الرق ، ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧١ تناول المؤلف في كتابه تاريخ مؤسسة الرق في العالم القديم ، وقدم شرحاً مقارناً لأوضاع الرقيق في ظل الحضارات المختلفة والدين الإسلامي ، ثم عرض المؤلف لما وصفه بالمظاهر الحديثة للرق في العالم معتمداً على التقارير الإخبارية التي نشرتها صحف عربية وأجنبية .
- (٤) د. عبد العزيز عبد الدايم: الرق في مصر في العصور الوسطى ، مكتبة النهضة المصرية الحديثة ، القاهرة ، ط ١٩٨٣ شرح المؤلف الظروف التي أحاطت بقيام دولة المماليك في مصر وقدم وصفاً لأساليب التربية والتنشئة للمماليك داخل الطباق السلطاني وأسعار المماليك وأنواعهم .

- (د) د. على السيد محمود: الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ تعرض المؤلف بالدراسة لمجتمع الجوارى في دولتى المماليك الأولى والثانية والتأثير الاجتماعي الأدبى للجوارى على مجتمع القاهرة كما عرض المؤلف لطبقات وأنواع الجوارى في مجتمع القاهرة في هذه الفترة .
- (٦) محمد إبر اهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، د ١٩٩٩م ، قدم المؤلف وصفأ لطبيعة مؤسسة الرق داخل السودان وعوامل ازدهار أو انكماش هذه المؤسسة ، كما شرح الأهمية التي مثلها الرقيق كسلعة استر اتيجية بالنسبة لاقتصاد السودان حتى قيام الحكم الثنائي المعمول به ، و أهميته بالنسبة للدولة المهدية ، ثم تحلل علاقات الرق داخل السودان بعد قيام الإدارة المصرية الانجليزية بمكافحة النخاسة في البلاد .

دراسات

(۱) د. لبيبة إبراهيم مصطفى محمد: الرقيق وتجارته فى مصر والشام فى عصر دولة سلاطين المماليك ، ١٤٨ هـ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ م. رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الأداب جامعة القاهرة ، ١٩٨٤، عرضت الباحثة لآليات تجارة الرقيق فى عصر سلاطين المماليك، وأثر عاملى العرض والطلب على ارتفاع أو انخفاض سعر الرقيق ، وعوامل اختيار الرقيق وطرق تقليده . وكما قدمت شرحاً لدور محتسب سوق الرقيق فى الرقابة على عمليات البيع والشراء داخلا السوق ، ووصف لأسواق الرقيق التى كانت قائمة داخل مصر فى هذه الفترة .

المحتويات

لصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
7.9	قواعد عتق الرقيق	٦	أهل الفضل
٧٨	المولاء	٨	مقدمة
٨١	اسواق الرقيق وأسعاره في	١.	المنهج والأدوات
	مصرالأسلامية	11	الطبيعة الأجتماعية للرق
114	أسعار الرقيق في مصر		في مصر
144	الجوارى	لل ۲٦	أوضاع الرقيق في مصر في ظ
144	الخصيان		الدين الاسلامي
104	تحلل علاقات الرق في مصر	٤٧	قواعد التسرى بالاماء
144	كتب ودراسات سابقة	٥٧	زواج الرقيق
144	مراجع مختارة	14	عورة الرقيق

المراجع مختارة

أولاً: القرآن الكريم ثانياً: مراجع عربية

- ۱ أبوالفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى : تفسير ابن كثير دار القرآن الكريم ،
 بيروت ، بدون تاريخ
- ٢ أبوعبد الله مالك بن أنس: موطأ الامام مالك المجلس الاعلى للشئون
 الاسلامية القاهرة ١٩٨٧.
- ٣ الإمام أبو الوليد محمد بن احمد بن رشد القرطبى: بداية المجتهد ونهاية المقتصد مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٩٨٢.
- أبوالحسن المختار بن عبدون بن سعدون البغدادى المتطبب: رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، في نوادر المخطوطات
 تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ٥ أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد مكتبة النهضة ، القاهرة ، بدون تاريخ
- ٦ د. أحمد السغيد سليمان : تأصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل دار المعارف القاهرة ١٩٧٩ .
- ٧ أحمد شفيق باشا: الرق في الاسلام، القاهرة ١٨٩٦. مذكراتي في نصف قرن، جزءان الهيئة المصرية العانة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤.
- ٨ د . إلهام محمد على ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسين فـى القرن التاسع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٤ .
- ٩ جكريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر ترجمة فؤاد أندوراس ،
 مراجعة د. محمد أحمد أنيس دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،
 القاهرة ١٩٥٤ .

- ۱۰ جون لویس یورکهارت : رحلات یورکهارت فی بلاد النوبة والسودان ، ترجمة فؤاد أندوراس ، القاهرة ۱۹۵۹ .
- ١١ جيمس ميللون: أيام الضرب بالسياط. نصوص مترجمة في مجلة رسال
 اليونسكو القاهرة، عدد اكتوبر ١٩٩٤.
- ۱۲ حسن السخى : الاسلام والرق ، رؤية معاصرة ،دار الكنوز القليوبية
 ۱۹۹٤ .
- ۱۳ د . سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ١٤ د . عبد العزيز عبدالدايم : الرق في مصر في العصور الوسطى ، مكتبة النهضة الشرق ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ١٥ على ابر اهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة
- ۱٦ د . على السيد محمود : الجوارى في مجتمع القاهرة المملوكية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين عدد ٢١٨ القاهرة ١٩٨٤ .
- ۱۷ علماء الحملة الفرنسية: كتاب وصف مصر ، ۱۰ أجزاء ترجمة أمين
 الشايب وزهير الشايب ، دار الشايب للنشر .
- ۱۸ عبدالسلام الترمانيني :الرق ماضيه وحاضره ، سلسلة عالم لمعرفة الكويت ١٨ عبدالسلام ١٩٧٩ .
 - ١٩ كافين رالى : الغرب والعالم ، القسم الثانى ترجمة
 عبدالوهاب المسيرى وهدى عبدالسميع عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٦ .
- ۲۰ د. لبيبة ابراهيم مصطفى محمد: الرقيق وتجارته فى مصرو الشام فى عصر دولة سلاطين المماليك ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الاداب جامعة القاهرة ١٩٨٤.

sharif mahmoud

- ٢١ محمد إبر اهيم نقد: علاقات الرق في المجتمع السوداني ،
 دار الثقافة الجديدة القاهرة ١٩٩٥ .
 - ۲۲ محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان (۱۸۲۰ ۱۸۸۰) القاهرة ۱۹٤۷ .
 - ۲۳ مصطفى الجداوى: الرق فى التاريخ والاسلام ،
 جزءان ، مؤسسة بورسعيد للطبع والنشر ، الاسكندرية

. 1977

- ۲۲ نعیم ذکری : طرق التجارة الدولیة ومحطاتها بین
 الشرق والغرب ، القاهرة ۱۹۷۳ .
- ۲۵ د . ناريمان عبدالكريم أحمد ، المرأة في مصر في العصر الفاظمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣ .

<u>ثالثاً</u> : مراجع أجنبية

- 1 Burchardt, Jl: Travel in Nubion, London 1980.
- 2 Gessir: Seven Year in the sydan Londan 1892.
- 3 Michel Leiris "Race and cvltnere" in UNESCO, Race and Science. New York Columion.

sharif mahmoud

رقم الايداع ٢٦٦٢ / ٩٧

الترقيم الدولي 7 - 2635 - 19 - 977 ISBN

جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس والترجمة للغات أخرى محقوظة للناشران.

المراسلات مع المؤلف

· شارع محمد عبده - الأزهر - أمام بنك القاهرة القاهرة - جمهورية مصر العربية.

01.10 7